

عندما يتكلم التاريخ

أسرار عباقرة وعظماء
حكايات ثوار وسفاحين

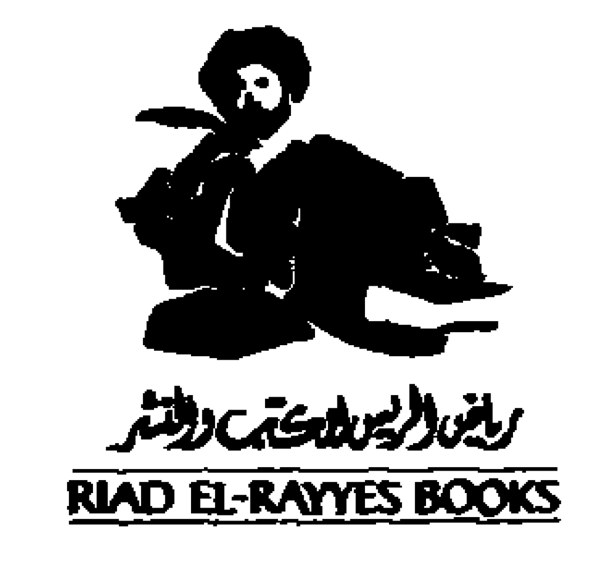
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

عندما يتكلّم التاريخ

نـجم عبـد الكريم

عندما يتكلّم التاريخ

أســـرار عبـاقرة وعظمـاء
حكايات ثـوار وسفاحين


رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

When History Talks

Secrets of Geniuses and Greats
Stories of Revolutionaries and Butchers

Dr. Najim Abdulkareem

First Published in July 2014

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 978 - 9953 - 21 - 582 - 2

الطبعة الأولى: تموز (يوليو) ٢٠١٤

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

(إلى كل أولئك الذين كتبوا كلمة نبيلة،
ازدهت بها شجرة المعرفة الانسانية،
والتي طالما قطفت من ثمارها).

المحتويات

لماذا «عندما يتكلم التاريخ» ؟

ما إن يجتاز القارئ الصفحات الأولى لحكايات **ألف ليلة وليلة**، حتى يجد نفسه قد انسجم وتفاعل مع عوالمها المشبعة بأقاصيص صاغها المخيال الشعبي عبر سلسلة الحضارات المتعددة، وعلى امتداد قرون موغلة في القدم، لتتوارثها الأجيال، فتغدو أيقونة الآداب القائمة على ذلك المخيال الخرافي الساحر.

وبغض النظر عن الظروف الموضوعية التي تؤدي الى شيوع هذا اللون من الحكايات والأقاصيص المرتكزة على خصوبة المخيال الشعبي اللامحدود، سواء في **ألف ليلة وليلة** أو سواه، فإن تاريخ البشرية يحفل هو الآخر بوقائع وأحداث حقيقية فيها ما يفوق الخيال الذي يستهوي القارئ، لاحتوائها على ما لا يُصدق!

من هنا جاءت فكرة هذا الكتاب . . فمنذ أكثر من ثلاثة عقود، عقدت العزم على جمع «ألف حكاية وحكاية» على غرار **ألف ليلة وليلة**، وهذه الحكايات تستند الى حقائق وقعت على امتداد مساحات التاريخ البشري.

وشرعت بالفعل بـ «قراءات مكثفة» بحثاً عن الوقائع التي سطّرها لنا التاريخ القديم والمعاصر، شرط أن تحتوي على أحداث تقتضي التوقف عندها، إما لندرتها أو لمضمونها القمين بأن يُسطّر على صفحات التاريخ. فعثرت على ركام مهول

يحتاج جمعه وتنقيحه وتقديمه للقارئ المعاصر بالأسلوب الملائم الى مئات المجلدات . . فوقع اختياري على بضعة آلاف من تلك الوقائع والأحداث والقصص.

منذ أكثر من عشرين سنة أنجزت ما يقرب من خمسمائة «قصة» و«حكاية» و«حدث»، نُشر البعض منها في الصحف، وقدمت البعض الآخر في برنامج «قراءات» الذي كان يُبث على فضائية (mbc) في أواسط تسعينيات القرن الماضي، وها أنذا أدفع بهذه الخمسين من «خلاصة قراءات» في هذا الكتاب كدفعة أولى.

فإذا ما تحقق الهدف الذي حفزني على إنجازها، فسوف أواصل السعي الى نشرها تباعاً.

□ □ □

● أود الاشارة الى جملة ملاحظات حول الأسلوب الذي اتبعته في هذا الكتاب:

أولاً: لقد اعتمدت الاختصار المكثف الى أبعد الحدود، فاستخراج «الواقعة»، أو «الحدث»، أو «القصة»، من مصدرها الأصلي، وتقديمها مختصرة بصفحات قليلة ليس بالأمر اليسير، من دون الاخلال بالمضمون المراد إيصاله للقارئ.

ثانياً: حرصت على صياغة الأحداث بأسلوب الحوار الذي يكاد أن يقترب من «السيناريو» وهو الأكثر تبسيطاً من التقعر الوصفي الانشائي الذي كُتبت به معظم أصول هذه المواد، مع الحرص على اللغة العربية الفصحى، وإن كانت بعض الوقائع والأحداث جرت في أجواء شعبية.

ثالثاً: إن إعادة الصياغة بالأسلوب المعاصر تقتضي الالتزام بهذا الأمر إطاراً ومضموناً، لهذا أستميح القارئ عذراً إذا ما وجد أنني ـ أثناء صياغتي هذا السيناريو أو ذاك ـ قد أضفت بعض الشخوص التي لا وجود لها في النص

الأصلي، وحذفت بعض الشخصيات التي ذكرها تاريخ الوقائع أو الأحداث التي سيقرأها!

فالتفكيك والتركيب من أجل إتمام البناء أمر مشروع في عالم الدراما. لعلّني أفترض أن ما بين أيديكم من قصص في هذا الكتاب هي أقرب ما تكون الى العمل الدرامي القائم على وقائع وأحداث واقعية. وأتوقع أن ثمة من يترصدون ما دوَّنه التاريخ حول حقيقة هذا الحدث أو ذاك مما جاء في هذا الكتاب. تمعّنت في هذا الشأن، فتيقنت أن معظم أحداث التاريخ قد كُتبت بوجوه متعددة، بحيث يصعب أن نجد في تحليلنا للتاريخ أن هناك من توصل بتحليله الى الحقيقة المطلقة في هذه الواقعة أو تلك! فإذا كانت هذه الحادثة أو تلك الواقعة لم تتطابق مع بعض ما يتقفّاه هؤلاء المترصدون، فليس ما ورد من قصص وأحداث ووقائع في هذا الكتاب مما يستثير حفيظتهم، لأنني التزمت باختيار قصص لا تتصادم مع العقائد والأيديولوجيات الدينية أو السياسية التي تضمنها التاريخ، والتي كثيراً ما تثير الخلافات بين من يعيرون هذه الأمور جلَّ اهتمامهم . . قد يختلف البعض معي على أن ستالين لم يكن وراء اغتيال تروتسكي، أو أن مارلين مونرو ماتت منتحرة ولم تُقتل بقرار سياسي، أو أن عشق كليوباترا ليوليوس قيصر لم يكن حقيقياً، أو أن لوحة الموناليزا قد رسمها دافنشي أم لم يرسمها، أو أن أم هارون الرشيد أرادت أن تفرض هيمنتها على ابنها الخليفة أم لا . . الخ. فأتمنى ألاّ يُفسد قضيةَ الاختلافُ في أمور كهذه، بالنظر إلى الجهد المبذول في هذا الكتاب.

نجم عبد الكريم

القسم الأول

سفّاحون وعظماء

الكاردينال الأحمر!!

لماذا أطلقوا عليه هذا اللقب؟ ألأنه كان دائماً يرتدي عباءة الكرادلة الحمراء؟ أم لأن يديه ـ كما يزعم أعداؤه ـ اصطبغتا باللون الأحمر لكثرة ما خاضتا في دماء الناس؟

□ □ □

ذلك هو ريشيليو وزير ملك فرنسا، لويس الثالث عشر، في النصف الأول من القرن السابع عشر. . القرن الغامض، الحافل بالمتناقضات. . ما أكثر ما قيل عنه. لكن التاريخ المنصف يقول عن الكاردينال الأحمر:

«لقد كان ريشيليو عنيفاً. . أجل. . قاسياً في أحوال كثيرة. . أجل. . دموياً أيضاً في أحوال قليلة. . أجل، غير أنه بهذا استطاع أن يوحّد فرنسا حول ملك واحد. . وأن يجمع شتات الأمراء المتنازعين، ويوحّد قواهم حول العرش ولخدمة التاج!».

ويذكر لـه التاريخ، أيضاً، أنه أنقذ مليكه من مؤامرة محبوكة الأطراف كانت كفيلة، لو تمت، أن تودي بالأسرة المالكة على حكم فرنسا.

لنتصور أحداث الحكاية بالرجوع إلى القرن السابع عشر، إلى عام ١٦٣٨ على وجه التحديد، لنرى الكاردينال ريشيليو في غرفته في القصر، وبالقرب منه أمين سره، يملي عليه بعض المذكرات. الليل في منتصفه، ولم يبق ساهراً غير الكاردينال المثابر وحرس القصر. فجأةً يدخل عليه الملك، فيهبّ مرحباً:

ـ مولاي.. أهلاً بك، لم أتوقع تشريفك في هذا الوقت من هزيع الليل.

ـ إصرف مَن حولك من موظفين وحرّاس، فأريد أن أخلو بك لأمر خاص.

ـ أجل، يا صاحب الجلالة.

[يأمر الجميع بالانصراف]

ـ معذرة يا صاحب الجلالة، إذ لا أستطيع الوقوف بين يدي جلالتكم، لأني مريض كما تعلم ولا أستطيع مفارقة المقعد.

ـ ومع ذلك فالناس يقولون إنك في كل مكان يا كاردينال ريشيليو!

ـ من أجل خدمة مولاي!

ـ وأحياناً من أجل خدمة نفسك!

ـ كأن صاحب الجلالة الملك يضمر شيئاً في نفسه.. ليت جلالتك توضح لي أكثر ما تعنيه..

ـ أنت تعرف ما أعني!

ـ ليس في ذهني أمر محدّد مما تقصده جلالتك.

ـ الحق أنني لا أدري كيف أصوغ أفكاري بمثل الوضوح الذي تميزتَ به، يا

كاردينال. . حسناً سأحاول قدر المستطاع أن أوضح لك ما يدور في رأسي.

ـ إني أنتظر ما تأمر به يا صاحب الجلالة.

ـ أنت رجل عظيم يا صديقي. . لا أحد يشك في هذا، ولست أذكر في تاريخ فرنسا وزيراً استطاع أن يسدي إليها من الخدمات بعض ما أسديت. . لكن ذلك كله يا عزيزي الكاردينال كان على حسابي أنا شخصياً!

ـ [في دهشة] يا صاحب الجلالة، أقسم لك حقاً أنني لا أكاد أفهم ما ترمي إليه. كيف يكون مجد فرنسا على حسابك؟ إنه لحسابك يا مولاي. . لحساب التاج!

ـ لكن أصدقائي هم من دفعوا الثمن! إنك يا كاردينال لم تبق لي على صديق واحد! ما إن تدرك أنني اصطفيت أحداً من الأمراء أو النبلاء، حتى تطارده بالاتهامات إلى أن تقضي عليه!

ـ لم يكن ذلك يحدث من دون محاكمة قانونية تثبت فيها الخيانة.

ـ الخيانة؟ لمن؟ لي . .أم لك؟!

ـ للتاج يا صاحب الجلالة، لفرنسا. . لشعبها.

ـ أتحب أن أعدد لك ضحاياك من أصدقائي وأقرب الناس إلي؟

ـ ملفاتهم في هذه الغرفة يا مولاي، ما إن تذكر اسم واحد منهم حتى أنعش ذاكرتك بكل ما ارتكب من آثام وشرور في حق التاج!

ـ [بعد تفكير] لعلك على حق! ولكن التهم في بعض الحالات لم تكن تتناسب مع الأحكام. لقد سال دم كثير يا كاردينال!

ـ وأصبح التاج على رأسك أكثر ثباتاً يا مولاي!

ـ [بغضب] ألا ترى أنك تغالي في ما تقول. حسناً . . منذ الساعة سأعفيك، وسأحكم البلاد بنفسي!

ـ طالما رجوتك أن تفعل يا مولاي. . وليتك تفعل هذه المرة. . فإني مريض وفي حاجة إلى الراحة.

ـ وإن تكنْ مريضاً، فإني أعرف قدر حبك للسلطة والسيطرة والهيمنة. إذا أردت الاحتفاظ بمنصبك، فدع الماركيز سان مار، ولا تمسّه بشرّ.

ـ سان مار يتآمر عليك يا صاحب الجلالة!

ـ أنت تكذب، أو أثبت ما تقول!

ـ لقد أقلتني يا صاحب الجلالة ولم يعد من حقي إثبات أي اتهام على أعدائك. ثم ألم تقل منذ لحظة إنك سوف تحكم فرنسا بنفسك؟

ـ أتهددني أيها الكاردينال؟

ـ كلا يا صاحب الجلالة، ولكنني مريض ومن حقي أن أستريح. ورغم كل شيء ستجدني رهن إشارتك إذا احتاج الأمر إلى رأيي. وإذا سمحت لي أن أستدعي سكرتيري الكونت غالمار، ليعرض على جلالتكم منذ اللحظة كل أمور الدولة العاجلة.

● وينزوي الكاردينال الأحمر في غرفة نومه ويترك سكرتيره يعرض على الملك الأمور العاجلة.

وبعد أن أطال السكرتير في شرح عدد من القضايا المطروحة. . صرخ الملك منزعجاً:

ـ ما لي أنا وللأمور العاجلة، اعرضوها على الوزراء، كل في ما يخصه.

ـ أجل يا صاحب الجلالة.. ولكن..

ـ ولكن ماذا يا كونت غاليمار؟

ـ يا صاحب الجلالة، أعرض على جلالتكم أموراً هي على أقصى درجة من السرية، وليس من مصلحة الدولة أن تتناولها أيادٍ كثيرة..

ـ حسناً... اعرضها على الكاردينال.

ـ الكاردينال؟ ولكنك يا صاحب لجلالة...

[ويسكُت]

ـ [في حدّة] إنني لم أقِله من الوزارة.. ما دام يتقاضى مرتبه، فعليه أن يعمل به!

ـ سأخبر نيافته بهذا يا صاحب الجلالة!

ـ كلا.. أنا من سأخبره بذلك.. الآن في الحال.. اذهب إلى غرفته، وأخطره بزيارتي.

● يذهب الملك إلى غرفة الكاردينال الذي يبادره بالقول:

ـ يا صاحب الجلالة، سأنظر في الأمور العاجلة حتى تجد من يحلّ مكاني..

ـ [محاولاً إرضاءه] لا أحد يستطيع أن يملأ مكانك يا صديقي الكاردينال، احتفظ بكل صلاحياتك، بل أطلب ما تشاء من صلاحيات أخرى بشرط!

ـ ما هو؟

ـ ألا تأمر بإلقاء القبض على الماركيز سان مار.

ـ بل أنت يا مولاي من سيوقّع على أمر إلقاء القبض على سان مار.

ـ بحق السماء .. لم تكرهه إلى هذا الحد؟

ـ لأنه يتآمر على عرشك يا مولاي.

ـ لقد اتهمت أخي غاستون بهذا، وأمرت بنفيه من البلاد. أما ابن عمي الدوق مونمورانس فقد أعدمته. والآن تريد أن تقبض على الصديق الوحيد الذي اخترته لنفسي!

ـ أتمنى يا صاحب الجلالة أن تمنحني الفرصة لأبصّرك بخيانة صديقك المزعوم الذي رفعتَه إلى مرتبة النبلاء، فيتطلع أول ما يتطلع إلى أميرة من الأسرة الملكية.

ـ أهذا كل ما تأخذه عليه؟

ـ أوتدري يا مولاي لماذا وقع اختياره على الأميرة ماري دي غونزاج؟

ـ لأنه يحبها!

ـ كلا .. بل هو يريد، عن طريق الزواج بابنة أختك، أن يكتسب الحق في أن يكون ترتيبه الثالث في وراثة العرش.. ألا يشير هذا إلى نية أخرى مبيتة؟

ـ نية مبيتة؟.. ماذا تعني؟

ـ القيام بانقلاب تسانده دولة أجنبية للوثوب إلى عرشك..

ـ [ضاحكاً] سان مار يفعل هذا؟ إنك يا كاردينال رغم علمك ببواطن الأمور، لا تدري شيئاً من شؤون النبلاء! إعلم يا عزيزي الكاردينال أن سان مار يحب ماري

دي غونزاج حقاً وصدقاً، ولولا أنها ردته لما عارضتُ الزواج.

ـ حمداً لله أنها ردته، ولمَ يضطرني ذلك إلى معارضة رغبتكم.

ـ انتهى هذا الأمر على أي حال.. فما الذي تأخذه على سان مار بعد ذلك؟

ـ مؤامرة عليك يعدّها، ولديّ بعض الأدلة على ذلك.. وأفضّل أن أقبض عليه قبل أن يطمس معالمها.

ـ [في حدة وغضب] وهذا ما لن أمكّنك منه.. لقد تجاوزت حدك يا كاردينال، ولذا فقد أمرت بفصلك ونفيك، وغداً يصدر قراري الملكي بذلك!

● ويتردد لويس الثالث عشر في إصدار القرار. ويحاول مرة أخرى اختبار مهارته في معالجة شؤون الدولة، فلا يرى ضيراً في طلب العون من سكرتير الكاردينال الكونت غاليمار الذي يمثُل أمام الملك يومياً حاملاً العديد من الملفات والأوراق.

ـ التقرير الوارد إلينا من البرتغال يا صاحب الجلالة، يدل على أن أميرها يمدّ يده إلى كاتالونيا ويؤيدها في ثورتها.

ـ ماذا عن ملك إسبانيا؟

ـ كالعادة.. ضد الثورة.

ـ إذاً، فلنساند الثورة.. أرسل إلى كاتالونيا، وقل لزعماء ثورتها إنني أضع يدي في أياديهم.. قل لي يا غاليمار، ماذا كان الكاردينال ريشيليو ليفعل أمام موقف كهذا؟

ـ من حق جلالتكم اتباع ما ترونه في هذا الشأن، لكن موقف نيافة الكاردينال سيكون مختلفاً عما أشرت عليّ به.

ـ حسناً دعني أفكر في الأمر.. انتظر قراري بعد أسبوع.

ـ أسبوع يا مولاي؟ الموقف لا يحتمل التأخير حتى يوماً واحداً..

ـ ولكنني أريد أن أفكر! أريد أن تكون الرؤية أمامي واضحة.

ـ كما تشاء يا مولاي.. وماذا سنفعل بالمشكلة الإنكليزية؟

ـ ماذا بشأن إنكلترا هي الأخرى، هل سأحل كل المشاكل بجلسة واحدة؟

ـ إنها مشاكل عاجلة يا صاحب الجلالة.. كان الكاردينال يبتّ في العشرات منها في أقل من ساعة.

ـ اللعنة على الكاردينال.. ماذا بشأن إنكلترا؟

ـ الملك شارل الأول في موقف عسكري دقيق أمام كرومويل، وقد أرسل يطلب من فرنسا أن تتدخل لنصرته.

ـ أطلب إلى القائد العام للجيوش الفرنسية تلبية رغبة الملك شارل في الحال ودون تأخير.

ـ يا صاحب الجلالة.. لقد جاءتنا من الملك شارل نداءات كثيرة كهذه، وهاك واحداً منها، كتب عليه الكاردينال بخط يده تعليقاً قد يلقي الضوء على المشكلة.

ـ أرني ما كتبه الكاردينال عليه اللعنة.. [يقرأ]: «يحسن عدم الاندفاع في تأييد شارل الأول فهو في حربه ضد كرومويل يعتمد على الإسكوتلنديين، وما يتوافر لدينا من أنباء سرية يدل على أنهم سيبيعونه لكرومويل بأرخص الأثمان.. وكرومويل سينتصر، ولا معنى أن تلقى جيوشنا هزيمة لا ضرورة لها على أرض إنكلترا..».

ـ إذاً، هذا رأي الكاردينال؟

ـ أجل يا صاحب الجلالة. ولكن ما من مانع في أنه كان يمتلك رأياً مناسباً للموقف الحالي يختلف قليلاً عن رأيه الأول.

ـ وماذا؟

ـ الحق أنني لا أعرف يا صاحب الجلالة.

ـ حسناً. . لنؤجل هذا الموضوع أسبوعاً.

ـ كما تشاء يا مولاي، هناك الآن مشكلة أملاك البروتستانت في . .

ـ [مقاطعاً] كفى. . كفى. . لقد أغرقتني في بحر من المشاكل. . أمور معقدة وكثيرة. . تريدون مني أن أحلّها الآن . . أين ذهب هذا اللعين الكاردينال ريشيليو؟ إنني لم أصدر قراري بفصله بعد . . عليه مواصلة عمله.

● يأتي الكاردينال محمولاً على محفته من فرط المرض، فيبادر الملك قائلاً: أنا مريض يا مولاي. . ولا طاقة لي بالعمل.

ـ لا تجادل يا كاردينال، وابدأ عملك.

ـ إنني في طاعة مولاي، ولكنّ لي شرطاً.

ـ أعرفه. . أعرفه. . أن أوافقك في إلقاء القبض على سان مار!

ـ بل توقّع على أمر إلقاء القبض عليه!

ـ هات الأمر، وإليك التوقيع. . والآن بحق السماء، إعفني من النظر في هذه الأمور المعقدة!

● والسؤال: هل كان الكاردينال متجنياً على الشاب المرح والجميل سان مار؟ أم كان ذلك الوجه الجذاب ساحر النساء يخفي وراء تقاطيعه الوسيمة أخبث نفس تتآمر على بلاده ومليكه كما يزعم **الكاردينال ريشيليو**؟

● قال التاريخ كلمته في الإجابة:

إن ريشيليو استطاع إنقاذ عرش مليكه من أخطر مؤامرة تعرضت لها فرنسا في القرن السابع عشر. هي المؤامرة التي دبّرها وحاك خيوطها وأوشك أن يصل بها إلى غايتها، الماركيز سان مار صديق الملك، والتي لم تتضح تفاصيلها، لكننا سنأتي عليها لنكتشف أن الماركيز سان مار ما زال حراً طليقاً، بل أنه قد ازداد حظوة عند الملك والنبلاء جميعاً، والنبيلات على وجه الخصوص. بيْد أن عين الكاردينال لم تغفل لحظة واحدة عن سان مار وأعوانه.

● أما لماذا لم يأمر بإلقاء القبض عليه رغم أنه صدر عن الملك نفسه، فالكاردينال يرى أنه لن يشرع بإلقاء القبض حتى يتحرك سان مار بتنفيذ الخطة التي أعدها، فتكون لديه أدلة دامغة على اتهامه. فالكاردينال يتابع عن كثب تلك الجلسات السرية في قصور المتآمرين من أعداء الملك، فرجاله ينقلون له حرفياً كل ما كان يدور في تلك الاجتماعات، والكاردينال يطيل لِسان مار الحبل كي يشنق نفسه بنفسه.

ومن الأخبار التي تسربت إلى الكاردينال من قصر الدوق غاستون دورليان، شقيق الملك، الذي كان هذا الأخير قد عفا عنه، وحدد إقامته في ذلك القصر الريفيّ، ما قاله دورليان نفسه:

ـ اللعنة على أخي لويس الثالث عشر.. لن أرحمه حين يقع أسيراً في يدي.. وستحل أنت يا ماركيز سان مار محل ذلك الكاردينال اللعين!

فيجيبه سان مار:

ـ هذا شرفٌ كبير يا دوق دورليان. . ولكنني صغير السن على منصب كبير كهذا.

ـ لن أبالي يا ماركيز. . ألم يتولّ ريشيليو هذا المنصب وهو في الخامسة والعشرين، المهم أن تخبرني الآن إلى أين سارت الأمور، ومتى نبدأ بتنفيذ خطتنا؟

ـ في أقرب مما تتصور يا صاحب الجلالة!

ـ لا تتعجل بأن تخلع علي هذا اللقب، فلم أصل إلى التاج بعد.

ـ سيُشرّف التاج برأسك بعد ثلاثة أشهر على أبعد تقدير. . لقد نجح رجالي في إغراء فيليب الرابع ملك إسبانيا بعقد معاهدة سرية معنا، من شروطها أن يمدنا بالرجال والمال لقاء تنازلنا له عن قلعة «سيدان» موضوع الخلاف بينه وبين الكاردينال ريشيليو.

ـ ما أهونه من ثمن!. . هه. .؟ وهل وقّع فيليب على المعاهدة؟

ـ ليس بعد يا مولاي. . فقد اعترض على بعض النقاط الأخرى، وهي ضئيلة الأهمية، فرأيت أن أستشير جلالتك حتى لا يحدث أي خلاف بعد ذلك.

ـ لا تدخلني في التفاصيل . . إتفق مع الملك فيليب على كل ما تراه مناسباً للموقف. . كل ما أريده هو أن يمدني بعشرة آلاف مقاتل ينضمون في اللحظة المناسبة إلى رجالنا، فأسير على رأسهم من الجنوب حتى باريس.

ـ حسناً. . سنكتب صيغة المعاهدة. . ويحسن أن يكون ذلك بخطك يا صاحب الجلالة حتى يقتنع فيليب الرابع بجدية الأمر.

ـ لا أحب أن أكتب شيئاً بخطي. .

ـ ولماذا يا صاحب الجلالة؟

ـ احترازاً. . من يدري؟

ـ يا صاحب الجلالة، إن رأسي في هذه المؤامرة قبل رأسك. . فإذا أردت جلالتك أن نتم ما بدأناه، فليكن نصف الصيغة بخطي، ونصفها الثاني بخطك!

ـ لا بأس بهذا. إبدأ بكتابة الجزء الأول يا ماركيز. . ولكن قل لي كيف ستصل هذه المعاهدة إلى الملك فيليب الرابع دون رقابة الكاردينال ريشيليو؟

ـ سيتكفل بهذا الماركيز فونتراي الذي سيخيطها بين طيّات معطفه، ويتنكر في زي راهب من الوعّاظ المتجولين، حتى يصل إلى إسبانيا. فإذا حصل على توقيع الملك الإسباني، أعادها مرة أخرى إلى طيّات معطفه، وسلّمها إلينا.

ـ كن على حذر يا سان مار. بلِّغ رسولك هذا ألا يمتطي جواداً، فالوعاظ يتنقّلون سيراً على الأقدام. . ولا شك في معرفتك أن رجال الكاردينال في كل مكان. . في الجبال المقفرة. . في الوديان المزهرة. . في البيوت. . في القصور. . في الأكواخ. . لنكن حذرين ألا يسير الرسول مع أحد، وألا يفارق معطفه حتى في عزّ شمس إسبانيا الصيفية الحارقة.

● ترى هل غفل الكاردينال عمّا يدبَّر في ذكاء وفطنة وسرية؟

في الحقيقة لم يكن غافلاً، إذ نقل إليه رجاله كل كلمة دارت في ذلك الاجتماع، ومع هذا فهو لم يبادر بإلقاء القبض على المتآمرين، رغم معرفته الأكيدة أن المعطف يحتوي على الصيغة التي تثبت الخيانة!

إلا أنه كان ينتظر الحصول على توقيع فيليب الرابع عليها. . ليرغمه على التنازل عن كل مطالبه في جنوب فرنسا لقاء السكوت عن فضيحته!

أما كيف سيتمكن الكاردينال الأحمر ريشيليو من الحصول على الوثيقة المخاطة في معطف رجل بهيئة راهب، فهو أرسل خلفه رجلين من أعتى رجاله، مزوّديْن بخطة حصول على النسخة الأصلية من المعاهدة، دون أن يشعر بذلك فونتراي الذي يحملها في باطن معطفه. لقد اختار لهذه المهمة رجلاً اسمه لوبار عُرف بخفة يده في السرقة.

● فما إن وقّع الملك فيليب الرابع على المعاهدة وقام فونتراي بخياطتها مرة أخرى في معطفه الكهنوتي، وبدأ رحلته عائداً إلى فرنسا، حتى كان السارق الشهير لوبار بانتظاره في الممر الضيق ما بين جبال البرانس. وكان إدمون زميل لوبار، يتابع الراهب المزيف عن كثب بينما تنكر لوبار في زي أحد رعاة الأغنام، بعد أن اتخذ لنفسه كوخاً صغيراً على سفح الجبل.

واقترب فونتراي بمعطفه الثقيل يجوس الطريق بعصاه ويسير سير المحاذر اليقظ، حتى إذا بلغ الراعي ألقى عليه التحية، قائلاً:

ـ ليلة طيبة أيها الراعي الساهر رغم هذا الجو المضطرب..

ـ ليلة طيبة يا أبتاه.. فيم اقتحامك هذا الطريق الوعر في هذا الليل المخيف؟

ـ الواجب يا بني.. الواجب يناديني.. ما كان لخدم الله أن تثنيهم وحشة الليل، ولا أن تقعدهم وعورة الطريق عن القيام بواجب الله.

ـ لكن الله رحيم بعباده يا أبتاه.. إجلس وجفف ثيابك المبللة على حرارة النار، وإنك لتستطيع أن تفعل غداً ما تريد أن تفعله الليلة.. إجلس يا أبتاه.

ـ الحق أنني متعب يا بني.. سأجلس ساعة.. فهل أجد لديك ما آكله؟

ـ على الرحب والسعة أيها الأب الجليل.. هذا كوخي الحقير، أختزن فيه شيئاً

من الطعام وقليلاً من النبيذ. . لعل في قدومك ما يخفف آلام ابنتي المريضة.

ـ ألديك ابنة مريضة؟

ـ أجل، إنها في الكوخ. . بعد أن ماتت أمها وتركتها وحيدة في هذا المكان البعيد. . أرجو أن تباركها حين تصل إلى الكوخ يا أبتاه.

ـ الرب رحيم يا ولدي. . الرب رحيم . . كيف تشعر بالأمن في هذا المكان يا ولدي. . ألا تخشى اللصوص؟

ـ لست أخشى غير الصواعق والعُقبان. . أما البشر فلا يجتاز هذا الممر منهم غير المهرِّبين. . وهؤلاء لا يطمعون مني بأكثر من أن أدلهم على الطريق.

ـ الحق أيها الراعي أنني لا أدري كيف أشكرك. . وسأدعو الله أن يشمل ابنتك برعايته.

● وبينما هما في الطريق معاً، تعثّر فونتراي في حفرة عميقة كان لوبار قد أعدّها له، وما إن سقط فيها حتى هرع لوبار الذي كان يسير أمامه، صائحاً:

ـ هل أنت بخير يا أبتاه؟

ـ لقد وقعت في حفرة عميقة يا ولدي، أنقذني بحق السماء.

أمسك لوبار بمعطفه محاولاً سحبه من الحفرة، فانخلع المعطف بيده. . وصاح فونتراي:

ـ لا تلق بالمعطف!

ـ إطمئن، معطفك معي. . إطمئن. . وانتظرني لحظات يا أبتاه إذ سأحضر لك حبلاً طويلاً من الكوخ لأسحبك من الحفرة.

وأسرع رفيقه إدمون باستخراج نسخة المعاهدة الأصلية، ونسخها بسرعة متناهية واحتفظ بالأصل، ووضع النسخة المنسوخة مكانها وأعادها إلى مكانها في المعطف الذي أحكموا خياطته ثانيةً.

في هذه الأثناء كان لوبار يتباطأ في محاولة إنقاذ الراهب المزيف.

والحق أن الكاردينال ريشيليو قد اختار لهذه المهمة إثنين من الدهاة في مجال اختصاصهما، مثل لوبار اللص الشهير وإدمون المعروف بتزييف المخطوطات، حيث أدّيا دورهما على خير وجه.

وتصل المعاهدة الأصلية إلى يد الكاردينال وعليها توقيع المتآمرين، دوق دورليان شقيق الملك، والماركيز سان مار، والماركيز فونتراي الذي كان ينقلها مخاطة في داخل المعطف، وأخيراً توقيع فيليب الرابع ملك إسبانيا.

وما إن يصل فونتراي إلى باريس، حتى يسارع بالاجتماع بكل المتآمرين في قصره في منطقة بوردو.. وفي اللحظة التي يمزقون فيها المعطف لاستخراج المعاهدة، يجدون أنفسهم محاطين برجال الكاردينال يقفون فوق رؤوسهم، فيصيح الدوق دورليان في ثورة وغضب:

ـ إنني شقيق الملك.. وليس من حق الكاردينال أن يأمر بالقبض عليّ.

فيجيبه الضابط:

ـ لن نقبض على أحد يا صاحب الفخامة.. الأوامر التي لدينا هي أن نحصل على هذا المعطف، ونمنعكم من مغادرة القصر، حتى يحضر صاحب النيافة الكاردينال إلى هنا..

- وبعد ساعات قليلة يصل الكاردينال إلى القصر، ويختلي بالدوق دورليان.

ـ يا صاحب الفخامة. . لقد رأيت بنفسك أن معي الدليل الحاسم على خيانتك صاحب الجلالة الملك، شقيقك. . ولم يبق أمامك يا سيدي سوى أن تستغفر لذنبك وأن تطلب الرحمة من الله، وأنا بدوري أعاهدك على إنقاذ رأسك من حبل المشنقة إذا أنت ساعدتني على كشف الستر عن الحقيقة كلها. . أريد الأسماء كلها. . من أكبر متآمر إلى أصغر جندي يعرف بالمؤامرة ويوافق عليها.

□ □ □

● بذلك الاعتراف المفصل لجميع أسماء المتآمرين، ودور كل منهم، حصل الكاردينال على كل المعلومات للقضية التي عُرفت في التاريخ باسم «قضية سان مار» القضية التي طارت فيها رؤوس سبعة وعشرين من نبلاء فرنسا، ممن كانوا يريدون الإطاحة بحكم لويس الثالث عشر، ووزيره **الكاردينال الأحمر ريشيليو!**

التخطيط لمصرع راسبوتين!!

● الراهب الشيطاني، الذي أوشك من أجل ستة ملايين من الروبلات، أن يبيع العرش القيصري للألمان!

ما أكثر ما كُتب عن مصرعه الغامض يوم الثاني والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩١٦ . . وما أكثر النزاعات القضائية التي أثارها عدد كبير ممن جاء ذكرهم في تلك الكتابات مطالبين بالتعويض المادي والأدبي.

بل ما أكثر المحاولات التي قام بها أنصار الراهب القتيل، لاغتيال الأمير فيلكس يوسويوف والدوق الكبير فلاديمير بوريشكيفتش، اللذين اعترفا في كتاباتهما صراحةً بمسؤوليتهما عن مصرعه.

● وبلغ من تناقض ما روي عن ذلك المصرع أن تكونت جمعية سرية أثناء الثورة الروسية تزعم أن راسبوتين لا يزال على قيد الحياة، وأنه هو الذي يوجه، من مكان ما في العالم السفلي، كلاً من تروتسكي ولينين وستالين.

● من كتابات الرجلين المسؤولين تاريخياً عن مصرع الراهب الشيطاني راسبوتين،

أُلخص لكم القصة التاريخية، بكل ملابساتها المثيرة، من البداية حتى النهاية، أبدأ بحديث الأمير يوسوبوف:

□ □ □

● «منذ بداية عام ١٩١٦ وسلطان راسبوتين على القيصرة والقيصر يتعاظم يوماً بعد يوم. صار هو الموجّه الأول لشؤون الدولة عسكرياً وسياسياً في أحرج الظروف. وبوصفي أحد أمراء الإمبراطورية، كنت على معرفة بالكثير من أسرار سيطرته على القيصرة تحديداً. كان صديقي الدوق فلاديمير بوريشكيفتش بوصفه المسؤول عن الحالة الصحية للجنود في الميدان، يحذّر القيصر من تناول الأعشاب العجيبة التي يصفها له الراهب المشعوِذ. كان الدوق بوريشكيفتش يصارحني، متى اختلى بي، بخطورة حالة القيصر الصحية بتأثير تلك الأعشاب.

ـ الراهب اللعين يقتل جلالة القيصر ببطء يا فيلكس، وعمداً. لم يكتفِ بالسيطرة على القيصرة بحجة أنه الوحيد الذي يعالج وليّ العهد، بل يعمد إلى إعطاء القيصر أنواعاً من الأعشاب تجعله دائماً في شبه غيبوبة ذهنية. لقد لاحظت ذلك مراراً في حديثي مع جلالة القيصر.. صحيح أنه هادىء الطبع، لكن الهدوء بلغ حدّاً جعله لا يهتم اهتماماً جاداً بأخطر الأمور ــ هزيمة الجيش عند كورسك مثلاً قابلها بتبلدٍ عجيب.. برأيك يا فيلكس. ماذا يجني الراهب اللعين من ذلك؟

ـ هناك شائعات عن الرشوة من العاهل الألماني، يُقال إنه قبضها فعلاً. ستة ملايين من الروبلات.

ـ وأين أخفاها؟

ـ في المصارف الألمانية.. فحسبما علمت من صديقة لي في القصر، على علاقة وثيقة بالراهب أيضاً، إنه ينوي عزل القيصر وتنصيب ولده مكانه تحت وصاية القيصرة، ثم يأمرها بعقد الصلح المنفرد مع ألمانيا.

ـ فيلكس، إلى متى نسكت؟ حتى يسلّم أمّنا روسيا إلى الأعداء ونحن نتفرّج؟ لا بد من التخلص منه.

ـ يسعدني يا فلاديمير أنك عبّرت بصراحة عما يجول في خاطري. ولكن لا بد من الاستعانة بعناصر أخرى معنا.

ـ هل تكلمت مع أحد في هذا الموضوع؟

ـ أجل مع رئيس مجلس الدوما، رودزيانكو.

ـ إنه يبغض راسبوتين أشد البغض.

ـ لا أحد في مجلس الدوما يحبه، إلا أنصاره الذين عيّنهم.. أنا أعرف أنه يمقتني. وقد حاول مراتٍ أن يحرّض القيصر لإقصائي عن المجلس. ما لا أشك فيه هو أنه سيحاول حلّ مجلس الدوما في أول فرصة ، فيتخلّص من أعدائه بضربة واحدة.

ـ ماذا قال لك رودزيانكو؟

ـ أبدى رغبته في التخلّص من راسبوتين، لكنه قال إن أمراً كهذا مستحيل تقريباً، لأن كل حاشية القيصر من عملاء الراهب.. وقال في نهاية الحديث جملة مشجّعة: «إذا لم يقتل أحد الراهب في غضون عام، فسأقتله بيدي فور دخوله مجلس الدوما».

ـ هذا مشجع. أثق بالدكتور لازوفير. إنه خبير في السموم، وقد نستطيع قتل الراهب بالسم.

ـ وأنا أثق به أيضاً.. وهناك صديقنا الكولونيل مالكوف. لكنني أفضّل ألا نصارحهما بشيء حتى أتقرّب شخصياً من الراهب اللعين.

ـ كن حذراً. . فهو لا يحبك.

ـ أعرف يا عزيزي، ولكنني سأحتال حتى أحوز ثقته. . بعدها نضرب ضربتنا.

● [والكلام لا يزال للأمير يوسوبوف]:

بعد أسابيع من هذا الحديث مع الدوق فلاديمير بوريشكيفتش، أرسلت لي السماء هدية، هي عبارة عن مكالمة تلفونية من صديقة لي تُدعى الآنسة جيزيل، على علاقة وثيقة أيضاً بالراهب الزنديق.

ـ فيلكس. . أنا جيزيل. . إني أحمل إليك دعوة مقدسة لا بد من أن تلبّيها.

ـ يا عزيزتي، في استطاعتك أن تسعديني بالزيارة في أي وقت تريدين. . زوجتي في المزرعة، كما تعرفين.

ـ يا عزيزي، الدعوة موجهة إليك شخصياً من غريغوري إفيموفتش. .

ـ راسبوتين؟

ـ ألم أقل إنها دعوة مقدسة. . إنه يريد أن يقابلك.

ـ أين؟

ـ في داري.

ـ جيزيل، ما وراء هذه الدعوة؟

ـ اطمئن، الراهب المقدس راضٍ عنك تماماً.

ـ قولي له إنه يسعدني جداً أن أحظى بمقابلته.

ـ فيلكس، لا تأتِ بثيابك العسكرية.. وعلى الخصوص، لا تحمل أي سلاح.. أنت تعرف مبلغ حذره.

ـ بحق السماء، لماذا أحمل سلاحاً وأنا قادم لمقابلة المقدّس راسبوتين؟

ـ حسناً، سننتظرك غداً في الحادية عشرة مساءً.. لا تتأخر.

● في اليوم التالي كنت في دار الآنسة جيزيل حسب الموعد. لم أكن قد قابلتُ راسبوتين منذ حفل القيصر في عيد ميلاد ولي العهد. رأيته هذه المرة على غير ما عهدته. امتلأ جسمه. وغدا وجهه من فرط ما دخل عليه من الشحم أشبه بكرة منفوخة.. استبدل «القفطان» الذي اشتهر به، بقميص حريري لامع مطرز، وسروال واسع من المخمل.

حين رآني غمز لي بعينه، من دون أن يتحرك من مكانه. أدركت أنه بلغ قمة الغطرسة في تلك الأيام التي أسلم القيصر له القياد تماماً.. تركني ألمس أطراف أصابعه، ثم قطّب حاجبيه حين تركت يده دون أن أقبّلها كما اعتاد من الجميع. أهملني أكثر من عشر دقائق، ثم نهض فجأة وجلس على مقعد بجانبي.

ـ هيه يا فيلكس.. كيف حالك؟

ـ بخير يا عزيزي راسبوتين.

ـ والسيدة الجميلة زوجتك؟ قل لها إنني غير راضٍ عن سلوكها معي. [يصمت] لم تسألني لماذا؟

ـ لماذا أيها الأب المقدس؟

ـ لأنها عاملتني في آخر حفل في القصر كأني «نكرة».. لم تقبّل يدي.. ولم تجلس مع السيدات والآنسات اللاتي جلسن إلى مائدتي.. بل غادرت القصر حتى

دون أن تودعني. . قل لها إنني غاضب، وإن جمالها الفريد لا يعفيها من هذا الغضب. . يا عزيزي فيلكس، في استطاعتي أن أفعل الكثير من أجلك إذا خففت زوجتك من بغضها لي!

ــ زوجتي لا تبغضك يا راسبوتين.

ــ حقاً؟ هل قالت لك ذلك؟ ومع هذا فسنتناقش في الأمر يوماً، وفي مقصورتنا. . هذا إذا تكرمت واستقبلتَني في قصرك. . ولكن دعنا من هذا الآن حتى لا تغار صديقتنا جيزيل.

ــ خذ حريتك تماماً أيها الأب المقدس. . جيزيل تفهم وتقدّر.

ــ إسمع يا فيلكس. . يخيّل إليّ أنك هذه الأيام في حاجة إلى من «يساند» أفكارك عند القيصر. . حسناً. . اعتبرني في صفّك إذا كفّت زوجتك عن عنادها. . هيه؟ ماذا يشغلك هذه الأيام؟ هل تنوي اغتيال أحد مثلاً؟

ــ ماذا؟. . أغتال أحداً؟ كيف تتهمني بهذا يا غريغوري إفيموفتش راسبوتين؟ هل دعوتني لتسخر مني؟

ــ [يضحك] كلا. . كلا. . هذا سؤال أُفاجئ به كل من أقابله. . ذلك يا عزيزي أن الكثيرين يفكرون في قتلي. . ولكني أعرفهم جميعاً. . السماء تخبرني بكل شيء. . لستَ منهم يا أمير فيلكس يوسوبوف. . لا. . لستَ منهم. . ولكنك مشغول بشيء ما. . ما هو؟ أخبرني. أنا صديقك.

ــ الحق يا راسبوتين أن صحتي هذه الأيام ليست على ما يرام.

ــ هذا ما لاحظته من امتقاع لونك. . لا تصدّق الأطباء. . إنهم دجّالون. . أما أنا فالشفاء معي مضمون. . ممّ تشكو؟

ـ من التعب عند مجهود!

ـ سأشفيك من هذا.. أنا أشفي الناس جميعاً.. والسماء هي التي تدلني على أساليب العلاج. صدّقني، إنها أساليب سهلة وقريبة.. ولكنني وحدي من دون البشر جميعاً الذي يعرفها.. سترى أن أعشابي ستشفيك من التعب الذي ينهكك. خذ مثلاً حالة القيصر، لولاي لما شفي من الاضطراب العصبي. هل رأيته أخيراً يا فيلكس يوسوبوف؟ لقد صار هادئاً.. مطيعاً بسبب أسلوبي في علاجه. وأنا واثق من أنك إذا تناولت أعشابي سوف تُشفى!

[في هذه الأثناء يرن جرس الهاتف]

ـ من هذا الجلف الذي يقلق راحتنا في مثل هذه الساعة؟

ـ إنهم يطلبونك في القصر أيها الأب المقدس.

ـ يطلبونني؟ أنا الذي أطلب، وعلى الجميع أن يستجيبوا لطلباتي.

ـ إنه صاحب الجلالة القيصر.. قال سكرتيره الدوق سوخوتين.

ـ اللعنة على سوخوتين.. لقد قلت له لا أريد إزعاجاً.

ـ القيصر على الخط الآن.

ـ حسناً.. غادري الغرفة مع فيلكس.. لا أريد أن يسمع أحد ما يدور بيني وبين القيصر.

غادرنا الغرفة إلى أخرى بعيدة.. بعد لحظات عاد راسبوتين مقطّباً كالح الوجه.

ـ سأذهب الآن.. هذا القيصر لا يستطيع أن يبتّ في أمر دون مشورتي. فيلكس، لا بد من أن أراك مرةً أخرى.

ـ في أي وقت تشاء يا غريغوري راسبوتين.

ـ لا تأتِ إلى داري الآن من دون موعد سابق.. مفهوم.. أنا الذي أستدعيك.

ـ كما تشاء أيها الأب المقدس.

غادَرَ الدار، ولا شكّ في أن أمراً أغضبه من حديث القيصر.. لقد سمعته يسبّه ويسبّ القيصرة وهو على الدرج.

ـ أرأيتِ يا جيزيل كيف يحاول أن يتوصل إلى زوجتي؟ الشيطان.. وعن طريقي أيضاً! لست أدري لماذا سايرته في الحديث؟ ليس من الأدب أن أُسيء إليه في دارِك يا جيزيل.. إنه يحبّك.

ـ إنه لا يحب إلا نفسه ونزواته.. ولو أدرك ما في قلبي نحوه، لأمر بإعدامي على الفور.

ـ هل تبغضينه؟

ـ جداً.

ـ هل يحملك هذا البغض على.. على..

ـ على قتله؟ لا أظن.. إنني أخافه.. ولا أجسر حتى على مجرد التفكير في ما تقوله.. هل تفكر أنت في شيء كهذا؟

ـ أنا؟ وما لي أنا حتى أقتل راسبوتين؟ إن مركزي قوي عند القيصر، وأملاكي في أمان. لا شيء في صدري ضده غير.. الغيرة من إقبالك عليه. لقد آن وقت عودتي إلى قصري في «مويكا».

ـ ولكنك تقول إن الأميرة زوجتك في المزرعة. لماذا لا تبقى الليلة؟

ـ لو علم راسبوتين لأغضبه ذلك جداً. . وأنا أريد صداقته. . لا عداوته.

ـ حتى لو حاول استخدام أساليبه القذرة مع زوجتك الأميرة؟

ـ جيزيل يا عزيزتي، أنا واثق من أنه لا يقصد شراً. . مجرد حديث اجتماعي لقتل الوقت. . إلى اللقاء يا جيزيل.

● بعدها بيومين اتصلت بي جيزيل تلفونياً.

ـ فيلكس. . الأب المقدس يريد أن تقابله مرة أخرى.

ـ في دارك أيضاً؟

ـ أجل، قيل له إنك تحسن العزف على الغيتار وتجيد الغناء. . فلا تنسَ أن تحضر ومعك الغيتار.

ـ متى؟

ـ غداً في العاشرة والنصف. . فيلكس، قلت لي إن الأميرة زوجتك في المزرعة. . ولكنها هي التي أجابت على التلفون.

ـ لقد عادت هذا الصباح. جيزيل، لي رجاء. . لا تقولي هذا للأب المقدس راسبوتين.

● كان في نيتي أن أقتله في دار جيزيل. . أعددت بعض بلّورات سيانيد البوتاسيوم، على أمل أن أتمكن من دسّها في كأسه بعد أن تفقده الخمرة اتزانه.

وذهبت إلى الموعد والسم الزعاف في لفافة صغيرة دسستها في جيب الصديرية الصغير. . ما إن رآني حتى فاجأني بما زلزل كياني.

ـ آه، يا فيلكس يوسوبوف. . قيل لي إنك على صلة بالدكتور لازوفير خبير السموم. . هل تنوي أن تدسّ لي السم الليلة يا عزيزي؟

ـ أي قول هذا الذي تتهمني به يا راسبوتين؟ لو أعلم أن أفكاراً كهذه تراودك عني، لَما جئت الليلة!

ـ لا. . لا. . إني أثق بك ثقة راسخة. . ولكني كما تعرف على صلة بالعوالم السفلية والعلوية أيضاً. . تخبرني عن أعدائي وما يهيئون لي. . لازوفير من أعدائي دون شك. . أخبروني بهذا. . أما أنت، فلا. أنت صديق. . ويكفي أنك زوج عزيزتنا الأميرة ماريا. . إجلس يا فيلكس. . إجلس.

ـ لقد أفسدت مزاجي يا سيدي بهذه الشكوك التي تراودك!

ـ يا إلهي. . ماذا أفعل لأؤكد لك ثقتي الكاملة بك؟ قولي له يا جيزيل كل ما حدثتك به عن فيلكس وزوجته!

ـ الحق يا أمير أن الأب المقدس ينزلك من نفسه أعلى منزلة و. . .

ـ [مقاطعاً في مرح] **والآن، أسمعنا بعض أغانيك الحلوة على القيثار. النبيذ يا جيزيل. . النبيذ.**

● وعزفتُ على الغيتار. . وغنيت له مرات. . وهو جالسٌ يعبُّ النبيذ في جوفه عبّاً، وأنا أدعو الله أن يغادر القاعة لأي سبب لأتمكن من وضع بلورات السم في كأسه. . ولكنه كان يطيل النظر إلي طوال فترة العزف والغناء. . وفجأة نهض من مكانه وأخذ يذرع القاعة في عصبية.

ـ إنهم مجانين كلهم. . كلهم.

ـ من تعني أيها الأب المقدس؟

ـ هناك.. هناك في القصر.. مجانين وأغبياء.. ولا أدري ماذا يحدث لروسيا إذا خرجت من القصر وعدت إلى قريتي في أوكرانيا! أتعرف لماذا أسرعت إلى القصر حين اتصلوا بي تلفونياً.. أتعرف يا فيلكس؟

ـ كلا، فأنا لم أدخل القصر منذ ستة أشهر!

ـ لقد أصدر القيصر قراراً بتعيين بروتوبوبوف وزيراً للداخلية.. لقد قلت له مراراً إنني لا أثق في بروتوبوبوف هذا.. ولكنه خالفني وخصّه بهذا المنصب الحساس.. كنت أريد شخصاً غير هذا الأفّاق.. وكانت القيصرة تؤيد رغبتي هذه.

ـ كيف إذاً لم يُنفّذ القيصر رغبتك؟

ـ أعدائي يا جيزيل تسلّلوا إلى القصر.. ولكني سأسترد قبضتي على القيصر من جديد.. ما إن دخلت القصر حتى صاحت القيصرة باكية: «لقد انهار كل شيء أيها الأب المقدس.. لم يعد لي ثقة حتى في القيصر.. أنت وحدك مصدر ثقتي بعد الله.. ماذا نفعل؟». صحتُ بها: «كفي عن البكاء يا أنوشكا. سأصلح كل ما أفسده زوجك!».

ـ وهل رجع القيصر عن قراره؟

ـ بالطبع.. حالما دخلت عليه غاضباً.. وهددته بالعودة إلى قريتي، قال: «بالله لا تتركنا أيها الأب المقدس.. أنت تعرف أن ولدي سيموت إذا غادرت القصر..».. وبالطبع.. لم أخرج إلا بعد أن طُرد بروتوبوبوف، وعُيّن رجلي أموزين في المنصب.

ـ أنت رجل روسيا القوي يا غريغوري راسبوتين.

ـ إذاً لماذا لا تغنّي لرجل روسيا القوي؟ هل تعبت؟ ألم أعدك بالأمس أن أشفيك بأعشابي من أمراضك كلها؟ لم تشرب بما فيه الكفاية!

. . أما أنا فلا أتعب أبداً. . مصدر تعبي الوحيد هو «الدوما». . مجلس الأمة. . الذي يخلق المتاعب لي وللقيصر. . ولكن لا تخف. . بمقدوري السيطرة على الجميع، طالما «بابا» و«ماما» في قبضتي. . ما قدر ثقتهما بك يا فيلكس؟

ـ أعتقد أن القيصر يثق بي. . أما القيصرة فلا!

ـ ذلك لأنها تغار من زوجتك الأميرة ماريا. . ومع ذلك بإمكاني أن أدخلك في دائرة رضاها. . سأحدثها عن علاقتي الطيبة بك. . وأنك جالستني الليلة على الشراب.

ـ يحسن يا راسبوتين ألا تذكر لهما ذلك.

ـ آه. . تخشى أن تتكلم القيصرة عن صلتي بك وبزوجتك الأميرة ماريا؟ حسناً. . سنلتزم الحرص من هذه الناحية. . لا أريد الشائعات التي يروجها ضدي أعدائي في «الدوما». . أتعرف ماذا أنوي أن أفعل بهم؟ سأحلّ المجلس، وأرسل الأعضاء جميعاً إلى جبهة القتال.

ـ هل تملك حقاً سلطة حل المجلس؟

ـ ما أسهل هذا. . يكفي أن أقول للقيصرة ـ وأكون صادقاً بالطبع ـ إن السماء كلفتني بـ«تنظيف» روسيا من هؤلاء الرعاع. . عندها ستُرغم القيصر على ما أريد. . وإلا. . وإلا تركت القصر. . وعدت إلى قريتي. . وعندها يموت وليّ العهد ريب!

ـ آه. . تعني أنك تسيطر على القيصر والقيصرة من خلال التحكّم بصحة وليّ العهد؟

ــ السماء هي التي تسيطر يا فيلكس.. وما أنا إلا أداة في يدها.. ولكنها تستجيب دائماً لدعائي.. إذا لم أشمل الصغير برعايتي.. تخلت عنه السماء على الفور.. السماء يا عزيزي معي دائماً.. وهي تعطيني قوة خارقة من أجل إنقاذ روسيا.. هل تحب أن تقضي بقية الليلة في مضارب الغجر؟ تعال معي نقضِ أسعد الأوقات رقصاً وغناء وشراباً!

ــ ربما في ليلة أخرى.

ــ آه.. أنت تريد أن تقضي الليلة هنا في دار جيزيل.. حسناً.. لا بأس.. بالمناسبة، ألا تنوي أن تدعوني إلى قصرك؟ أعني حين تعود الأميرة ماريا من المزرعة! متى تعود؟

ــ قريباً جداً.

ــ حسناً.. أريد أن أراك كثيراً.. كما أحب أن تدعوني إلى العشاء عندما تعود ماريا..! جيزيل.. دعيني لحظة مع فيلكس.. وأغلقي الباب خلفك..

ــ أجل أيها الأب المقدس.

ــ لم أشأ أن تعرف جيزيل مدى حرصي على إرضائك وإرضاء الأميرة.. متى تدعوني إلى العشاء؟

ــ قلت لك فور عودتها من المزرعة!

ــ أنت وهي فقط.. أليس كذلك؟ ثم أنا وهي فقط.. أليس كذلك؟

ــ أجل أيها الراهب المقدس.

ــ حسناً.. حسناً.. أنت لطيف جداً.. إسمع.. في استطاعتي أن أجعلك وزيراً للعدل.. هل تحب هذا؟

ـ كلا يا سيدي. . إنني ثري ولا أحب السياسة.

ـ أحسنت. . أحسنت. . إسمع. . متى عادت الأميرة ماريا يمكنك أن تتصل بي تلفونياً. . إن لي رقماً سرياً. . ها هو. . دعني أكتبه لك. . لا تطلع عليه أحداً. . حتى مدير الشرطة السرية لا يعرفه. . أعطه للأميرة ماريا. . يمكنها أن تحدثني في أي وقت تشاء. . هه؟ لا تنس. . والآن دعني أعذ إلى داري. . ليلة طيبة. .؟

□ □ □

إذ خرج الراهب الزنديق، قالت لي جيزيل بما ينمّ عن احتقار:

ـ الرجل يريد اغتصاب شرفك يا أمير. . كيف تركته يقول ما يقول؟

ـ يا عزيزتي جيزيل. . إننا. .

ـ لو كنت مكانك لقتلته دون رحمة.

ـ أقتل غريغوري إفيموفتش راسبوتين؟ كيف يمكن أن تخطر فكرة كهذه في ذهنك يا جيزيل؟

ـ فيلكس. . إني أعرف أنك تود قتله من صميم قلبك. . بل لقد رأيت يدك تمتد أكثر من مرة إلى جيب صديريتك. . ماذا بداخلها؟. . لفافة من السموم؟

ـ لم يبق إلا أن تقولي إنني كنت أنوي أن أقتلك أنت الأخرى!

ـ إذا لم يقتل أحد هذا الشيطان، فلسوف تفعلها امرأة. . أنا يا فيلكس.

ـ لا ترتكبي مثل هذه الحماقة يا جيزيل.

ـ كف عن هذا يا فيلكس. . أعرف أنك تفكر في وسيلة للقضاء على الراهب. .

يمكنك أن تعتمد عليّ في ذلك. . أنت لا تثق بي. . حسناً. . حين تقرر شيئاً فلا تنسَ أنني على استعداد للموت ألف مرة كي يموت ذلك الخنزير الخائن.

• في الليلة التالية اتصلتُ بصديقي الدوق فلاديمير بوريشكيفتش، ومن فرط حرصنا، تقابلنا على شاطئ النيفا.

ـ أعتقد يا أمير فيلكس أن الوسيلة الوحيدة لقتل الراهب هي استدراجه إلى مكان بعيد. . ألم تخطر لك فكرة استدراجه إلى قصرك في مويكا؟ بعيداً عن بطرسبورغ. . كما أنه وسط مزارع شاسعة. . فلن يسمع أحد صوت استغاثته.

ـ لقد خطر ذلك فعلاً بذهني، خصوصاً أن الزنديق يريد أن يصل إلى زوجتي الأميرة ماريا بأية وسيلة. . إنها تبغضه كما تبغض الشيطان.

ـ معذرة يا فيلكس. . أعتقد أن في استطاعتنا اصطياده بهذا الطعم.

ـ فلاديمير!

ـ يكفي أن تتكرم الأميرة بمحادثته تلفونياً في رقّة، ثم تدعوه إلى القصر. . ونتكفل نحن بالباقي. .

ـ أنا واثق من أنها سترفض!

ـ إذاً، دع جيزيل تتصل به فتقول إن الأميرة هي التي كلفتها بذلك. .

ـ ولكن ماريا سترفض استقباله في القصر!

ـ لن تكون الأميرة في القصر. . أرسلها إلى المزرعة. . سيأتي ظنّاً منه أنها في انتظاره. . لن يكون أحد في انتظاره سوانا.

ـ وكيف نتخلص منه؟

ـ بالسم. . سنعدّ له مأدبة حافلة بأطايب الطعام والحلوى والفطائر والنبيذ، وسنغرق كل شيء بالسموم. .

ـ أُفضّل أن أصرعه بسيفي، أو بالرصاص.

ـ ومن يدريك أنه لن يقاومك. . إنه قادر على أن يقتل عشرة من الرجال الأقوياء بيديه العاريتين.

ـ من سيكون معنا في القصر إذا نفذنا الفكرة؟

ـ أنا وأنت، والدكتور لازوفير خبير السموم، والكولونيل مالكوف.

ـ ستثور شكوكه إذا لم يجد ماريا في استقباله!

ـ سنقول إنها في الطابق الثاني ومعها بعض صاحباتها. . وسنصدر أكبر ضجة نسائية ممكنة حتى يصدّق ما نقول. . هل أنت واثق من جيزيل؟

ـ أجل. . وهناك زوجة الحدائقي وابنته.

ـ إذاً، لم يبق إلا أن تتصل جيزيل بالراهب اللعين وتحدد له موعداً في القصر.

□ □ □

● ودارت عجلة الخطة. . وقالت لي جيزيل إن الراهب كاد يطير فرحاً حين أخبرته عن عودة زوجتي، ورغبتها في استضافته على العشاء في الوقت الذي يحدده.

لكن اللعين يلتزم الحرص يا فيلكس. . لم يحدد موعداً، بل طلب أن تهاتفه شخصياً لهذا الغرض.

ـ هل أنتِ واثقة يا جيزيل بأنه يصدّق عودة زوجتي من المزرعة؟

ـ أجل. . قال، وهو يضحك ضحكته الوقحة، إن السماء أخبرته أن الأميرة قد عادت من المزرعة. . لماذا لا تتصل به الآن؟

ـ أجل. . أجل. . سوف أفعل!

□ □ □

ـ مساء الخير أيها الراهب المقدس. . أنا فيلكس يوسوبوف.

ـ آه. . فيلكس. . تصور. . لقد أخبرتني السماء منذ لحظات أنك ستتصل بي لتدعوني إلى قصر مويكا بعد أن عادت زوجتك الأميرة. .

ـ إنها هي التي تدعوك بلساني يا غريغوري راسبوتين.

ـ حسناً. . حسناً. . متى؟

ـ هذا متروك لك أيها الأب المقدس.

ـ ما رأيك في ليلة بعد غد؟

ـ لا بأس، ولكن. . زوجتي ترجو أن تمنحها فرصة مناسبة لإعداد عشاء يناسبك. .

ـ لا. . لا. . ليلة بعد غد. . نحن اليوم في العشرين من كانون الأول/ ديسمبر. . أليس كذلك؟

ـ أجل.

ـ إذن ليلة الثاني والعشرين. . ما رأيك؟

ــ سأبلغ هذا لزوجتي. . وسنكون في انتظارك في هذا الموعد.

ــ لا. . لا. . ليس قبل أن تتصل بي في صباح الثاني والعشرين. . حتى نتفق على حضورك في سيارتك لتأخذني إلى القصر. . هيه. . لا تنسَ. . إتصل بي تلفونياً. . بلّغ تحياتي وأشواقي للأميرة الجميلة زوجتك.

● بعد أن تأكدت النوايا للتخلّص من الراهب، إتصل الأمير فيلكس بجيزيل:

ــ كيف أصل إلى قصرك يا فيلكس دون أن أثير ريبة شرطة راسبوتين السرية؟

ــ سنرتب موعد لقائك مع الكولونيل مالكوف فور الاتفاق النهائي مع راسبوتين. . سيقلّك بسيارته حتى قصر مويكا. . غادري السيارة عند الباب الخلفي للقصر حتى لا يراك أحد، في حال خطر للشرطة السرية أن تراقب البوابة الرئيسية. . وإن كنت لا أتوقع أن يأمرها راسبوتين بهذا.

ــ فيلكس. . الزنديق يحب الفطائر الوردية، وحلوى الشوكولاته. . دسّوا أكبر كمية من السموم فيها. . وفي النبيذ أيضاً.

ــ لقد تركنا هذه المهمة للدكتور لازوفير.

ــ ولا تدع مسدسك يفارقك لحظة. . فالراهب اللعين لا يؤتمن.

ــ ثقي أنه لن يغادر قصري حياً. . مهما حدث.

● ماذا قال التاريخ في تلك الليلة القدرية عن مصير الراهب الشيطاني راسبوتين؟ الليلة القدرية في تاريخ روسيا القيصرية. . ليلة الثاني والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩١٦. . ليلة الخلاص من الراهب الشيطاني. . **غريغوري إفيموفتش راسبوتين**. .

أعدّ له الأمير فيلكس يوسوبوف الفخ في قصره.. والطعم؟ زوجته الجميلة الشريفة العفيفة الأميرة ماريا.

كان الراهب الزنديق قد صوّب عينه القذرة عليها.

واتفق المتآمرون الخمسة على استدراجه إلى قصر الأمير في مويكا، بزعم أن الأميرة قد أعدّت له مأدبة خاصة!

ها قد جاء دور الدوق فلاديمير بوريشكيفتش ليتم لنا القصة التي بدأها الأمير يوسوبوف:

□ □ □

كان موعدنا في القصر مع الأمير يوسوبوف في الحادية عشرة، ليلة الثاني والعشرين من كانون الأول/ديسمبر. كنت شديد القلق، لعلمي بأن الراهب اللعين فائق الحذر وقد يخلف وعده لأقل شك يطارده. إنما لا بد من السير في خطوات الخطة حسب التوقيت المرسوم. إلتقيت بصديقنا الكونت ديمتري بافلوفيتش في فناء قصري.. اصطحبته إلى داخل القصر حيث أبدل ثيابه العسكرية بثياب سائقي السيارات الخاصة.

ـ سأضع ملابسي العسكرية يا دوق في صندوق السيارة الخلفي. من يدري، قد نحتاج إليها في أي وقت.

ـ من يَرَكَ في هذه الثياب البيضاء يا عزيزي كونت بافلوفيتش يظن أنك سائق محنّك!

ـ المهم أن نضلل شرطة راسبوتين! إنهم في كل مكان بعد أن نجح اللعين في تعيين شورماكوف عميله في وزارة الداخلية.

ـ ندعو الله أن نتمكن من تضليلهم. . أين سنقابل الآنسة جيزيل؟

ـ سننتظرها هنا. هذا أفضل من المرور على دارها بالسيارة. فمن المؤكد أن الشرطة السرية الخاصة براسبوتين تراقب الدار.

ـ رغم علاقته بها؟ إنه يقضي ليالي كثيرة معها!

ـ بل يصطحب بعض صديقاته إلى دارها أيضاً. . ورغم هذا لا يثق بها!

ـ وإذا خانتنا يا دوق؟

ـ كل شيء جائز!

ـ لماذا انضمت إلينا، وهي تعلم أن الفشل معناه الموت الحتمي لها ولنا؟

ـ هي تريد الانتقام من الراهب الشيطان!

ـ ولماذا؟

ـ كان وراء إعدام الفتى الوحيد الذي أحبته جيزيل. . وستتنكر في زي فتاة من فتيات الليل ثم تتسلل إلى القصر. . لقد اقترب موعدها على أية حال!

ـ والأمير يوسوبوف؟

ـ حالما تصل جيزيل، سنذهب نحن الثلاثة في السيارة. . وأنت بالطبع في مكان السائق. . إلى قصر مويكا، حيث ينتظرنا الدكتور لازوفير خبير السموم والأمير يوسوبوف.

ـ هل سيأتي راسبوتين في سيارته؟

ـ لا. . الاتفاق أن يذهب يوسوبوف بنفسه إلى دار راسبوتين ويصطحبه. . ستقود أنت السيارة يا عزيزي الكونت. . مرة لي ومرة ليوسوبوف. . والثالثة لراسبوتين!

ـ اللعنة على راسبوتين. . أحياناً يخيل إلي أن مثله لا يموت أبداً!

● وصلت جيزيل حسب الموعد.

ـ لم أجد صعوبة في تضليل الشرطة السرية. . لم يتبعني أحد. .

ـ هيا. السيارة جاهزة. . لننطلق إلى قصر مويكا!

ـ بوابة القصر مغلقة يا دوق!

ـ ولماذا ندخل باحة القصر؟ در بنا إلى الباب الخلفي. . هناك فناء صغير سنركن السيارة فيه، ثم نلج من الباب الخلفي الثاني. . لقد اتفقت مع الأمير يوسوبوف على أن يتركه مفتوحاً حتى لا نضطر إلى إصدار ضجة لا مبرر لها.

● واتجهنا إلى الطابق الأول. . في الغرفة التي أعدها يوسوبوف لمصرع الراهب الزنديق، وجدنا يوسوبوف والدكتور لازوفير يعد بلورات سيانيد البوتاسيوم في حرصٍ وعناية، وقد ارتدى قفّازاً من المطاط.

ـ دعونا أيها السادة نشرب بعض الشاي. . الليلة شديدة البرودة. . على العكس يا فيلكس. . تمالك أعصابك يا عزيزي الأمير . . نحن في حاجة إلى الهدوء الكامل وإلا فسد كل شيء. .

ـ أعدّ الطاهي كل ما يحبه الراهب من فطائر وردية وحلوى الشوكولاته. . سنملأ بعض قوارير النبيذ بالسيانيد.

ـ لا. . ليس القوارير يا أمير يوسوبوف. . ماذا لو أنه طلب أن تشاركه الشراب؟ سندسّ السيانيد الشفاف في قاع ثلاثة كؤوس. . ثمة كأسان آخران لن نضع فيهما شيئاً. . لونهما وردي. . لا تقرب سواهما يا أمير.

ــ دعني أراهما فيهما حتى لا أقع في الخطأ يا دكتور لازوفير.

ــ ها هما.

ــ يحسن ألا نجعل الغرفة منظّمة بهذا الشكل.. غيّر وضعية المقاعد حول المائدة.. ودعنا نتناول من الفطائر الخالية من السم حتى تبدو الغرفة وكأن الأميرة زوجتك استقبلت صاحباتها فيها قبل وصول الراهب.. أي من هذه الفطائر خالية من السم يا دكتور لازوفير؟

ــ كلها خالية من السم يا دوق.. لم أضع السم بعد في الفطائر..

ــ حسناً.. دعونا نتناول بعض الفطائر مع الشاي ثم ندع الملاعق في الأكواب كما هي.. وبعض بقايا الفطائر أيضاً.. وسأترك بجانب فنجاني مرآتي الصغيرة حتى يطمئن الراهب إلى ما سيقوله له الأمير أن الأميرة من كانت مع صاحباتها في هذه الغرفة قبل وصوله.. فيلكس.. لقد حان موعد ذهابك لإحضار راسبوتين.

ــ أجل.. أجل.. هيا يا كونت بافلوفيتش.

ــ كيف ستصعد إليه في شقته؟

ــ لقد اتصلت به تلفونياً هذا الصباح حسب الاتفاق، فقال إنه سيترك لي إذناً بالصعود عند البواب.. هيا يا كونت بافلوفيتش.

● وخرج الأمير فيلكس يوسوبوف مع بافلوفيتش في ثياب سائق سيارته.. بينما شرعنا على الفور في إعداد «ديكور» المسرحية الدموية.. قطع لازوفير الفطيرة الوردية وفطيرة الشوكولاته بالعرض.. ثم ملأ الجزء السفلي للفطيرتين بالسم الزعاف.. وأعاد الجزء العلوي كما كان.. ثم سوّاهما حتى لم يعد هناك أي فرق بينهما قبل وضع السم.. وعمد إلى الكؤوس الثلاثة.. ووضع بلورات السم الشفاف في قاعها..

ـ الآن جاء دوري. . سأصعد إلى الطابق الثاني وسأجلس مع وصيفة الأميرة في القاعة الكبرى. . عندما يصل الراهب، سنصدر أكبر ضجة مرح ممكنة.

ـ دون مبالغة. . هناك الغراموفون. . أديري أي أسطوانة مرحة راقصة، حالما ترين أضواء سيارة بافلوفيتش آتية.

ـ إطمئن.

ـ وماذا لو عرفك من ضحكاتك يا جيزيل؟

ـ سيدي. . إنك تجرح أحاسيسي كممثلة. . الليلة ليلة النقمة يا دوق!

□ □ □

ويحكي يوسوبوف عن مقابلته الراهب راسبوتين في تلك الليلة:

حين بلغت باب دار الراهب. . ترجّلت من السيارة، بينما ظل السائق الكونت بافلوفيتش في مكانه. . إقتربت من البواب الذي كان ينظر إلي شزراً.

ـ ماذا تريد أيها السيد؟

ـ لقد حدد لي الأب المقدس موعداً الليلة.

ـ ما اسمك؟

ـ ما لك أنت وهذا! ألم يصدر إليك الأب المقدس أوامره بالصعود إليه فور وصولي؟

ـ لا تكلمني بهذه اللهجة أيها السيد. . إما أن تذكر اسمك أو تنصرف. . [في تهديد] أم تحب أن أسلمك للشرطة؟

ـ عليك اللعنة.. إسمي ترينكا!.. إما أن تدعني أصعد، أو أن تصعد أنت إلى الأب المقدس وتذكر له اسمي.

ـ هيا، إصعد.. فهذا هو الاسم الذي ذكره لي الأب المقدس.

ـ أين تقع الشقة التي يقيم فيها؟

ـ في الطابق الثاني.

● وصعدت حتى الشقة، حيث ضغطت على زر الجرس. لم يردّ أحد، فأعدت الكرّة.

ـ مَن هناك؟

ـ لقد جئتُ حسب الموعد.

ـ من أنت؟ ليس بيني وبين أحد مواعيد.

ـ أنا ترينكا يا غريغوري إفيموفيتش.

ـ إنتظر لحظة يا فيلكس.. سأفتح لك.

● أدركت أن الزنديق كان مع إحدى فرائسه، وأنه يحاول أن يخفيها في إحدى غرف الشقة وهي تقاومه. بعد لحظات فتح الباب.

ـ أدخل يا فيلكس.. أدخل.. هنا.. في المطبخ.. سأوافيك بعد هُنيهات.

● كان المطبخ معتماً.. وخشيت أن تدخل المرأة علي فجأةً.. فأرخيت غطاء الرأس المتصل بالمعطف حتى أخفي نصف وجهي.. بعد لحظات جاء راسبوتين، ورافقني إلى قاعة الجلوس..

ـ [يضحك] لماذا تخفي وجهك هكذا يا عزيزي؟

ـ ألم نتفق على ألا يعرف أحد بزيارتي لك؟ إنني يا راسبوتين لا أحب أن تنتشر الشائعات حول سمعة زوجتي.

ـ صدقت.. صدقت.. يجب أن يتم كل شيء في سرية.. كم أعجب بحرصك.. أنا أيضاً لم أذكر شيئاً لشرطتي الخاصة بزيارتك.. ولا برحلتي الليلة إلى قصرك.. هيه؟ هل الأميرة في انتظاري؟

ـ بالطبع.

ـ في شوق؟

ـ هيا يا غريغوري.. فقد تأخرنا!

ـ لنشرب بعض النبيذ أولاً ثم ننطلق..

ـ لا وقت هناك أيها الأب المقدس..

ـ فيلكس.. أمسك هذا الصليب.

ـ لماذا؟

ـ لتقسم لي أنك لا تضمر لي أي شر..

ـ إذا كنت لا تثق بي يا غريغوري إفيموفيتش راسبوتين فدعني أعد إلى داري..

ـ [يسترضيه] لا.. لا.. سنذهب.

ـ ما الفائدة وأنت تشك في نواياي؟

ـ لا. . المشكلة يا عزيزي أن رئيس شرطتي السرية جاءني منذ ساعات وقال إن بعضهم يدبر خطة لاغتيالي، وطلب إلي ألا أغادر داري الليلة.

ـ إذاً إبق. . وسنتفق على موعد آخر في ما بعد. . هذا مؤسف، فزوجتي الأميرة تنوي السفر إلى بولندا بعد غد!

● وطوال الرحلة من داره حتى مشارف قصري في مويكا، أمسك الراهب الشيطاني بيدي لا يفلتها. . وأخذ يثرثر وهو يحاول من مكانه بجواري أن يتعرف على الكونت بافلوفيتش الذي رفع ياقة معطفه الأبيض!

ـ سائقك هذا ماهر جداً يا فيلكس. . ما اسمك أيها السائق؟

ـ أندريه بورينين.

ـ بورينين. . بورينين. . صوتك ليس غريباً علي.

ـ لقد اقتربنا من القصر يا غريغوري راسبوتين.

ـ بورينين. . أبينك وبين الكولونيل بورينين قرابة؟

ـ إنني الوحيد الباقي على قيد الحياة من أسرة بورينين يا سيدي!

ـ لقد أردت أن أوقع به. . خيّل إلي أنني أعرف صوته. .

ـ بورينين، إنعطفْ عند البوابة. . سندخل من هنا. . أما أنت فدُر حتى تدخل الفناء الخلفي. . إنتظرنا بالسيارة ولا تغادرها حتى نعود إليك. .

● لم أكن أريد للراهب الشيطاني أن يرى وجه الكونت بافلوفيتش بعد أن ساورته الشكوك حوله. . ترجّلت وراسبوتين، حيث ولجنا إلى فناء القصر من البوابة بينما انعطف بافلوفيتش بالسيارة ليدخل من الفناء الخلفي. بلغنا الغرفة التي أُعدّت للحدث التاريخي الرهيب.

ضجة وصخب موسيقى. . ضحكات من الخادمة ومن جيزيل.

ـ ما هذه الضجة يا فيلكس؟

ـ يبدو أن زوجتي استقبلت بعض صديقاتها فجأةً. . سأصعد لأرى من معها ومتى ينصرفن!

□ □ □

غالباً ما ردّد راسبوتين: «إذا اغتالني أحد، فسوف يموت وليّ العهد، ثم تنهار الإمبراطورية الروسية».

ومن العجب أن يتحقق الأمران!

● بعد أقل من عام على اغتياله، تندلع الثورة البلشفية، وتعدم الأسرة القيصرية كلها.

قال بعض المخرّفين: **راسبوتين كان قديساً. . وقد حدث ما تنبأ به.**

بل لا تزال في بعض بلدان أوروبا جمعيات سرية «تقدّس» ذكراه حتى الآن.

إلا أن التاريخ أصدر حكمه الصادق على الراهب راسبوتين، وأثبت بالأدلة المادية أنه كان زنديقاً فاسداً. . عبث بشرف الكثيرات، وامتدت يده إلى المال العام. . وتلقّى من الاستخبارات الألمانية حوالي ستة ملايين روبل ليتسبب في هزيمة الجيش الروسي، ويمهد لصلح منفرد مع إمبراطور ألمانيا!

● كنا بصدد مصرعه. . رأينا كيف استدرجه الأمير فيلكس يوسوبوف إلى قصره في مويكا إحدى ضواحي سان بطرسبورغ، بعد أن أعدّ بمعاونة أصدقائه مأدبة الموت للراهب الشيطاني. . فطائر من كل لون وصنف محشوة كلها بما يصرع عشرين ثوراً، من أقوى السموم! سيانيد البوتاسيوم.

دخل راسبوتين الغرفة في الطابق الأول من القصر.

ـ ما هذه الضجة يا فيلكس؟. لقد أخبرتني أن لا أحد في القصر غيرك وغير الأميرة زوجتك!

ـ يبدو أن زوجتي استقبلت بعض صاحباتها دون دعوة.. سأصعد لأرى ما هناك.

● وترك الأمير يوسوبوف راسبوتين في الغرفة، وصعد إلى زملائه المتآمرين في الطابق الثاني.

ـ هيه.. هل تناول شيئاً من الفطائر؟

ـ ليس بعد.. لقد سألني عن الضجة فقلت إن زوجتي استقبلت بعض الصديقات.

ـ هل نستمر في إصدار الضجة؟

ـ أجل، ولكن أخفتوها قليلاً.

ـ حسناً. عد إليه فإذا صرعته السموم نقلنا جثته إلى البحيرة.

● يرسم لنا يوسوبوف صورة حية نابضة عمّا دار في غرفة الموت ليلة الثاني والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩١٦:

○عدت إلى الغرفة وأنا أتوقع أن أراه يلتهم الفطائر التي يحبها.. ولكني رأيته جالساً، ساهماً في صليب من الأبنوس معلّق على الحائط.. لم يكن قد مدّ يده إلى الفطائر.

ـ اسكب لي أجود ما عندك من نبيذ في هذا الكأس يا فيلكس.

واختار الكأس المسموم! وشرب، وشربت من الكأس الخالي من السم!

ــ فيلكس، متى تغادر صويحبات زوجتك القصر؟

ــ [بعد قليل] يا راسبوتين، لماذا لا تأكل من الفطائر؟

ــ لا رغبة لي في الأكل.. لم آتِ لآكل يا فيلكس.

ــ ولكنك تحب الفطائر.

ــ لا أريد.. لا أريد.. إنني هذه الأيام أباعد الحلويات ما أمكن.. إنها تزيد من وزني.. اسكب لي مزيداً من النبيذ.

ــ كما تشاء.

● كان واجماً.. يكسو وجهه حزنٌ عجيب.. لم أره في هذه الحالة من قبل. رفض بحزم أن يمدّ يده إلى الفطائر.. ولكنه شرب كثيراً من النبيذ في الكؤوس الثلاثة المفعمة بالسم.. وأخذ يثرثر.. تكلم عن بدء علاقتنا.. وعن سيطرته على القيصر والقيصرة.. وعن قدرته على تغيير خريطة أوروبا كلها.. وكلما شرب من النبيذ المسموم، اكتسبت كلماته قوةً وحيوية.. استأذنت منه وعدت إلى الطابق الثاني.

ــ ألم يمت بعد؟

ــ يموت؟ لقد شرب وحده قارورتين من النبيذ المسموم.. ولم يبدُ عليه أي علامات تسمم!

ــ كيف لم تُغرِه حتى الآن بتناول الفطائر المسمومة؟

ــ إنه يرفض ذلك بإصرار.. وأخشى إذا تماديتُ في الطلب أن يداخله الشك ويغادر القصر..

ــ فماذا لو خرج؟

ـ مستحيل. . دعني أنزل وأصرعه برصاص مسدسي.

ـ ستُسمَع طلقات الرصاص في مركز الشرطة القريب من القصر. . سأحاول معه مرة أخرى.

● وعدتُ إلى غرفة الموت. . وجدته هذه المرة شاحباً. . بعد أن التهم فطيرة بأكملها. .

ـ اسكب لي مزيداً من النبيذ يا فيلكس.

ـ هل تشعر بشيء يا غريغوري راسبوتين؟

ـ لا شيء. . مجرد عطش. . عطش شديد. . هذا النبيذ رائع. .

ـ أرى أنك أكلت من فطيرة الورد. . هل راقت لك؟

ـ جداً.

ـ فطيرة الشوكولاته صنعتها لك زوجتي الأميرة ماريا بيدها. .

ـ حقاً؟ إذاً دعنا نأكل منها. . هيا. . هيا. . شاركني يا فيلكس. .

ـ [في تهرّب] لقد اقترب موعد انصراف صاحبات زوجتي. . سأصعد كي. .

ـ كلا. . إبق معي. . ألا تحب فطيرة الشوكولاته؟

ـ بالطبع.

ـ إنها لذيذة جداً. . إذاً لا تشاطرني إياها. . سآكلها كلها. . نبيذ يا فيلكس. . نبيذ. . هذه الغرفة دافئة أكثر من اللازم. . يا إلهي. . أبعد هذا الصليب عن بصري. .

ـ لا تنظر إليه إذا شئت. .

ـ حسناً. . حسناً. . ها هو القيثار. . أسمعني بعض أغانيك.

ـ ماذا بك؟ أنت شاحب الوجه.

ـ أبداً. . كل ما في الأمر أن الغرفة دافئة أكثر من اللازم. هيا. . إعزف وغنِّ.

● أخذت أعزف وأغني وعيني عليه. . كان ينظر إلي نظرات كلها شك وريبة. . كأن شيطاناً خرج من صقر يحدّق بعينيه الناريتين. . فجأةً اكتسى وجهه بغضب شديد، من دون أن يتكلم. . هذه المرة أخذ يسكب لنفسه مزيداً من النبيذ. . استأذنت منه وصعدت إلى زملائي.

ـ هذه المرة لا مفر من قتله بالرصاص وليكن ما يكون. . خذ هذا المسدس.

ـ معي مسدسي.

ـ فيلكس. . لا بد من قتله الليلة.

ـ لست أدري كيف لم يصرعه السم حتى الآن. لقد ابتلع منه ما يكفي لقتل عشرين ثوراً! لقد بدأتُ أخافه حقاً!

ـ يجب أن تقضي عليه الآن. . إذا كنت لا تجد في نفسك الشجاعة الكافية فدعني أفعل ذلك بدلاً عنك. .

ـ كلا. . كلا. . سأقتله هذه المرة. . إطمئنوا. .

● وعدت إلى الغرفة، وجدته منحنياً على المنضدة وقد أخذ رأسه بين يديه. لم يكن يتحرك. ظننته قد مات. . اقتربت منه فانتفض فجأة.

ــ ماذا هناك؟ لماذا تقترب مني هكذا؟

ــ حسبتك نائماً. . ماذا بك يا غريغوري راسبوتين؟. . وجهك شاحب.

ــ أشعر بثقل عجيب في رأسي. . وحرقة شديدة في معدتي. . إسكب لي بعض النبيذ. . فيلكس. . دعنا نصعد إلى زوجتك. . أعتقد أن صاحباتها قد غادرن القصر.

ــ ليس بعد!

ــ إذاً لنذهب إلى مضارب الغجر. . أريد أن أرقص هناك وأغني. . وآكل لحماً. . هيا. . لنذهب.

ــ لن تذهب إلى أي مكان يا راسبوتين!

ــ ما هذا؟. . هل جننت؟. . تصوب مسدسك نحوي؟. . هذا كفر. . أنا القديس. . أنا رسول السماء!

● سقط تحت قدميّ. . أصابت الرصاصات قلبه ورأسه وبطنه. . صُرع دون حراك. تسمّرت في مكاني ذاهلاً. . وسرعان ما لحق بي في الغرفة الدوق بوريشكيفتش والدكتور لازوفير وديمتري بافلوفتيش.

ــ أخيراً مات اللعين!

ــ مات بالرصاص، لا بالسم. .

ــ لنحمله إلى السيارة. . ستقودها مع الدكتور لازوفير يا ديمتري بافلوفتيش. . حاول أن تأخذ أولاً طريق لـ. . يا إلهي. . إنني مضطرب.

ــ دعونا نصعد إلى الطابق الثاني ونهدأ قليلاً ثم نفكر في هدوء!

● وصعدنا إلى الطابق الثاني شربنا الشاي دون أن نتبادل أي كلمة. فخطر لي أن أنزل لأرى الجثة للمرة الأخيرة.. وجدتها كما تركتها.. اقتربت منها.. فجأةً انتصب راسبوتين وأطبق على خناقي وهو يخور كالثور..

كان يريد أن يخنقني.. أطبق على رقبتي بيدين حديديتين.. ولكني في النهاية تمكنت من الفرار.

ـ [في صياح] ماذا هناك يا فيلكس؟ ماذا هناك؟

ـ الراهب اللعين.. لم يمت.. لقد أوشك أن يقتلني خنقاً!

ـ أهذا معقول؟ بعد أن أصابته رصاصاتك الثلاث!

ـ أسرعوا قبل أن يهرب.. أسرعوا.

● وأسرعت ناحية الفناء الخلفي للّحاق به قبل أن يفر بإحدى السيارتين.. لم أكن أدري أنه فضّل الفناء الأمامي استنجاداً بالشرطة.

ـ هل رأيته يا دوق؟

ـ لا، كما لا أرى يوسوبوف.. أين ذهبا؟! أين ذهب راسبوتين؟

ـ أنظر يا دوق.. ها هو يجري على الجليد ناحية البوابة الرئيسية.

ـ يا إلهي.. إذا بلغها، قُضي علينا. سأطلق عليه النار.

● أسرعت إلى الفناء الأمامي حيث صدرت أصوات الطلقات. رأيت الدوق بوريشكيفتش والكونت ديمتري بافلوفتيش عند الجثة الراقدة على الثلوج، لا يفصل بينها وبين البوابة غير ثلاثة أمتار..

ـ لو وصل اللعين إلى البوابة لاستطاع الفرار.

ـ هل مات الآن؟ هذا الشيطان لا يموت أبداً. . أنظر في عينيه يا دوق!

ـ هذه المرة مات بلا عودة يا فيلكس.

ـ أرى رجلين من رجال الشرطة يحاولان فتح البوابة.

ـ لقد سمعا الطلقات دون ريب. . إذا رأيا الجثة انكشف أمرنا.

ـ لا مفر من التصدي لهما دون خوف. . دعوني لهما!

واقترب الرجلان، ضابط وجندي.

ـ لقد سمعنا بعض الطلقات فجئنا نعرف السبب. . معذرة يا أمير يوسوبوف فالأوامر هي الأوامر.

ـ أيها الضابط. . هل تعرف من أنا؟

ـ كلا يا سيدي!

ـ أنا الدوق فلاديمير بوريشكيفتش ابن خالة صاحب الجلالة القيصر، وعضو مجلس الدوما، ووزير الصحة المسؤول عن حالة الجيش الروسي على الجبهة.

ـ في هذه الحالة يا صاحب السعادة، إني أنحني احتراماً لكم وأنسحب كي. .

ـ كلا. . يجب أن تعرف كل شيء الآن. . لقد قتلتُ أنا والأمير يوسوبوف الراهب الفاسد راسبوتين عدو القيصر وعدو روسيا.

ـ يا إلهي. . مات؟

ـ أجل. . والآن يمكنك أن تذهب وتبلغ رؤساءك!

ـ ليس أسعد مني يا صاحب السعادة بسماع هذا النبأ. . لقد أحسنتما صنعاً!

ـ حمداً لله. . والآن هل نطمع في أن تنسى كل ما سمعت حتى نتخلص من هذه الجثة الدنسة؟

ـ سيدي الدوق. . أنا وهذا الجندي غريشكا من أشد الناس إخلاصاً لروسيا وجلالة القيصر. . إننا لم نسمع شيئاً. . ولم نر شيئاً! هيا يا غريشكا.

ـ لم يبق إلا أن نتخلص من الجثة. ستنقل الجثة في سيارتك يا أمير فيلكس، فيقودها ديمتري بافلوفتيش ومعه دكتور لازوفير. عند مداخل سان بطرسبورغ، لا بدّ من أن يطارده رجال راسبوتين!

ـ كلا. . إنهم يظنونه نائماً في داره. . ثم إن بافلوفتيش سيتجه إلى البحيرة، حيث سيلقي مع الدكتور لازوفير الجثة ثم يعودان. .

● عاوناني على نقل الجثة إلى السيارة في الفناء الخلفي! وانطلقت سيارتي يقودها الكونت ديمتري بافلوفيش باتجاه البحيرة. . هناك حملها مع الدكتور لازوفير وألقيا بها في البحيرة المتجمدة على أمل أن تغوص مع طلوع الشمس. . ثم عادا إلينا في قصر مويكا.

كانت الساعة قد قاربت الخامسة صباحاً! أول صباح على روسيا، وليس على أرضها الراهب الفاسد راسبوتين!

لماذا أصبح جنكيزخان سفّاحاً ؟

● أطلقوا عليه لقب «سفاح الشعوب»، وهو ملائم للوحش الذي قتل مِن خلق الله أكثر ممّن قتلت الأوبئة والمجاعات لألف عام قبل مولده!

أباد شعوباً بأكملها، وخرّب أكثر من ألف قرية ومدينة، ونشر الذعر والدمار حيثما سار، حتى بات شعاره: «حيثما يسير جوادي، لا ينبت العشب».

من أقصى الصين الواعدة إلى أعماق الأناضول، انتشر بجنده كالجراد، يأتي على الأخضر واليابس. . جلُّ ما تركه خلوٌ من الحياة. . لا يصلح للسكن أو الاستنبات وقد انعقدت فوقه ألوية الخراب وسحب الدخان. . وعوت بين جنباته الذئاب وبنات آوى.

□ □ □

● ولماذا فعل كل ذلك؟

كان يبرّر الأسباب قائلاً:

ـ **عندما قُتل أبي. . كنت صبياً. . فأبت قبيلتي عليَّ حقي في الزعامة. رحلت مع**

أمي في براري آسيا، إلا أنهم طاردوني مطاردة الوحوش. . حتى أسروني وأمي، وأعادوني إلى أرض القبيلة مرةً أخرى.

ووجدت نفسي وجهاً لوجه أمام ابن عمي الطامع بالزعامة، فقال لي:

ـ يا تموجين. . إنك تعرف تقاليد المغول فيمن يفرّ ويهرب.

ـ [في غضب] لم يعد اسمي تموجين يا جوموكا. . بعد موت أبي، أصبح اسمي جنكيزخان. . أنا الخان. . وما أنت إلا فردٌ من رعيتي. . كونك ابن العم الذي قتل أبي لا يعني أن يكون لك الحق في محاكمتي! إني آمرك يا جوموكا أن تفكّ قيدي، وتركع أنت وجميع أفراد القبيلة أمامي. . فأنا مليككم بعد موت أبي!

ـ [ساخراً] على رسلك يا تموجين. . لا أحد ينكر شجاعتك. . غير أن حديثك هذا وأنت مقبلٌ على الموت قد يثير غضبي فآمر بتعذيبك. . قبل قطع رقبتك!

ـ لن تجسر. . وسوف ينفضّ عنك كل هؤلاء ممّن جئت بهم ليشهدوا مصرع ابن مليكهم الذي قتلته! [صارخاً] يا فرسان المغول الأبطال. . هل جئتم لتشهدوا مصرع جنكيزخان فيركبكم العار إلى آخر الزمان؟

● تبدأ همهمات احتجاج بين الحشود. . فيصيح ابن عمه فيهم:

ـ إذا نطق واحد منكم بكلمة أمرت أن يُقيّد بجانب تموجين ثم يمزق إرباً إرباً بسيوف الحراس. . هيه؟! أفي جمعنا هذا اليوم من يريد مناصرة اللص تموجين؟ سارق الجياد؟ [صمت] ها أنت ترى يا تموجين. . لا أحد يناصرك!

ـ ومع ذلك أتحداك يا جوموكا أن تمس شعرة من رأسي، وسترى ما يفعله هؤلاء الذين تهددهم بسيوف حراسك.

ـ [ساخراً] حقاً؟ لنرَ، حيث سنبدأ بإخوتك جميعاً. . ثم أمك. . لتشهد

مصرعهم الواحد بعد الآخر.. وبعدها يا تموجين.. سنقطع رأسك.. بعدها وليس قبل ذلك!

□ □ □

● يروي مؤرخو جنكيزخان ما حدث في تلك الواقعة.. فقد قتلوا أمام ناظريه جميع إخوته.. شهد مصرعهم الواحد بعد الآخر.. فلم ترتعش له شفة.. أو يهتزّ له جفن! غير أنه حاول كالمجنون أن يفك قيوده وهو يشهدهم يجرّون أمه عاريةً.. ثم يربطون أطرافها الأربعة، كل طرف إلى جواد! وبإشارةٍ من جوموكا، انطلقت الجياد كل إلى جهة من الجهات الأربع.. وإذا بأمه تغدو أمامه مقطّعة إلى أربعة أشلاء!

ويوم نجا من الموت، ذهب إلى قبر أمه، وأقسم قائلاً:

ـ أماه.. لأقتلنّ بك، كل حيّ على ظهر هذه الأرض.. سأهزّ الدنيا التي ضاقت بكِ فأُسقط رؤوس أهلها على أرض جرداء ماتت فيها روح الحياة.. سأجعل البشر كلهم يا أماه هدفاً لنقمتي.. وحين يصير هذا العالم صحراء جرداء لا نفس فيها ولا نبات، تعول فيه الريح الصفراء اللافحة كالأبالسة، عندها ستهدأ نفسي وآوي إلى مكانك هذا كي يكون قبري إلى جانب مثواك!

□ □ □

● أما كيف نجا من الموت؟ فلسوء حظ ابن عمه جوموكا أنه أبقى عليه إلى اليوم الثاني لكي يتفنن في عملية قتله بما هو أبشع مما فعله بأمه.. وفي الليل، تجمّع أنصار والد جنكيزخان وهيأوا له سبيل الهرب. ثم شرع بحشد الجيوش ليكون له بعد ذلك أكبر جيش عرفه ذلك الزمان!

□ □ □

● بهذا القلب الجسور المفعم بكراهية البشرية جمعاء، كان من الصعب على

جنكيزخان أن تنبض مشاعره بالحب! لكنها **قولان خاتون** التي جاءت تستعطفه أن يعفو عن أبيها وأمها وإخوتها الأربعة! فلم يعبأ باستعطافها. . وقتلهم جميعاً أمام عينيها. . كانت **قولان خاتون** تحمل اسماً فارسياً مغولياً. . وقد التقاها في إحدى غزواته في العراق.

ولما كانت باهرة الجمال، فقد تزوجها، حيث استطاعت أن تخترق ذلك الحصار المفعم بالكراهية. وكان من الممكن أن تمحو ما تراكم في قلبه من حقد.

● وفي ساعة من ساعات الحب والصفاء، أوشك أن ينحني أمام قبر أمه ليستسمحها بالكفّ عن سفك الدماء ويكرس جلّ حياته لنشر الحب والسلام في كل البلدان التي ملأها رعباً وفزعاً.

لكنه طرد تلك الفكرة عن مخيلته إذ انتابته الهواجس بأن قولان خاتون قد خانته، فاشتد بغضاً أكثر من قبل. . كان غالباً ما يقول لمن حوله بشأن قولان خاتون:

ـ لست أدري على وجه التحديد إذا كانت قد خانتني أم أنها حاولت إنقاذ حياتي، حالما خطر لي أنها مالأت أعدائي، فتكتُ بالجميع وهي في مقدمتهم. بعد تلك المذبحة، استمرّ السؤال الذي يؤرقني: هل خانتني قولان خاتون حقاً؟

وعندما يُسأل:

ـ كيف ظننت أنها خانتك؟

يجيب:

ـ كان لي أكثر من خمسين زوجة، لكن قولان خاتون كانت أقربهن إلى قلبي. . خاصةً أنها وهبتني طفلاً جميلاً كان يشبه أمي أيّما شبه. . لذا أحببته وعزمت على جعله وارثاً لملكي كله، مقصياً بذلك ولدي الأكبر بوشي. وفي يوم ذهبت إلى خيمة قولان خاتون، ففاجأتني بالقول:

ـ مولاي، ما من امرأة في الدنيا أسعد مني بزيارتك الليلة.. إجلس يا مولاي ولتكن هذه الليلة لنا وحدنا!

ـ وهي كذلك يا قولان.

ـ هاتي النبيذ يا مان يان!

ـ بل الشاي الذي تتقنه خادمتك الصينية مان يان يا قولان!

ـ أبالشاي أحتفل بزيارتك يا مولاي؟ بل بالنبيذ أيها الخان الأعظم.

ـ الشاي يا قولان أحبّ مشروب لدي.. إذهبي يا فتاة.

ـ [في شبه تردد] لا تصنعي الشاي يا مان يان.

ـ إذهبي يا فتاة، وأحضري الشاي.

ـ [في توسل] مولاي!

ـ أترفضين أن تقدمي لي ما أحب؟ حسناً، أنهض وأشرب ما أشاء حيثما أشاء.

ـ بل ابق يا مولاي.. إبق أيها الخان الأعظم.

ـ إذن فاذهبي يا مان يان وهاتي الشاي.

ـ مولاي بحق السماء لا تشرب الشاي!

ـ ولم لا؟ لَهو أمر مريب. ناوليني القدح يا مان يان، فإن لسيدتك اليوم تصرفات مريبة.

ـ [باكيةً] مولاي.. هذا الشاي! هذا الشاي..

ـ [في حزم] إعتني بسيدتك يا فتاة، يكاد أن يُغمى عليها.

ـ كلا يا مولاي.. لم يُغمَ علي.. ولكن بالله عليك هل شربت شيئاً من الشاي؟ بحق السماء لا تقربه!

ـ ألأنه مسموم؟ لا يا قولان، لم تضع مان يان العشب المسموم في الشاي كما أمرتِها!

ـ أكنت تعرف يا مولاي؟

ـ إن لـجنكيزخان عيوناً في كل مكان يا قولان!

ـ [باكيةً] مولاي، لقد جاءني ولدك بوشي مهدِّداً بقتل ولدي إن لم أدسّ لك السم في الشاي.. لهذا لم أردك أن تقرب الشاي.. أقتلني يا مولاي! أقتلني.

ـ ليس قبل أن تشهدي مصرع كل من اشترك معك في هذه الفعلة. ولدي بوشي، وخادمتك مان يان لأنها دسّت السم في الشاي والنبيذ بعد أن دفع لها بوشي صرة الذهب.

ما هي إلا لحظات حتى دخل أحد الحراس على جنكيزخان قائلاً:

ـ مولانا الخاقان الأعظم!

ـ هل مات؟

ـ ورأسه على رمح بباب الخيمة يا مولانا!

ـ أخرجي يا قولان خاتون لتري رأس ولدي بوشي الخائن. أخرجي لتري رأس شريكك قبل أن تلحقي به في الجحيم.

□ □ □

● بقدر ما كان جنكيزخان يسعد بإلحاق الهلع والفزع والرعب والموت بأعدائه، كان يخيفه مجرد التخيّل أن يطارده الموت.. لهذا جدّ في البحث عمّن يزوّده بإكسير الشباب والخلود.. وحين سمع بحكيم غزير العلم بالكيمياء وأسرار السوائل، أرسل إليه طالباً منه إيجاد طريقة تطيل عمره.

ـ أيها الخاقان العظيم، ليس لديّ هذا الإكسير!

ـ إذاً، فقل لنا كيف نركّبه ونحصل عليه.. فأنا لا أريد الموت.. أوجد لي هذا الإكسير، أهبك كل ما تطلب، بل أجعلك حاكماً على نصف الدنيا!

ـ ما فرحي بهذا الحكم، وأنا لم أصل إلى حكم نفسي؟

ـ سأمنحك سرباً من مئة فتاة ومن أجمل العذارى!

ـ زوّجهن شباباً يعمرون الخراب الذي انتشر في الدنيا.

ـ إذاً، أين أجد إكسير الحياة أيها الحكيم؟

ـ هذا الإكسير لا وجود له إلا في مخيلة المجانين.. وأنت من العقلاء أيها الخاقان!

ـ إن الناس يكرهون الحقيقة أيها الحكيم.. ولهذا يعمد أصحاب الملوك إلى الرياء. إنك لم تخف، ولم تطمع، فقلت الحق.. تمنَّ عليّ أيها الرجل.

ـ أن تدع سياسة الحرب وتقرّ في العالم حكم السلام!

ـ شعبي لا يعرف العيش في ظل السلام! إن المغولي يُولد على ظهر الجواد في معمعة القتال.. ويموت على ظهر الجواد.. ولهذا هدمت القرى.. ومحوت الحضارات حتى لا تسري إلى شعبي جرثومة الاستقرار والسلام.

□ □ □

● وفي صباح أحد الأيام، دخل الوزير الأكبر ليوقظ سيده، فوجده قتيلاً في فراشه وقد شقّ قلبه سهمٌ مسموم.. فتنفّست البشرية الصعداء!

ليلة شرب ستالين نخب مصرع تروتسكي!!

ليس ثمة أقبح من لعبة «الاغتيالات» في ساحة السياسة الدولية! بعضها أشعل حروباً، وبعضها أضاع أجيالاً بأكملها. . وكلها تركت بصماتها المدمرة، على تاريخ المسيرة البشرية نحو حياة أوفر رغداً وسعادة.

نقف اليوم أمام إحدى أخطر الألعاب الدموية القذرة. هي لعبة لم تُسبَر أغوارها الخفية رغم مئات الكتب والتقارير والتحقيقات التي تمحورت حولها. . تهيأت كل أسبابها وأُعدّ لها الميدان، وتوافر لها اللاعبون ثم انتهت إلى غايتها في٢٠/٨/١٩٤٠. الضحية كان ليون تروتسكي الشريك الأصيل في الثورة السوفياتية. . الشريك الذي ظل ستالين يخشى بأسه حتى طرده من روسيا كلها، رغم ما أشيع من أن تروتسكي هو صاحب القرار في الهروب من وطنه، وأن ستالين لم يطلب إليه مغادرة البلاد. تروتسكي نفسه يؤكد الأمر، قائلاً:

«هذا صحيح. . قررت ذلك لأني كنت أعلم أن بقائي مع معارضتي لسياسة ستالين معناه الاغتيال، لهذا فررت بأسرتي إلى المكسيك، وجعلت من مكان إقامتي أشبه بالقلعة الحربية تحسباً لاقتحامها من القتلة والمأجورين».

□ □ □

حين جاء تروتسكي الى كايوكان، القرية المكسيكية الصغيرة، اشترى بيتاً يقيم فيه، كما اشترى كل الحقول المحيطة به، حتى يتمكن حراسه من مراقبة كل التحركات حول البيت. . ورغم هذه التحصينات، جرت عدة محاولات لاقتحام البيت، وقُتل عددٌ من الحراس، ودخلوا إلى غرفة نوم تروتسكي وأطلقوا وابلاً من الرصاص. ولكنه وزوجته وحفيدته، فور استشعارهم أصوات الضجيج في فناء الدار، اختفوا في غرفة سرية أعدّها تروتسكي لمثل هذه المناسبات السيئة، ما دفعه إلى مضاعفة حرّاسه المدججين بالأسلحة ترافقهم الكلاب البوليسية المدربة، وزُرعت على حدود المزرعة أسلاكٌ شائكة وبواباتٌ من الصلب الحديدي تتحرك كهربائياً. كتب تروتسكي مبرراً كل تلك الاحتياطات الاحترازية:

«إن ستالين لا ينام أبداً عن ثأره، لذلك وجدتُني مضطراً لاتخاذ التدابير لحماية نفسي وأسرتي، وقد وضعت شروطاً قاسية على كل من يدخل إلى بيتي. كان ذلك سبباً في حرمان زوجتي الحبيبة ناتاليا من مواصلة نشاطها الاجتماعي، كما ضُربت العزلة على حفيدتي الصغيرة، لم أكن أمنح ثقتي لأحد سوى سكرتيرتي الخاصة الآنسة سيلفيا».

سيلفيا هذه فرنسية، لكنها تجيد الروسية، وهي الصديقة الوحيدة لزوجة تروتسكي منذ أن كانت في الحادية عشرة من عمرها، إذ تعرفت إليها في إحدى زياراتها إلى باريس قبل الثورة الروسية. عندما غدا تروتسكي ثاني رجلٍ في روسيا بعد لينين، جاءت لزيارة موسكو، وتم الاتفاق على اختيارها سكرتيرة له على اعتبارها أنها تجيد أكثر من لغة. كانت هي الوحيدة المسموح لها بالخروج من البيت والسفر إلى باريس في إجازات تقضيها مع خطيبها جاكسون ماركادير، فهي تعيش أحلى أيام العمر معه لأنه شغف بحبها لدرجة أنها كتبت عنه في دفترها الخاص:

«لو طلب روحي لوهبتها له عن طيب خاطر. إنه أرقّ، وألطف، وأجمل شاب في الدنيا كلها».

هذا الشاب الذي تتحدث عنه سيلفيا بلجيكي، إنما كان يحمل جواز سفر كندياً، وكل أوراقه تؤكد أنه كان يدير مكتباً للاستيراد والتصدير في باريس. كان في أواسط العشرينيات من عمره بينما سيلفيا قد تجاوزها قطار الزواج بعد أن تعدّت الخامسة والثلاثين، وهي لا تتمتع بأية جاذبية أو جمال. ونتيجةً للثقة العمياء التي يوليها تروتسكي وزوجته لسيلفيا، فقد سمح لها بأن تصطحب خطيبها لزيارتهم، حيث التقى بتروتسكي أكثر من مرة.

● عقب اغتيال تروتسكي، سُلِّط الضوء على حياة الفتى الجميل، الذكي، الجذاب، جاكسون ماركادير، فتبيّن أنه قد وضع خطة مدروسة بهدف غواية سيلفيا، مستغلاً مهارته في الإيقاع بالنساء في حبائله، فكانت له فريسة سهلة... ورغم احتياطات تروتسكي، كان اقتحام جاكسون بيته سهلاً وهيناً، بعد ما ظهر له ولزوجته شدة شغف السكرتيرة بخطيبها، وحديثها المستمر عن أمانته ونزاهته، وثقتها العمياء بأخلاقه وسلوكه. وطُرحت عدة أسئلة حول جاكسون ماركادير:

- هل أرسله ستالين؟
- هل استأجرته منظمة أخرى؟
- هل اسمه الحقيقي جاكسون ماركادير؟ أم أنه اسم مختلق؟
- هل كان حقاً مدير مكتب استيراد وتصدير؟

ظلت الإجابة على هذه التساؤلات لغزاً محيِّراً إلى أن كُشف النقاب عن حقيقته بعد اغتيال تروتسكي.

● عادت سيلفيا من باريس مصطحبة خطيبها، لتقابله ناتاليا (زوجة تروتسكي) بترحاب شديد، لكنها تسأله:

ــ أواه يا جاكسون العزيز.. لم تحمل معطفاً على ذراعك بينما الحرّ شديد ــ كما تعلم ــ في منطقتنا؟

فيرّد بحذق وذكاء، بإجابة لا علاقة لها بموضوع سؤالها، حيث بادرها بالقول:

ـ ولماذا أنت اليوم تبدين كالزهرة اليانعة وعطرك فوّاح؟

فتصيح ناتاليا التي تجاوزت الستين من عمرها لزوجها:

ـ إسمع يا ليو ماذا يقول عني جاكسون. كُفَّ عن إطعام العصافير، وتعال شاركنا في هذا الغزل الراقي!

ما إن حضر تروتسكي، حتى توجّهت ناتاليا إلى المطبخ لتشرف على إعداد وجبة الطعام، فيقول جاكسون لتروتسكي:

ـ ليتني كنت عصفوراً أتناول طعامي من يد أكبر مفكر وفيلسوف سياسي في عصرنا هذا.

فيجيبه:

ـ إنك تبالغ يا جاكسون!

لكن جاكسون يُقسم لتروتسكي بأنه ليس مبالغاً في ما قال وأنه كتب مقالاً ردّ فيه على نقد وجّهته إحدى الصحف المكسيكية إلى تروتسكي، وسوف ينشره في الجريدة نفسها. وها هو يطلب من تروتسكي أن يلقي نظرة عليه قبل إرساله إلى الجريدة.

فيقول له تروتسكي:

ـ نعم. . لقد قرأت ذلك الهجوم الموجّه إليّ، وليس في نيتي أن أردّ على الكاتب، يبدو أنه ستاليني النزعة. . ولكن لا بأس في أن ألقي نظرة على مقالك، فلنذهب إلى المكتب حتى ننعم بشيء من الهدوء والتركيز في قراءة ردّك.

ها هي اللحظة الحاسمة قد جاءت، ولم يكن جاكسون يتمنى فرصة أفضل من هذه.

جلس تروتسكي خلف مكتبه، وبدأ يقرأ، بينما وقف جاكسون خلفه. وفي لحظة خاطفة يُخرج الفأس من تحت معطفه ويهوي بها على الرأس العاري لرجل تجاوز الستين من عمره!

سمع الحرّاس صرخات تروتسكي، فسارعوا إلى إلقاء القبض على جاكسون الذي ظن بأنه قد فشل في القضاء على ضحيته، فصاح:

ـ كيف لم يمت؟ كيف أخطأته؟ لقد هويت بالفأس على وسط الجمجمة!

ثم يبكي في هيستيريا، مواصلاً صراخه:

ـ زجّ الرّوسُ بأمي في السجن، ورأس تروتسكي هو ثمن حريتها، فإذا لم يكن قد مات، سأُعاقب أنا هنا، وتموت أمي هناك!

ثم ينتحب، ويأتيه من بعيد صوت تروتسكي:

ـ لماذا أردت أن تقتلني؟

فيُستفَزّ جاكسون وهو في قبضة الحرّاس، ويصيح:

ـ إنه يتكلم.. فالضربة لم تكن قاتلة إذاً؟

□ □ □

● يمكث تروتسكي في المستشفى ثلاث ساعات، ثم يفارق الحياة.. فقد انغرست سنّ الفأس في الجمجمة بعمق سبعة سنتمترات، ما أصابه بالشلل بسبب تفسّخ كتلة المخ.

● حالما أعلنت الصحف ووكالات الأنباء خبر مصرع تروتسكي، رفع ستالين كأس الفودكا هاتفاً بنخب أعضاء اللجنة المركزية لحزبه، الذين رفعوا بدورهم كؤوسهم تحيةً لزعيمهم الذي بلغ عدد ضحاياه ملايين البشر.

القيصر يتّهم أمه بقتل أبيه!!

● مذ ظهرت بوادر وعيه وإدراكه، والسؤال الرهيب يدور في ذهنه.

ــ هل قتلت أمي «كاترين» أبي قيصر روسيا؟

صبي في العاشرة قد نشأ معه هذا السؤال، إذ عاش سنين ناظراً أمه تضع التاج على رأسها لتغدو أعظم قياصرة روسيا في القرن الثامن عشر (كاترين الكبرى). كان لها من القيصر القتيل طفلٌ في الخامسة من عمره.. ورث عن أمه وأبيه ميزتين: ذكاء كاترين الخارق، وهوس الأب الشيطاني؛ بشرة كاترين الوردية الناعمة، وقُبح تقاطيع بطرس المقززة؛ عينيْ كاترين الزرقاوين الجميلتين، وحِدبة الأب القميء.

حين تُوّجت أمه امبراطورةً، نادت أقرب أعوانها الى قلبها.. باستثناء الكونت. أورلوف صديقها الأثير. أرادت لولدها تربيةً متميزة، فطلبت من الأمير نيكيتا بانين أن يكون مربياً له.

ــ لا أحد يصلح لتربية ولدي بول سواك، لا ترفض فهذا أمر.. ولا تظن أنني لا

أعرف ما ستقاسي من ولدي . . إنه عصبي، سريع التأثر بالأحداث، عنيف الغضب المجنون الى حد الصرع.

ـ أعرف كل هذا يا صاحبة الجلالة، وهو أيضاً شديد الذكاء. لكن آلة عقله معلقة على شعرة رفيعة، إذا انقطعت، كفّت الآلة عن الدوران . . عندها وداعاً للعقل والذكاء!

ـ حسناً . . سيكون لك ما تريد، عشرون ألف روبل قابلة للزيادة سنوياً، قصرٌ في بطرسبرغ لإقامة بول . . وسأمنحك لقب سفير فوق العادة.

ـ يا صاحبة الجلالة . . إن مجرد تكليفي بتربية وليّ العهد يفوق أي شرف تسبغينه عليَّ.

ـ بانين، يظن ولدي أن لي يداً في مقتل أبيه . . عليك بكل صبر وحذق أن تُزيل هذه الأفكار السوداء من ذهنه . . لا أريد أن يبغضني كما كان أبوه يبغض أمه.

ـ سأبذل كل جهدي يا صاحبة الجلالة.

□ □ □

● رغم كل ما بذله الكونت نيكيتا بانين مع ولي العهد من جهد في تربيته، كان الفتى يقطع أيَّ حديث ليطرح السؤال الذي لازمه منذ طفولته:

ـ أصحيح يا كونت بانين أن أمي كاترين قتلت أبي؟

ـ يا صاحب السموّ . . هذه فِرية يروجها أعداء صاحبة الجلالة والدتكم.

ـ من قتله إذاً؟

ـ يا صاحب السمو . . البيان الصادر عقب موت والدكم الراحل أشار . .

ـ [مقاطعاً] أعرف ما في البيان، أحفظه عن ظهر قلب، يقول البيان: «يؤسفنا أن ننعى الى الشعب وفاة القيصر بطرس الثالث بأزمة قلبية مساء الثامن من تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٧٦٢ في قصر بروشا.

التوقيع
كاترين الثانية».

ـ هذه حقيقة ما حدث يا صاحب السمو.

ـ لا أصدق . . لقد قتلوا أبي في قصر بروشا. . أنا أعرف قاتله . . إنه الكونت أورلوف عشيق أمي . . وقد فعل ما فعل بتحريض منها!

ـ كلا يا صاحب السمو . . لقد مات والدكم بأزمة قلبية . . ما عدا ذلك أقاويل يحاول بها أعداء والدتكم أن يفسدوا ما بينها وبينك.

ـ إني أبغضها! أحترمها أمام الناس، نعم . . فهذا واجبي بوصفي ولياً للعهد . . ولكنها أبداً لن تنعم بحبّي.

□ □ □

● لم تكن كاترين بحاجة الى حبه رغم قداسة الأمومة . . حبها كان منصبّاً على التاج الذي وضعته بيديها عى رأسها. . وإذا كان ثمة بقية من حب في قلبها، فمن يستأثر بها هو أورلوف صديقها الأثير . . ولكنها كانت بحاجة الى ترويض ذلك الولد العنيد ليرث المُلك الذي ضاعفت من طوله وعرضه خلال سنوات حكمها . . وحين بلغ بول السادسة عشرة من عمره، أخذت المتاعب التي دأب على خلقها لأمه تصل حداً أغضب كاترين التي اشتُهرت بالحلم والصبر . . وإذ أرادت أن تعالج بعض ما يعانيه ولدها، قالت لمؤدّبه:

ـ يا كونت بانين، أعتقد أن حياة الفراغ التي يعيشها بول هي التي تدفع به الى

ارتكاب ما يفعل. تصوّر . . لقد اقتحم عليَّ غرفتي أمس وبيده كوب من اللبن، وأخذ يصيح: «لماذا تريدين أن تقتليني بالسم؟ أقتليني خنقاً كما قتلت أبي».

ـ يا صاحبة الجلالة، رغم كل ما فعلته معه، لا يزال يعتقد أن لجلالتك يداً في موت أبيه . . أعترف أنني فشلتُ تماماً في إزالة هذه الفكرة من ذهنه، بل صار يعدّني واحداً من أعدائه.

ـ لذلك أفكر في طريقة تشغل أوقات فراغه . . سأشركه في اجتماعات المجلس المخصوص، قد يجد في المشاغل السياسية ما يُبعد عن ذهنه تلك الوساوس. ثم إنه ولي العهد ويجب أن يتمرس من الآن بأساليب الحكم!

□ □ □

● في المجلس المخصوص تسبب بعداوة الجميع . . ما من قانون يُعرض للمناقشة إلا وصاح في أعضاء المجلس:

ـ ما حاجتنا إلى هذا القانون وهناك القوانين التي سنَّها أبي القتيل؟

النغمة القديمة التي ما فتئ يرددها، الى أن ضاقت به كاترين ذرعاً، فخاطبته بحدة يوماً:

ـ أعتقد أنني فشلت في تجربة تهيئتك للحكم . . لا مفر من أن أحكم بمفردي.

□ □ □

على أية حال، كانت كاترين تحكم بمفردها، لكنها لجأت الى أسلوب جديد لكبح جماح الشاب العنيد، فعزمت على تزويجه. غير أنها لا تريد أن تفرض عليه زوجة بعينها كما حدث لأبيه . . كان أبوه يكرهها لسبب واحد وهو أن أمه هي التي اختارتها له . . لذلك ستدعه يختار من يريد . . ولدى بحث الأمر معه، وجدته ميالاً الى الأميرة ولهلمينا ابنة لويس ملك بلغاريا، التي وجد فيها كل ما

يشتهيه قلبه وعقله، خاصةً اعتقادها مثله أن كاترين هي قاتلة أبيه. بعد عامين من الزواج كفّ عن إيذاء أمه وتفرغ لزوجته التي عاجلها الموت أثناء الوضع، فصاح ثائراً باكياً:

ـ لا . . لا . . إنها لم تمت . . مجرد إغماء . . إغماء يا كونت بانين . .

ـ يا صاحب السمو . . تمالك أعصابك . . لقد فحصها أكثر من ستة أطباء. .

ـ كلهم جواسيس أمي . . لا . . لم تمت ولهلمينا.

ـ إن الناس ينتظرونك في الجبانة لدفنها يا صاحب السمو.

ـ لا . . لا تدفنوها . . إنها لا تزال على قيد الحياة . . [يبكي] لا . . لم تمت حبيبتي . . لم تمت . . لن أسمح لأحد بالاقتراب منها . . دعوها مكانها . . سأعتني بها حتى تستيقظ من إغمائها!

ـ يا صاحب السمو، لا يمكن تأخير الجثة أكثر من ذلك كي لا تصدر منها رائحة!

ـ هذه رائحة الخيانة وليست رائحة حبيبتي ولهلمينا. . لن أسمح بالاقتراب منها . . لن تدفنوها حية أيها المجرمون.

□ □ □

● دُفنت ولهلمينا بعد ستة أيام، وانزوى بول في قصره معوِّلاً باكياً، لا يجسر أحد على الاقتراب منه . . يلمس ثيابها ويتحسس بيديه حاجياتها . . ويناديها بأرق الأسماء . . ويحادثها إلى مائدة الطعام كأنها بجانبه تضاحكه وتلاعبه، بل أرغم الخدم على تقديم الطعام لها.

ذات يوم كان يتحسس حاجياتها وملابسها، فعثر على خطاب منها لصديقه

أندرياس راموفتيش. . خطاب غرام عنيف . . أسفرت الخيانة عن وجهها القبيح، فصاح بأعلى صوته وثورته.

ـ انبشوا قبر اللعينة . . أحرقوها . . أحرقوها . .

أبى الجميع تنفيذ رغبته المجنونة، فتسلّل برفقة رجاله الى القبر وفعل بالجثة ما أراد من حرق وذرٍّ الرماد في الهواء.

في اليوم التالي خطب ابنة حاكم روتنبرغ، الجميلة ماري صوفيا، التي دام زواجه منها خمس سنوات، أنجبت له أثناءها ثلاثة أبناء وابنتين . . أكبرهم ألكسندر. . فإذ قالت له أمه القيصرة :

ـ لشدَّ ما أحب حفيدي العزيز ألكسندر . . إنه أقرب الناس شبهاً بي. .

صار الطفل أبغض الناس إلى قلبه بعد أمه كاترين. . منذ ذلك اليوم لم يعد يشغله غير إلحاق الأذى بالطفل . . أنقذوه من بين يديه ذات ليلة وهو يحاول خنقه . . كرر المحاولة، لكن القدر شاء للطفل أن يكبر ويغدو يوماً أحد قياصرة روسيا باسم ألكسندر الأول.

فجأة توفيت كاترين الكبرى، وتوِّج بول المختل قيصراً.

في اليوم الأول من حكمه أصدر أعجب قراراته :

ـ نحن بول الأول قيصر روسيا، نأمر باستخراج جثة والدي الراحل بطرس الثالث لإعادة دفنه في أعظم احتفال . . ويؤجل دفن القيصرة كاترين الثانية الى وقت نحدده في ما بعد.

● لم تشهد العاصمة بطرسبرغ جنازةً كالتي نظمها القيصر بول الأول لوالده المتوفى منذ سبعة وثلاثين عاماً . . ولم ينسَ دور الكونت أورلوف وأخيه في مقتل والده . . فكان القرار الثاني:

ـ نحن بول الأول قيصر روسيا، نأمر بأن يسير كل من الكونت أورلوف وأخيه الكونت باهلين حافيي الأقدام خلف نعش والدنا في جلبابين ملطخين بدم أسد.

وبعد الدفن أمر بإعدامهما . . ثم دُفنت أمه من دون أي احتفال.

لم يبتهج الشعب بتوليه العرش، فقد كانت أمه كاترين الكبرى مصدر كل فخار للشعب الروسي، فهي التي جعلت من بلادها دولة عظمى، إذ كانت لها الكلمة العليا في سياسة أوروبا كلها، فضلاً عن صدّها أطماع بروسيا في حدود روسيا الغربية، وإيقاف الزحف التركي على أراضيها. استحقّت تسمية الشعب «أمنا العظيمة» . . أما الآن، فبات للشعب أبٌ بغيض يكرهه الجميع . . حين لامه معلمه العجوز الكونت نيكيتا بانين على سوء معاملته الناس في إدارة دفة الحكم، أجابه :

ـ إعلم يا بانين أن لا أحد في روسيا يحق له أن يحمل لقباً إلا في اللحظة التي أكلمه فيها فقط . . فأي إنسان يستمد لقب كونت أو نبيل، فإنما يتم ذلك من خلال حديثي معه . . فإذا انتهى الحديث غدا كأنه فرد من أفراد الشعب.

والغريب أنه لم يكن يستمع الى نصيحة أحد من وزرائه وأركان حكمه. شخصٌ واحد كان يحظى منه بالاستحسان في كل ما يقوله . . **إنه كارتاسوف**، حلاقه . . هذا الرجل صارت له سلطة على القيصر . . فكلمةٌ منه كفيلة بالتنفيذ مهما كانت.

أدرك الحلاق ماذا يحب القيصر وماذا يكره . . فكان يعزف على أوتار محبته وبغضه. حدّثه يوماً :

ـ يا صاحب الجلالة . . لقد سمعت الكونت بانين ينتقد القوانين الأخيرة!

ـ آن الأوان لإعدام هذا العجوز المخرف نيكيتا بانين.

ـ يا صاحب الجلالة لنكتفِ بنفيه . . إنه مؤدّبك القديم.

ـ بل لا بد من إعدامه.

● ويستمر الحلاق بنقل ما يدور من أخبار للقيصر.

ـ يا صاحب الجلالة . . كنتُ أمرّ مصادفةً في شارع نيــا، فلم أجد أقواس النصر التي صنعوها يوم مررت به منذ شهرين!

ـ فلتُهدم كل البيوت والحوانيت في شارع نيــا.

وما من وشاية للحلاق إلا وعاقب عليها بول أعتى العقاب الذي طال جميع الأشراف في بطرسبرغ حيث أمرهم أن يحلقوا لحاهم، وتلك كانت أكبر إهانة تلحق بنبلاء البلاد. ولم يكتف الحلاق بالوشايات في داخل روسيا، إنما تجاوزها الى بابا روما. فما كان من القيصر إلا أن بعث برسالة الى الفاتيكان :

ـ الى بابا روما . . أطالبك على الفور بسحب جميع القساوسة الكاثوليك الملحقين بإرساليات مدن روسيا . . وسنأمر بإعدام كل من لم يغادر البلاد في ظرف ستة أسابيع من تاريخ هذا الخطاب.

● وبوشاية قذرة من الحلاق، أعاد القيصر الجنرال سوفاروف محبوب الجيش من الجبهة الجنوبية ونفاه كأي محكوم روسي الى سيبيريا . . وأعاد القوانين القديمة التي تُرغم كل من يمر به الموكب الامبراطوري على أن يسجد ويُعفر وجهه في تراب الأرض أو طينها حسب الظروف المناخية . . أمام هذا كله كان لا بد من أن تتحرك الجمعيات السرية لوضع حدٍّ لتصرفات القيصر المختل . . وقد اشترك ولده ولي العهد ألكسندر في بعض هذه الجمعيات، لكنه فرض شرطاً هو :

ـ لا تقتلوه . . نعم اخلعوه . . ولكن لا تقتلوه.

● وبدأ التحرك الفعلي، حيث تم اغتيال الحلاق كارتاسوف، فأشعل القيصر الحرائق في المدينة التي قُتل فيها جاسوسه الأثيم، وسقط في الحريق أكثر من ثلاثين ألف ضحية.

دخل القيصر يوماً مخدع ولده الكبير ألكسندر، فرآه يقرأ كتاباً.

ـ [في حدة] **ما هذا الكتاب؟**

ـ يا صاحب الجلالة هذه مسرحية لشكسبير عنوانها **موت يوليوس قيصر**.

ـ **آه موت قيصر إذاً؟.. أهذا ما تفكر فيه؟**

ـ كلا يا صاحب الجلالة .. إنني.

ـ [مقاطعاً] **أيها الولد العاق .. سأرسل إليك كتاباً غير هذا لعلك تفيد منه شيئاً .. إقرأه بعناية أيها الخبيث حتى تُدرك عاقبة كل من يفكر بقتل القيصر.**

وأرسل إليه كتاباً عنوانه **حياة بطرس الأكبر**، الذي يحكي تفاصيل قيام بطرس الأكبر بقتل ولده ألكسس لمجرد الشك في تآمره على أبيه.

لكن الاتفاق على الإطاحة بالقيصر، بين المؤسسة العسكرية والمؤسسات السرية الأخرى، بالتنسيق مع ولي العهد ألكسندر، قد شارف على نهايته ولم يبق إلا الفصل الأخير .. قبل التنفيذ بيوم، علم أحد جواسيس القيصر بالمؤامر. كان أخوه ميشيل يرأس إحدى الجماعات، فاستدعاه القيصر مستفسراً:

ـ **ميشيل نُمي إليّ أنك ترأس جماعة سرية لاغتيالي .. ماذا تقول في هذا؟**

ـ أجل يا صاحب الجلالة .. لم أقبل رئاسة هذه الجماعة إلا لأُحبط مشروعها الأثيم.

ـ حسناً . . أريد الأسماء . . كل الأسماء . . إجلس واكتبها أمامي.

□ □ □

● وكتب شقيقه الأسماء كلها . . لكنه في الوقت نفسه أنذر زملاءه. في تلك الليلة أوى القيصر الى فراشه ظناً منه أنه قضى على المؤامرة. لكن عند منتصف الليل، إستيقظ من نومه على يدٍ تهزه بعنف.

ـ ماذا هناك ؟ من أنتم ؟ ماذا تفعل في غرفتي يا ميشيل ومعك هؤلاء الناس؟

ـ وقّع على هذه الورقة يا بول . . إنها قرار تنازلك عن العرش لولي عهدك الأمير ألكسندر.

ـ [صائحاً] مستحيل . . أين الحرس ؟ أين الجيش؟

ـ لا مفر من قتله إذاً . أخنقه يا جنرال سوفاروف.

ـ لا يا جنرال سوفاروف . لا، أتوسل إليك ألاّ تخنقني .

● لكن المنديل في يد الجنرال سوفاروف كتم أنفاسه حتى فارق الحياة.

في اليوم التالي أصدر ولده ألكسندر القرار نفسه الذي أصدرته كاترين الكبرى، حيث جاء فيه :

ـ نحن ألكسندر الأول قيصر روسيا ننعى الى الشعب وفاة والدنا الحبيب بول الأول قيصر روسيا بنوبة قلبية في قصره، في الكرملين.

جمال باشا السفّاح!!

شجرة الحرية لا ترتوي إلا بدماء الأبطال!

قاعدة ثابتة انحنى لصدقها التاريخ في كل زمان ومكان.. انحنى لها في بلاد الشام عند تلال بيروت المطلة على البحر.. يوم كان أولئك الأبطال يعتلون منصات المشانق بصلابة وشجاعة.. لا تُرهبهم حبالها المتراصة. ولا تذهب بشجاعتهم عيون أهاليهم الضارعة الباكية.

● يتقدّم سعيد عقل منشداً:

«نحن أبناء الأُلى.. شادوا مجداً وعُلا..».

● وينشد جورجي حداد:

«نسلُ قحطان الأبيّ.. جدُّ كل العربِ..».

● ويصيح نايف تللو:

«عجّلوا.. لا لزوم لهذه الرسميات.. نريد أن نتخلص من وجوهكم اللعينة يا أعداء الإنسانية».

● ويدعو عمر حمد قائلاً:

«أسأل ربّي أن يكون دمي فداء لبلادي وشرفاً لعائلتي».

● ثم ينتفض عبد الغني العريسي هاتفاً:

«في سبيل المجد.. في سبيل العرب».

● ويأتي دور الأمير عارف الشهابي:

«اعدمونا في لحظة واحدة أيها الجبناء.. نريد أن نموت معاً كما عشنا معاً..».

● ويتبعه أحمد طبّارة بوجهه الباسم:

«مرحباً يا أرجوحة الشرف.. مرحباً يا أرجوحة الأبطال.. مرحباً بالموت في سبيل الحرية!».

● ويصيح سليم الجزائري:

«قولوا لجمال باشا السفّاح الذي جَبُن عن أن يشهد مصرعنا اليوم إنه سيلحق بنا قريباً ولن ينجو من غضبة الأحرار!».

● ثم يقول محمود المحمصاني:

«أعدموني مع أخي محمد في لحظة واحدة.. حتى لا يحزن أحدنا على الآخر».

● فيجيبه أخوه محمد المحمصاني:

«ستكون جماجمنا أساس استقلال بلادنا!».

□ □ □

● إن قائمة الشرف طويلة. . تضم بأحرف من نار ونور أسماء ثلاثة وعشرين بطلاً من أبطال الحرية والاستشهاد:

عبد الحميد الزهراوي ــ عبد الكريم الخليل ــ نور الدين القاضي ــ عبد الغني العريسي ــ عبد الوهاب الإنكليزي ــ جورجي حداد ــ رفيق رزق سلوم ــ الأمير عارف الشهابي ــ رشدي الشمعة ــ محمود المحمصاني ــ محمد المحمصاني ــ سامي العظم ــ توفيق بساط ــ شكري علي ــ محمود العجم ــ أمين لطفي الحافظ ــ نايف تللوــ عبد القادر الخرسا.

□ □ □

● ثلاثة وعشرون بطلاً. . نفوسٌ مجيدة رائعة صلبة كصلابة أشجار بلاد الشام. . ثلاثة وعشرون شهيداً حصدهم السفاح على دفعتين. . كأنه شيطان باع نفسه للجحيم وتجرّد من كل ما يمتّ إلى البشرية بصفة. . الجزار. . الوحش. . **جمال باشا السفّاح!** أرسلته الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى إلى بلاد الشام ليتسلم دفة الأمور في أعرق منطقة عربية. .

وعندما اصطف الوجهاء للترحيب بمقدمه، وقف فيهم خطيباً:

ــ بوصفي وزيراً للبحرية العثمانية وقائداً للجيش الرابع، ستكون مهمتي هنا في بلاد الشام عسكرية بحتة. إننا أيها العرب في حالة حرب. . وإذا تجاسر أي عربي منكم على عرقلة مجهودنا الحربي فليس له عندي غير حبل المشنقة.

ــ يا سعادة الباشا إن كل السياسيين العرب في بلاد الشام يمارسون حقوقهم من خلال الأحزاب المعترف بها من الدولة العليّة.

ــ ليس في حالة الحرب! فنحن في ظروف غير طبيعية. . وبالتالي، ستصدر أحكامنا بحق المخالفين وفقاً لهذه الظروف!

ـ وهل لديك يا جمال باشا موافقة من الباب العالي على ما تقول؟

ـ فليسمع الجميع! إنني رجل عسكري. . لم أعتد الحصول على موافقة مسبقة على التكتيك! أما الاستراتيجية، فهي معروفة: الإبقاء على كل البلاد المفتوحة تحت سلطان الباب العالي. . إنني لم أخالف الاستراتيجية السلطانية!

ـ الواضح من حديثك أن تكتيكك هو العنف يا جمال باشا؟

ـ بل قُل هو العنف العنيف الذي سأواجه به تلك الجمعيات السرية الآخذة في الانتشار في هذه البلاد، مثل «الجمعية القحطانية» و«جمعية الإصلاح» و«جمعية الجامعة العربية» و«جمعية الإخاء العربي» و«جمعية المنتدى». . هي أوكار يجب هدمها على الفور، وقتل أعضائها من الخفافيش، لأنهم أعداء الباب العالي!

ـ أليس من المناسب أن يُطلق جمال باشا حواراً مع أعضاء هذه الجمعيات؟

ـ نحن في زمن حرب. . والغاية تبرر الوسيلة! ثم إن رجالي قد عثروا على أدلة قاطعة تدين هذه الجمعيات! فهذه رسالة سرية وصلت من رجال الأزهر في القاهرة تدعو أعضاء هذه الجمعيات إلى الثورة على سلطة الباب العالي. . كما حضر رجالي سراً بعض اجتماعات هذه الجمعيات فإذا بها تدعو إلى العصيان في كل من سورية وفلسطين ولبنان! لن أسكت عن هذه المهزلة أبداً!

□ □ □

● وانتشر زبانية السفاح جمال باشا يهدمون كل بيت تفوح منه رائحة الحرية على رؤوس أهله من الرجال والنساء والأطفال. . ففي مدينة عاليه تحركت آلة السفاح الجهنمية لتصدر حكمها بإعدام اثني عشر بطلاً، على رأسهم الشهيد عبد الكريم الخليل.

● إلا أن الأمة العربية بأجمعها ثارت على ما اقترفته يد السفّاح، مما استثار حفيظة

الآستانة، فاستُدعيَ السفّاح إلى اسطنبول ليحضر اجتماعاً يتعلق بمهمته في بلاد الشام، يرأسه الوزير طلعت باشا الذي بادر السفّاح بالقول:

ـ يا جمال باشا.. إنك تضعنا في موقف بالغ الحرج، وإن حضورك إلى الآستانة اليوم لبحث هذا الأمر بنوع من التساهل قد يساعد على تخفيف الهجوم الذي تشنّه علينا صحافة الأعداء.. خفف من قسوتك يا جمال باشا!

ـ يا طلعت باشا، إنني مسؤول عن بلاد الشام، ولا أناقش مع أحد أسلوبي في العمل! هل ناقشتم أنور باشا في ما فعل بالأرمن؟ هل ناقشك أحد يا أنور باشا؟

ـ كلا، ولكن هؤلاء عرب يا جمال باشا.. ومسلّحون أيضاً!

ـ الجميع عندي سواء.. كلهم في قاموسي متمردون!

ـ يا باشا.. كم عدد المساجين لديك الآن؟

ـ لم أقم بإحصائهم، لكنني ألقيت القبض في ٢٠ نيسان/أبريل على ثلاثين متمرداً.

ـ لكن يا جمال باشا، أمامي كشفٌ بأسماء من قبضت عليهم.. كلهم من الشخصيات المرموقة.. مثلاً: عبد الحميد الزهراوي عضو مجلس أعيان! شفيق المؤيد عضو مجلس نواب! عبد الغني العريسي صحافي مرموق! رفيق رزق سلّوم من شعراء سورية اللامعين! عمر حمد من...

ـ [مقاطعاً بعصبية] أياً تكن مناصبهم أو مراكزهم في البلاد فهم متمردون! يكفي أنهم انخرطوا في حزب واحد ضد الدولة العلية!

ـ لكن الباب العالي تكرّم ووافق على قانونية هذا الحزب.. وصدر عفو عام في شأن ما سبق!

ـ كانت موافقة الباب العالي في ظروف حرجة معينة. أما الآن وبعد زوال تلك

الظروف، فمن حقنا أن نعدل عن ذلك وأن ننتقم من هؤلاء!

ـ إذاً، تريد الانتقام يا باشا وليس الدفاع عن حقوق الدولة العلية؟

ـ [في ضيق وعصبية] **يا طلعت باشا، أيها الباشاوات، إن لم تدعوني أعدم هؤلاء المتمردين، فإني أحمّلكم ضياع سورية وفلسطين ولبنان من أيدينا. . فماذا تقولون؟**

□ □ □

● وانفضّ الاجتماع بالخضوع لرأي السفّاح. . **وعاد جمال باشا ولعابه يسيل إلى** دماء الأبطال العرب!

ـ **أمرنا بتشكيل «ديوان حرب عرفي خاص» في عاليه للنظر في محاكمة المتهمين بخيانة الدولة العلية في زمن الحرب، على أن يعرض علينا الديوان نتيجة التحقيق والأحكام المقترحة.**

● يوم الثالث من أيار/مايو، حضر إلى مقرّ أركان الجيش في فندق فيكتوريا في دمشق، **المقدّم شكري بك**، رئيس ديوان الحرب العرفي، بعد أن تمت محاكمة المتهمين الأبطال. **جاء يحمل أوراقاً قدّمها لسيّده السفّاح.**

ـ **لقد انتهت محاكمة المتهمين وكوّنت هيئة الديوان فكرة واضحة وصريحة عن حقيقة القضية.**

ـ والأحكام؟

ـ ضمّنتُ هذه الأوراق أفكاراً عن الأحكام التي سنصدرها.

ـ هل لي أن أعرف مضمونها إجمالاً؟

ـ المحكمة عموماً مقتنعة بأن عدد من يمكن الحكم عليهم بالإعدام لا يتجاوز الثلاثة على أكثر تقدير!

ـ ألقِ بأوراقك هذه، فلستُ بحاجة إلى قراءة تحقيقاتك يا شكري بك!

ـ من المستحسن يا باشا أن تلقي نظرة على التقرير. فهو يُسلّط الضوء على الأحداث ويبرر الأحكام التي اقترحتها الهيئة.

ـ تحقيقكم هذا يا شكري بك لم يجرِ بالدقة الواجبة. فأخباره كانت تصلني أولاً بأول!

ـ أتعني يا جمال باشا أنك رصدتَ جواسيس على القضاة؟

ـ [ساخراً] قضاة؟ ومن قال إنك ترأس هيئة قضائية يا شكري بك؟ إنك رئيس هيئة عسكرية، ومهمّتك محددة.

ـ مهمّتي قضائية يا باشا. وأُلحّ على ضرورة قراءة التحقيقات لأنها تبرر الأحكام التي نقترحها.

ـ أرني قائمة الأحكام.

ـ ها هي.

ـ [ببرود] ماذا؟ براءة؟ براءة؟ براءة؟ شهران سجن؟ براءة؟ ثلاثة أشهر سجن؟ نفي إلى الأناضول؟ ما هذه الأحكام يا شكري بك؟ هل كانت التهم الموجهة إلى هؤلاء الأوغاد مخالفة تسعيرة الخبز؟ هات القلم الأحمر يا فؤاد.

ـ يا باشا، أتمنى لو. .

ـ لو ماذا؟ أكتب يا فؤاد: الأول: إعدام، الثاني: إعدام، الثالث: إعدام، الرابع: إعدام.

ـ [مقاطعاً] يا باشا، أرجوك أن تفكر في التاريخ . . ماذا سيكتب التاريخ عنا؟

ـ يا شكري بك، فليتحطم التاريخ على رؤوسكم جميعاً!

□ □ □

● لكن التاريخ قال كلمته في جمال باشا السفّاح، بل في السلطنة العثمانية برمّتها. وظلّ الباشا يحمل لقب السفّاح كلما ورد ذكره. بينما ترنّم أمير الشعراء أحمد شوقي بالأبطال الذين رووا حرية أوطانهم بدمائهم:

إذا سألتهُمُ الأوطانُ أعطوا دماً و أبناءً و مالا

تعلّق في ضَمائرهم صليباً وحلّقَ في سرائِرهم هِلالا

كأنَّ أسامي الأبطالِ فيهِ حواميمُ على رقٍّ تَتالى

بَني سوريةَ التئِموا كَيوم خَرجتُم تطلُبونَ بهِ النِزالا

غوبلـز..
انـتحر بعدما قتل أطفاله!!

● بعدما تأكد أيقن الدكتور غوبلز ــ وزير الإعلام في حكومة هتلر ــ أن اللحظات الحاسمة قد اقتربت، وأن برلين محاصرة من كل الاتجاهات، اتصل بزوجته طالباً منها الحضور إلى مقر عمله، واصطحاب الأطفال معها.

بعد فترة وجيزة، دخلت ماغدا وبناتها إلى حصن حُفر في الأرض، لا يربطه بالعالم الخارجي إلا مئات الأجهزة اللاسلكية، والحاسبات فائقة الدقة، التي احتفظ العلماء الألمان بأسرارها، فلم تكتشف إلا بعد سقوط الرايخ!

فوجىء غوبلز بوجود والدته مع زوجته وأطفاله. بعد أن قبّلها، قال لها:

«أنت في حلٍّ من البقاء معنا يا أمي. . !».

لكن الأم تستبد بها العاطفة المشبوبة، فترد عليه:

«لا . . لن أفارقك يا بول. وإذا كنت لا تحتمل أن ترى ألمانيا تحت أقدام الغزاة، وقررت الانتحار، فأنا أيضاً لن أحتمل ذلك. . ثم ماذا سأفتقد يا ولدي؟ عاماً

آخر، أو عامين على أكثر تقدير؟ لا يا ولدي، لن أغادر برلين. . ولكن بحق السماء، لا تُبق البنات معك».

فيجيبها:

«نحن على وشك أن نخسر الحرب يا أمي، والحلفاء لن يرحموا أحداً من ذريتنا. . سيرسلونهم إلى معسكرات الاعتقال، وسيذيقونهم عذاباً شديداً، بل سيقتلونهم ذلاً، وعاراً، ومهانة في كل دقيقة».

فتجيب الأم ولدها:

«إذاً دعني أغادر هذا المكان، شرط أن أصطحب البنات معي، وإلا فدعني أشارككم المصير النهائي».

● لم يجادل غوبلز والدته طويلاً، لكنه أمر بدسّ المخدر لها في الطعام، فنقلت، وهي تحت تأثير المخدر، إلى قرية قصيّة في غرب برلين، ثم حُجبت في مكان آمن أُعِدّ لها.

في هذه الأجواء القاتمة، المشخنة برائحة الموت والانتحار، عاش غوبلز عدة ساعات مع أسرته ورجاله الذين أحرقوا جميع الملفات والوثائق المهمة، وسرعان ما سجّل غوبلز حديثه اليومي الذي اعتاد أن يذيعه على الشعب الألماني. كان معروفاً عن غوبلز عبقريته في تطويع الأنباء التي تصب في مصلحة أهداف ألمانيا.

ما إن انتهى من بثّ حديثه، حتى قال للعاملين معه:

«لعلكم تدركون أن برلين لم تعد مدينة آمنة، وإنني بتوجيه من الفوهرر أحرركم من كل ارتباط عسكري. أما أنا وعائلتي، فسنتجه إلى حيث يعيش الزعيم هتلر، مع أخلص أتباعه في قبو المستشارية».

لكن نوبة من الحماسة والعاطفة انتابت الرجال، فردّ عليه بعضهم:

«لن نفارق هذا المبنى إلا جثثاً هامدة».

● وانطلقت سيارتا غوبلز به وبعائلته نحو المستشارية التي شهدت على مدى عشرة أعوام مجد الحزب النازي المهيمن على الرايخ الألماني.

ما إن يصل، حتى يتجه نحو مكتب زعيمه، حيث يجده ثائراً غاضباً على مَن يلحون عليه بالخروج من برلين. حالما رأى هتلر وزيرَ إعلامه غوبلز، بادره الأخير بالقول:

«إني أضم صوتي إلى أصواتهم يا فوهرر. فحياتك ثمينة وبقاؤك هنا ليس فيه مصلحة لألمانيا».

أما هتلر فيخبره أن مغادرته هذا القبو تعني نهاية ألمانيا، وبالتالي فإن مصيره سينتهي بين هذه الجدران!

إزاء هذا المنطق، لم يملك غوبلز سوى الإجابة:

«إذاً أيها القائد العظيم، سيشرفني، كما يشرف كل مواطن ألماني، أن أقرن مصيري ومصير زوجتي وأطفالي بمصيرك في هذا القبو».

فيحتضنه هتلر قائلاً:

«أرجوك أن تقبل آخر أمر أُصدره إليك، وهو أن تدع الصغيرات يرحلن الآن إلى مكان آمن، قبل فوات الأوان».

فينتفض غوبلز قائلاً:

«يؤسفني يا فوهرر أن تكون هذه أول وآخر مرة أعصى لك فيها أمراً».

● ضمّ القبو الجرماني الواقع تحت حديقة المستشارية اثنتي عشرة غرفة في الطابق الأول منه. أما الطوابق السفلى، فكان الفوهرر وأركان حربه يشغلونها.

وإذ اتّسم الموقف العسكري بالحرج، وبات سقوط برلين وشيكاً تحت ضغط هجوم الجيش الروسي، قال غودول لزعيمه:

«أنت تعرف أنني مقاتل مطيع؛ أتمنى أن تسلّمني قيادة الفرق في الجبهة الشرقية، وأن تصدر لي أوامر صريحة بالقتال حتى الموت. وإني أعدك بأن أمنع العدو من التسلل إلى برلين، فتستطيع الخروج من ألمانيا بمنتهى الطمأنينة».

يبدو أن اقتراح غودول لاقى استحسان الجميع، ما عدا هتلر، الذي ظهرت عليه ملامح الانزعاج، فصاح بهم:

«ما هذا أيها السادة؟ هل أفقدتكم الهزيمة عقولكم؟ أين شجاعة المقاتل الجرماني.. فلتعلموا جميعاً أنني لن أغادر هذا المكان، مهما حدث، إلا جثة هامدة، ولا أريد أحداً منكم أن يحدثني في هذا الأمر بعد الآن».

● سعت الطيّارة الألمانية الشهيرة حنا ريتشي إلى إقناع هتلر بمغادرة برلين على متن طائرتها، متوسلة:

«أقسم لك يا فوهرر أنه في استطاعتي أن أخترق الدفاعات الجوية كلها بطائرتي، حتى أوصلك إلى سواحل شمال أفريقيا حيث تنتظرك إحدى الغواصات التي ستنقلك إلى الأرجنتين».

لكن هتلر يصرّ على رفض الفكرة، أو البحث فيها، إذ أيقن وجوب مواجهة الهزيمة.

صفّق هتلر بيديه، كأنما يلفت انتباه الجميع، ليلقي عليهم كلمته الأخيرة.

شخصت الأنظار إليه يخطب فيهم:

«من يشأ مغادرة القبو فليفعل ذلك قبل فوات الأوان! وليس معنى ذلك أنكم تفرّون من مواجهة الهزيمة، إنما تفعلون ذلك من أجل الشعب الألماني، الذي يعيش معاناة محنة الهزيمة.. أما أنا فقد قررت الانتحار.. وأرجو ألا يحاول أحدكم أن يثنيني عن عزمي.. فلا يداخلكم أدنى شك في أن العدو يمنّي نفسه بالقبض علينا، وتلويثنا جسداً وروحاً بكل ألوان المذلة والمهانة.. ليس لدي ما أقول سوى أنني أريد إتلاف جثتي، وجثة إيفا براون، بحيث يغدو من المستحيل التعرف إلى الجثتين.. وإني أكلفك يا غوبلز بأمر آخر أرجو ألا تعصاه: أن تشرف بنفسك على حرق الجثتين بالكامل.. أدعوكم إلى عقد قراني الليلة على خطيبتي إيفا براون، ثم سنتبادل كلمات الوداع.. شكراً لكم على كل ما أبديتموه من إخلاص لحزبكم، ولأمتكم العظيمة».

● حالما عقد هتلر قرانه على إيفا براون، بدأ الحفل بتبادل الأنخاب. إنفرد غوبلز بمكتبه، ليكتب ورقة عثر عليها الروس إثر اقتحامهم النفق الهتلري. ومما جاء فيها:

«لقد أمرني الفوهرر أن أغادر وأسرتي برلين، وإني لأول مرة في حياتي أرفض طاعة أمر أصدره لي صديقي وزعيمي القائد هتلر.. لقد أيدني في هذا الرفض كل من زوجتي وبناتي.. ولو فعلت غير ذلك لكنت جباناً رعديداً خائناً، لا يُظهر الوفاء للرجل العظيم.. لذا سأبقى إلى جانب الفوهرر، ثم أتبعه وعائلتي إلى العالم الآخر».

□ □ □

● عندما حانت الساعة المتفق عليها ـ الثانية عشرة بعد الظهر ـ دخل هتلر إلى

غرفته، حيث كانت إيفا براون قد سبقته إليها. وما هي إلا لحظات حتى سمع كل من كان في القبو صوت الرصاصة القاتلة. دخلوا الغرفة فوجدوا هتلر ممدداً على الأرض: الرصاصة القاتلة التي أطلقها في حلقه أرْدته فوراً.

أما إيفا براون فآثرت الخروج من بوابة الحياة بابتلاع قرص صغير من سيانيد البوتاسيوم.

● وبينما كانت القنابل تنهمر على برلين، نُفّذت وصية الفوهرر بحرق جثته وجثة إيفا براون، في حديقة المستشارية. ولكي يتأكد غوبلز من انتحار زوجته ماغدا وصغيراته، طلب إلى الطبيب حقن الصغيرات الواحدة تلو الأخرى بحقن تجنّبهنّ آلام الموت. أما زوجته فحذت حذو إيفا براون.

● وإذ تأكد غوبلز من الأمر، أطلق الرصاص في حلقه، فتناثرت جمجمته .. كانت الرصاصة الأخيرة التي أُعلن بعدها عن استسلام برلين، فتوقف القتال، وامّحت النازية من سجلّ تاريخ ألمانيا، لتبدأ مرحلة جديدة من حياة الشعب الألماني، بعيداً عن الحروب، والقيادات الديكتاتورية، ليعم الرخاء والطمأنينة والحرية ..

الفصل الثامن

ألفريد ريدل ..
أخطر الجواسيس!!

● كان أخطر رجل في النمسا. . تخشاه فرنسا وإنكلترا وروسيا معاً!

الكولونيل ألفريد ريدل رئيس مكتب مكافحة الجاسوسية، الملحق بإدارة الاستخبارات السرية التابعة للإمبراطور النمساوي **فرانسوا جوزيف**.

يحسب له ألف حساب في روسيا. . في مكتب الكولونيل باتيوشين مدير مكتب مكافحة الجاسوسية الروسي، يدور هذا الحوار:

ـ يخيّل إليّ أن الوسيلة الوحيدة للتخلص من الكولونيل ريدل هي اغتياله. إننا نفقد جواسيسنا الواحد بعد الآخر في النمسا! هذا اللعين ريدل يشمّ الجواسيس كما يشمّ كلب الصيد الفريسة.

ـ إذا بدأنا لعبة الاغتيالات، يا كولونيل، فلن نأمن أن ينقلها النمساويون إلى بلادنا. تذكّر يا سيدي أيضاً أن القيصر نفسه ضد فكرة الاغتيالات.

ـ بالطبع. . وأوامره إليّ صريحة في هذا الشأن. . ولكن لا مفر من مخالفة

الأوامر بذكاء.. أريد ملفاً كاملاً عن ريدل.. لا تدعوا شاردة ولا واردة من حياته إلا ويكتب عنها جواسيسنا في فيينا وبرلين أكثر من تقرير.. إهتموا بكل شيء من تفاصيل حياته.. طفولته.. دراسته.. عيوبه.. علاقاته الخاصة بالإمبراطور النمساوي.. حالته المالية.. كل شيء! سنجد الثغرة التي ننفذ منها إلى هذا الرجل للقضاء عليه.

● واقع الأمر أن ألفريد ريدل كان أذكى مَن تبوّأ منصب رئيس مكتب مكافحة الجاسوسية في النمسا: ذكاءٌ خارق، قدرة فذّة على اصطياد الجواسيس، براعة نادرة في الإفادة على جواسيسه في الأراضي الروسية.

ضاق به الروس ذرعاً، وبلغ إعجاب إمبراطوره به أن قلّده أعلى وسام في الدولة، وألحَقَ المكتب بإدارة استخباراته الخاصة.

حياته صفحة بيضاء نقية، قلعة شهيرة الحصانة، عالية الأسوار، لا يمكن اختراقها بفضيحة أو برشوة. وكما قال الكولونيل باتيوشين خصمه اللدود في مكتب مكافحة الجاسوسية القيصري:

ـ هذا اللعين ريدل.. يشمّ الجواسيس كما يشمّ كلب الصيد الفريسة.

وصدق باتيوشين على الخصوص حين اشتمّ ريدل رائحة التجسس في هذه الشابة التي تتقدم بحقيبة ثيابها من جمرك الحدود النمساوية ـ الروسية.

ـ لا شيء في حقيبتك يا سيدتي يستحق أي رسوم.

ـ في استطاعتي إذاً أن أعبر الحدود بالقطار؟

ـ بالطبع، لكن أرجو أن تنتظري قليلاً ريثما ينتهي الموظف من تدقيق أوراقك.

ـ أوراقي صحيحة يا سيدي، لماذا تعطلني. لم أرَ في حياتي موظف جمرك بطيئاً وشكّاكاً مثلك أيها السيد.

ـ ذلك أنني حديث العمل في هذا المجال يا سيدتي. أعذريني. ما هي إلا لحظات ويمكنك بعدها العودة إلى القطار.

● كان ذاك هو الكولونيل ريدل في ثياب موظف بسيط في الجمرك.. مذ غادرت السيدة فيينا بالقطار وهو متربص بها في مقعد بعيد. قام شخصياً بتفتيش حقيبتها في الجمرك. لم يجد شيئاً.. لكن حاسّته الفريدة المتميّزة تؤكد له أن هذه الشابة جاسوسة تنقل معلومات فائقة الأهمية. قال لإحدى موظفات الجمرك:

ـ أنا الكولونيل ريدل رئيس مكتب مكافحة الجاسوسية.. وأنا على ثقة بأن هذه الشابة التي فتشت حقيبتها جاسوسة روسية.. لم أجد شيئاً في الحقيبة.. فأرجو أن تفتشيها بدقة في الغرفة المخصصة.

ولم تعثر الموظفة على شيء!

ـ مستحيل.. أنا واثق من أنها تنقل معلومات ثمينة.. إسمعي.. ألم تلاحظي ثوبها؟

ـ لا شيء يلفت النظر يا سيدي.

ـ الثوب رخيص.. ولكن الدانتيلا تثير الريبة. لا شك في أنك تستطيعين مساعدتي في هذا الشأن.

ـ أعتقد أنها فعلاً غالية الثمن جداً بالنسبة إلى الثوب الرخيص. «الجوب» من قماش زهيد الثمن، لكن الدانتيلا في ذيلها من أجود الأنواع.

ـ أريد أن أفحص هذه «الجوب» بدقة.. أعطيها «جوباً» غيرها.

● في غرفة مدير الجمرك، فصل ريدل الدانتيلا عن «الجوب» بمهارة.

ـ لا شيء سوى دانتيلا من أرقى الأنواع يا كولونيل. كيف يمكن أن تخفي السيدة الروسية شيئاً في هذه الخيوط الرقيقة؟

ـ مَن يدري.. من يدري؟

ـ خسارة أن تمزّق هذه الدانتيلا!

ـ ومن قال لك أنني سأمزقها؟ إنني أنشرها على المكتب.. ولو كنت يا سيدتي تعملين في مكتب خرائط الجيش وليس في جمرك الحدود، لأدركت على الفور أن هذه القطعة من الدانتيلا تساوي بمساحتها خرائط الجيش من طراز (١٦).. والآن قرّبي إلي التلفون يا سيدتي.

ـ أنا الكولونيل ريدل.. أريد أن ترسل إليّ على الفور كل خرائط نقاط حاميات الحدود من طراز (١٦).. كلها..

عن طريق فحص «الجوب» ومقارنة رسوم الدانتيلا بخرائط النقاط العسكرية على الحدود، أدرك ريدل أن الدانتيلا قد صُنعت بمهارة ودقة لترسم عدد نقاط الحاميات النمساوية على الحدود، بل عدد ضباطها وجنودها ومدافعها.. وثيقةٌ فنية بالغة الدقة، كان من المستحيل التوصل إلى سرّها، لكن ريدل كان بالمرصاد.

لم تتخلص النمسا من جاسوسة بالغة الخطر فحسب، بل من مصنع دانتيلا في فيينا، سِلعته الحقيقية رسم الخرائط العسكرية على دانتيلا ثياب الجاسوسات!

□ □ □

● كان باتيوشين يستشيط غضباً في موسكو.

ـ لقد أعدم ريدل لنا حتى الآن أكثر من ستين جاسوساً وجاسوسة.. أما هذه

المرة فقد حرمنا أيضاً من مصنع الدانتيلا. برات، أين ملف هذا الرجل؟ ينبغي التخلّص من ريدل بأية وسيلة.

وعكف باتيوشين طويلاً على ملف غريمه ريدل، يدرسه بعناية، والدهشة تستبد به مع كل تقرير.

ـ أمر غير معقول يا برات.. هذا الرجل أشبه بالقدّيسين.. لا خمر.. لا نساء.. لا مقامرة.. كيف ننفذ إليه؟ ألا يحتمل أن تكون له عشيقة يخفيها عن الناس جميعاً؟

ـ لقد طلبت إلى كل جواسيسنا، يا كولونيل باتيوشين، التأكد من هذه المسألة على وجه الخصوص.. الرجل نظيف تماماً.

ـ رغم أنه أعزب! لا أحسب أن في استطاعتنا شراء هذا الرجل بالمال! ما رأيك يا برات؟

ـ لا أعتقد أنه سيقبل الرشاوى.. تذكر أنه أعدم البارون كرامر حين عرض عليه رشوة مقنّعة بإهدائه قصره على الحدود الروسية ـ النمساوية.. ظل يطارده حتى اكتشف أنه أحد جواسيسنا!

ـ دعنا نغامر بسلاح المرأة.. هذا سلاح لا يخطئ.. إنتقِ له أجمل جاسوسة في الجهاز كله.. أعطها ما تشاء من أموال.. إذا لم ننفذ إلى حصون هذا الرجل بالمرأة الجميلة.. فلا مفرّ من اغتياله!

● وأرسلوا الكونتس سالماتيكر إلى فيينا.. سونيا سالماتيكر أجمل وأخطر جاسوسة في «الأزخرانا» الروسي (استخبارات القيصر الخاصة). ظلت تطارده في الحفلات التي تقام في قصور أشراف النمسا، وتُدعى إليها لجمالها وأناقتها واسمها اللامع.

دعته إلى شقتها مراراً؛ فلما أبى، زعمت أن لديها وثائق خطيرة. حين ذهب إليها ذات ليلة، كانت قد تجمّلت له بأفضل ما تتزيّن المرأة للرجل الذي تريد إيقاعه في غرامها.. استقبلته بثوب خليع يكشف الكثير من مفاتن جسدها.. قال لها ببرود:

ـ كونتس، أعتقد أنك ستصابين بالبرد لخفّة هذا الثوب.. لا تحمّليني هذا الوزر من فضلك.. أدخلي وغيّري هذه الثياب!

□ □ □

ـ مستحيل.. لم يستعصِ أحد على إغراء سونيا سالماتيكر.. هذا الرجل إما أنه قديس، أو وطني لا يتعذّر شراؤه..

ـ كولونيل باتيوشين، بماذا تكافئ من يضع يدك على الثغرة القاتلة في حصن حياة الكولونيل ريدل؟

ـ أطلب له من جلالة القيصر رتبة الكولونيل، ووسام القيصرة كاترين من الدرجة الأولى.. لا تقل إنك حقاً توصلت إلى شيء؟

ـ إلى شيء بالغ الأهمية.. لقد سافرت بنفسي إلى فيينا بعد فشل سونيا سالماتيكر.. راقبتُ ريدل مراقبة لصيقة.. تبعته أينما ذهب.. كولونيل باتيوشين.. لقد ارتكب ريدل غلطة سيدفع حياته ثمنها إذا علم بها إمبراطوره فرانسوا.. من هذه الثغرة سننفذ إلى الرجل.

ـ بحق السماء.. ما تلك الغلطة؟ تكلم يا برات!

ونطق برات بما لا يصدقه عقل:

ـ هل تذكر يا كولونيل باتيوشين حادث مصرع الأميرة الشابة ولهلمينا ابنة أخت الإمبراطور النمساوي فرانسوا جوزيف وزوجة الأمير البروسي فون أوفن؟

ـ لا أحد ينسى ذلك الحادث المحزن. . قُتلت المسكينة منذ عامين أثناء حادث سقوط عربتها في هوة في جبال الكربات. . ولم يعثروا على جثتها إلا بعد ثلاثة أيام وقد نهشتها الذئاب وشوهتها تماماً!

ـ الأميرة ولهلمينا لا تزال على قيد الحياة، وفي أتم صحة وعافية، وتزهو قوة وشباباً وأنوثة وجمالاً.

ـ أهذا معقول؟ والبيان الذي صدر عن القصر الإمبراطوري النمساوي معلناً مصرعها؟ والجنازة الرسمية التي شارك فيها سفراء دول أوروبا؟ أهذه كلها أوهام يا برات؟ قل كلاماً معقولاً!

ـ هذه هي الحقيقة!

ـ ولماذا كذب الإمبراطور فرانسوا جوزيف؟ هل دفنوا في مقابر أسرة الهابسبورغ تابوتاً فارغاً؟ ولماذا بحق السماء؟

ـ لم يكذب الإمبراطور. . كما أن التابوت لم يكن فارغاً، بل احتوى جثة الشابة التي عثر عليها في هوة جبال الكربات، وقد شوهت الذئاب وجهها، والتي أقر الجميع بأنها جثة الأميرة ولهلمينا.

ـ هل تعني أن الاستخبارات الخاصة بالإمبراطور النمساوي دبرت هذه المأساة لإحدى الشابات المجهولات كي تختفي ولهلمينا عن الأنظار مثلاً، لسبب لا ندريه؟

ـ أنت الآن قريب جداً من الحقيقة!

ـ ولماذا؟ من دبّر هذه التمثيلية المأساوية؟

ـ صديقنا الكولونيل ريدل.

ـ بأوامر من الإمبراطور فرانسوا جوزيف؟ لا يتورع هذا الإمبراطور عن قتل أقرب الناس إليه إذا تآمروا عليه. ألم يأمر بقتل ولي عهده الأمير رودلف حين تآمر عليه؟

ـ كلا يا كولونيل باتيوشين.. التمثيلية من إخراج رجل واحد هو الكولونيل ريدل، ولا يعرف بحقيقتها أحد سواه.. والأميرة بالطبع.. ولو علم الإمبراطور أن الأميرة ولهلمينا التي شيّع جنازتها على قدميه من الكنيسة حتى مدافن الأسرة، لا تزال على قيد الحياة، وتعيش في سرية تامة زوجةً للكولونيل ريدل، لأمر بإعدامه على الفور..

ـ [في ذهول] ماذا؟ الأميرة ولهلمينا تعيش مع ريدل؟ ولكنها إذا لم تكن ماتت، لا تزال زوجة شرعية للأمير فون أوفن!

ـ هذا هو سر الكولونيل ريدل! السر الذي نستطيع به التخلص منه نهائياً.

ـ لا أصدق.. هذا جنون.. ولماذا يرتكب ريدل هذه الزلة القاتلة!

ـ كان على علاقة عاطفية قديمة بالأميرة قبل زواجها.. فلما تزوجت من فون أوفن، دفعه اليأس إلى الاتفاق معها على ادعاء سقوط عربتها في هوة جبال الكربات.. لم تكن الأميرة في العربة ساعة سقطت.. كانت فيها شابة سجينة بتهمة سياسية.. ما إن سقطت العربة، حتى أطلق على الجثة بعض ذئاب الجبال الجائعة، فتشوّه الوجه تماماً كيما يتعذر التعرف عليها.. لا تنسَ أنه عبقري في أمثال هذه العمليات..

ـ يا للسماوات.. إذاً شيّعت النمسا كلها وسفراء الدول الأجنبية جنازة سجينة سياسية باسم الأميرة ولهلمينا!

ـ توارت ولهلمينا في دار بعيدة في غابات بافاريا.. ولما فترت الأحزان ونسي الناس الحادث الأليم.. تزوجها في إحدى كنائس كرواتيا.. واشترى لها داراً فخمة في دريسدن يتردد عليها سرّاً ثلاث مرات في الأسبوع.

ـ لا ريب في أنها تحبه بجنون، وإلا لما اشتركت معه في هذا التدبير الشيطاني! يا إلهي، كيف توصلت إلى هذه الأسرار يا برات؟

ـ يا كولونيل باتيوشين.. أنا تلميذك.. لقد راقبته ليل نهار على مدى الشهرين الماضيين!

ـ وقع ريدل في يدي أخيراً..

ـ رسالة سرية من بضع كلمات إلى الإمبراطور فرانسوا جوزيف.. وبعدها لن يفلت ريدل من التصفية الجسدية.. لن يرحمه الإمبراطور النمساوي رغم حاجته الماسّة إلى خدماته، والنجاح المذهل الذي حققه مع جواسيسنا في النمسا..

ـ كلا يا برات.. إن لدي مشروعاً أفضل بكثير من القضاء على ريدل!

ـ ماذا؟ كانت أمنيتنا أن نتخلص منه!

ـ وإذا كان ثمة ما هو أفضل؟ أين ذكاؤك يا برات؟ الآن وقد عرفنا سره فكيف يستطيع أن يرفض لنا طلباً.. سنرغمه على العمل لحسابنا.. أسرار الجيش النمساوي كلها في حوزته.. إما أن يطيعنا بلا مناقشة، أو نبلّغ إمبراطوره بحقيقة من يعيش معه في دريسدن..

● عقب أسبوعين من هذا الحديث بين الكولونيل باتيوشين ومساعده برات، وصلت هذه الرسالة بالبريد إلى الكولونيل ريدل، رئيس مكتب مكافحة الجاسوسية في فيينا:

«إلى الكولونيل ألفريد ريدل،

يهمني جداً أن أتبادل معك حديثاً على قدر كبير من الأهمية عمّن يقيم في دار معينة في مدينة دريسدن.. سأنتظارك في غرفتي، فندق المتروبوليتان، في فيينا، يوم الثلاثاء المقبل، عند السابعة مساءً..

إذا لم تحضر يا عزيزي الكولونيل ريدل، أو إذا نصبت لي كميناً، فسيتكفّل أصدقاء لي بإطلاع الإمبراطور فرانسوا على معلومات خطيرة جداً عن زواجك في كرواتيا».

□ □ □

● سافر الكابتن برات، مساعد باتيوشين، إلى فيينا، وأرسل إلى ريدل يطلب مقابلته!

بعد أن استلم ريدل الرسالة، قالت زوجته السرية:

ـ لو علم الإمبراطور بالحقيقة فلن يرحمنا. .

ـ لا مفر من ذهابي لمقابلة مرسل هذه الرسالة. . لا أشك في كونه من الاستخبارات الروسية.

ـ ألفريد. . سيعصرك هؤلاء الناس عصراً. . كيف بالله تقود عدوك باتيوشين إلى سرّنا؟

ـ لا ريب في أنني ارتكبت خطأً ما. . لم أكن حريصاً بما فيه الكفاية. .

ـ ماذا ستفعل يا ألفريد؟ سأنتحر إذا أبلغوا الإمبراطور بما حدث!

ـ إهدئي تماماً يا حبيبتي. . لم أعجز من قبل عن التعامل مع هؤلاء الناس. . ولن أعجز هذه المرة. . تقولين أنهم سيعصرونني عصراً. . حسناً. . أنا أيضاً أستطيع أن أعصرهم. سأذهب لمقابلة مندوبهم. . ولا تخافي يا حبيبتي.

● في غرفة فندق المتروبوليتان في فيينا، دخل الكابتن برات في صلب الموضوع كالنصل البارد. .

ـ بكل بساطة. . نطلب منك أن تعمل لحسابنا من مركزك المرموق. . وإلا. .

ــ لا داعي للتهديد. . فأنا أيضاً أملك ما أهدد به. . ولكني ببساطة أيضاً أقول لك إني أقبل العرض. بشروط. .

ــ لا نقبل أن تفرض علينا شروطاً.

ــ بل سيقبلها رئيسك باتيوشين إذا علم باستعدادي لقتل نفسي في أية لحظة. . لكنني لا أرى ما يدعو إلى إلحاق الضرر بأحد. . سأفيدكم شرط أن أستفيد بدوري.

ــ كيف؟

ــ المال، أولاً. ثانياً، أن تمدوني لقاءَ ما أمدكم به من معلومات عن الجواسيس النمساويين في روسيا، والمعلومات العسكرية السرية، بمعلومات مماثلة عن بعض جواسيسكم في النمسا.

ــ نُسلِّم لك رجالنا؟

ــ هذا في مصلحتكم. . فإنني إذا قبضت على بعض جواسيسكم الخطرين، تمادى نفوذي في الدولة، ولن يجسر أحد على الظن بخيانتي بلادي، وفي الوقت نفسه أنقل إليكم ما تريدون.

ــ سأعود إلى موسكو وأعرض شروطك على الكولونيل باتيوشين.

ــ لما كنت واثقاً من موافقته فإليك بياناً بعدد مَن أريد القبض عليهم من جواسيسكم في فيينا. .

ــ نريد أن نقبض على عدد مماثل من جواسيسك في روسيا.

ــ هذا منطقي. . والآن. . ماذا بشأن المال؟

ــ كم تريد؟

ــ لكل عملية ثمنها. . وأنا من سأحدد الثمن.

ــ عظيم. . ألديك ما يفتح شهية الكولونيل باتيوشين مؤقتاً؟

ــ بالطبع. . أنا لم آتك خالي الوفاض. . إليك المشروع التفصيلي لتحصين قلعة برزميل النمساوية على الحدود.

ــ من سوء الحظ أنني لم آت بمبلغ مناسب.

ــ لا بأس. . يمكنك أن ترسل إلي ما سوف أطلبه ــ هذا إذا وافق الكابتن باتيوشين على عرضي ــ أن ترسل النقود داخل مظروف إلى مكتب بريد فيينا الرئيسي.

ــ باسم من؟

ــ لا داعي للأسماء. . يكفي أن تكتب على المظروف «أوبرا ١٣ البريد المنتظر».

ــ حسناً. أسعدني التعامل معك يا كولونيل ريدل. .

ــ لا أسماء من فضلك منذ هذه اللحظة. . يكفي «أوبر ١٣١».

ــ صدقت يا «أوبرا ١٣».

● وُعقد بين ريدل وباتيوشين أعجب اتفاق.

□ □ □

ــ لا أصدّق يا ألفريد. . باتيوشين سلّمك حتى الآن ستة من أبرع جواسيسه. . كن حريصاً!

ـ لقد تقاضى الثمن يا عزيزتي. . أحد عشر جاسوساً نمساوياً في روسيا.

ـ من اللطيف على أي حال أنه يدفع بسخاء.

ـ بعد كل عملية أذهب إلى مكتب بريد فيينا، وأتسلم مظروفاً في البريد المنتظر باسم «أوبرا ١٣»، يحوي ما أطلبه من أوراق مالية نمساوية!

ـ ماذا يطلبون هذه المرة؟

ـ خطة تجنيد الفرقتين العاشرة والحادية عشرة على الحدود الروسية ـ النمساوية. .

ـ ألفريد. . كيف حصلت عليها؟

ـ يا عزيزتي. . أنا الآن أخطر رجل في النمسا كلها. . بعد أن قبضت على ستة جواسيس روس. . أسرار الدولة والجيش في يدي. . لا شيء يستعصي عليّ. . سأطالبهم هذه المرة بمبلغ كبير جداً!

● ومن العجب أن باتيوشين كان يخشى ريدل كما كان هذا الأخير يخشاه. . فإفشاء سر زواج ريدل معناه أيضاً محاكمة باتيوشين في روسيا بتهمة تسليم عدد من رجال الاستخبارات إلى مكتب مكافحة الجاسوسية النمساوي، وكانت تلك ضربة من ريدل. . أمسكَ برقبة باتيوشين كما أمسك هذا برقبته. .

ـ هيه؟. . ماذا يطلبون هذه المرة أيضاً؟

ـ بعد أن احتل الجيش النمساوي البوسنة، يريد الروس الآن معرفة كل خططنا العسكرية في الصرب. .

ـ ألفريد. . هذه خطط بالغة السرية. . هل تستطيع الوصول إليها؟

ـ بالطبع. . رغم أنها في مكتب القائد العام للجيش، البارون كونراد

هوزندروف. ولكن لا تخافي.. سأصل إليها.. وهذه المرة سأطالب باتيوشين بثروة حقيقية!

● كان من الممكن أن تستمر اللعبة إلى ما لا نهاية.. لولا تدخُّل القدر في هيئة موظفة صغيرة في مكتب بريد فيينا الرئيسي..

ـ هيه.. ما المشكلة هذه المرة يا روزينا؟ المغلّف الأصفر مرة أخرى؟

ـ أجل يا سيدي.. هذه المغلفات تثير شكوكي.

ـ روزينا.. إن عملنا هو تسليم البريد لأصحابه.. البريد المنتظر نضعه في الخانات الخاصة به حتى يأتي صاحبه ويتسلمه..

ـ بالطبع يا سيدي.. ولكن المغلفات الصفراء التي تحمل دائماً «أوبرا ١٣» تنتظر أحياناً أكثر من شهرين أو ثلاثة حتى يحضر من يتسلمها.. ألا يثير هذا الشكوك يا سيدي؟

ـ هذا يحدث أحياناً يا روزينا..

ـ بل نادراً جداً يا سيدي.. لا أحد يترك رسائله كل هذه المدة! وما يزيد شكوكي أن المغلفات تزداد سماكة مرة تلو الأخرى.. أنظر إلى هذا المغلف مثلاً.. تحسّسه أرجوك..

ـ هذا صحيح.. سميك فعلاً!

ـ كأن فيه أوراقاً مالية!

ـ ربما.. لقد أثرتِ شكوكي فعلاً يا روزينا.. بالطبع ليس من حقنا أن نفتح المغلف لنعرف ما محتواه.. الأفضل أن نذهب به إلى مدير هيئة البريد!

□ □ □

● ومن مدير الهيئة إلى وزير الداخلية.. الذي أمر بفتح المظروف.. فعثروا بداخله على مائة ورقة من فئة الألف كورون.. ثروة! أيقن وزير الداخلية ــ وكان مخطئاً ــ أنه أمام عصابة لتزوير الأوراق المالية النمساوية، وترويجها.. فصدرت تعليماته السرية التي أبلغت إلى رئيس مكتب البريد في فيينا!

ــ اسمعي يا بنيتي العزيزة روزينا.. لقد كنتِ على حق في ريبتك في المغلفات الصفراء.. أتعرفين ما الذي عثروا عليه داخل المظروف؟ مائة ورقة من فئة الألف كورون!

ــ يا إلهي.. مرتبي لمليون سنة!

ــ إنها عصابة لتزوير النقد النمساوي.. ويبدو أن مركزها مدينة كيسفادرا.. على الحدود الروسية ــ النمساوية، كما هو واضح من خاتم البريد هناك.. والآن مهمة ضبط العصابة ألقيت على كاهلنا.. على كاهلك أنت على وجه الخصوص.. قطعاً ستحصلين على مكافأة قيّمة!

ــ لن أحصل على شيء.. وأنا واثقة من هذا.. ليست هذه أول مرة يخدعوننا بحكاية المكافآت.. ما المطلوب مني تماماً؟

ــ لقد أعيد إغلاق المظروف بطريقة ماهرة.. وسنثبت في ركن خفي من مكتبك جرساً يتصل بغرفة يمكث فيها طوال فترة عمل المكتب، ضابطان من الشرطة السرية.. ما إن يأتي صاحب المظروف «أوبرا ١٣» حتى تضغطي على الجرس قبل أن تسلميه المظروف.. سيتكفّل هذان الضابطان ببقية المهمة.

ــ الأمر بسيط!

ــ المهم أن تتعاملي مع متسلّم الرسالة بطريقة طبيعية لا تثير شكوكه..

ــ إعتمد عليّ..

● قرابة الظهيرة، وقف رجل أربعينيٌّ، وسيم رشيق، بثياب مدنية أنيقة أمام شباك الآنسة روزينا موظفة البريد. .

ـ «أوبرا ١٣» من فضلك. . ترى هل لي رسائل عندك يا آنسة؟

ـ أعتقد هذا يا سيدي. . لحظة من فضلك. .

وضغطت على الجرس. . تمهّلت دقيقة، ثم سلّمت المظروف للرجل الوسيم الأنيق!

ـ أشكرك يا آنسة!

وانصرف مسرعاً!

● لماذا لم يتحرك الضابطان رغم أن الجرس دقّ مرات في الغرفة التي أعدت لهما؟ كانا قد غادراها أقل من خمس دقائق لشراء لفافة سجائر ومجلة اليوم. . ما إن عادا، حتى قالت لهما روزينا:

ـ أسرعا. . لقد غادر مبنى البريد منذ لحظات!

ـ يا إلهي. . إذا أفلت منا سلخنا وزير الداخلية أحياء. . أسرع يا شوفان!

ـ هيا. . هيا. . سنلحق به قبل أن يستقل سيارته أو عربة أجرة. .

● عندما بلغا باب المبنى، كان ريدل في سيارة أجرة تكاد تتوارى براكبها عند المنحنى البعيد من الشارع. . عبثاً حاولا اللحاق بها. .

ـ لقد ضعنا يا شوفان وأفلت الصيد!

ـ إذا لم نعثر على سيارة الأجرة فسأقدم استقالتي قبل أن نقدم إلى المحاكمة العسكرية. .

ـ تعال.. سنبحث عن تلك السيارة في كل فيينا!

ـ أنت مجنون دون ريب.. في فيينا أكثر من ألف سيارة أجرة على الأقل!

ـ لكن ثمة سيارة أجرة واحدة تحمل رقم ١٦٢٠. لقد التقطتُ الرقم قبل أن تختفي السيارة عند المنحنى.. هيا سنبحث عنها في كل مكان!

● وعثرا على السيارة رقم ١٦٢٠ بعد بحث مضنٍ دام أربع ساعات.. قال السائق مرحاً:

ـ السيد الأنيق الوسيم؟ الذي خرج من مكتب البريد الرئيسي؟

ـ أجل.. هل تعرف اسمه؟

ـ كلا..

ـ إلى أين أوصلته؟

ـ إلى فندق كلوستير.. يبدو أنه يقيم فيه.. وبالمناسبة، لقد نسي في المقعد الخلفي هذه المدية..

ـ هذه ليست مدية.. إنها فتّاحة مغلّفات..

ـ تماماً.. لقد رأيته في مرآة السيارة يفتح بها مغلفاً محشواً بالأوراق المالية.. يبدو أنه نسي الفتّاحة لفرحته بالنقود.. كنت أنوي أن أعيدها إليه لولا أن..

ـ هاتها.. سنتكفل نحن بإعادتها إليه.

● في مكتب استقبال الفندق، فحصا دفتر النُزلاء.. كلهم من الأثرياء ومن أصحاب الحيثيات والوظائف المحترمة الوازنة.. هل يُعقل أن يشترك أحد من

هؤلاء في عملية تزوير أوراق مالية؟.. مستحيل طبعاً!

ـ تصور! الكولونيل ريدل، رئيس مكتب مكافحة الجاسوسية، يقيم في هذا الفندق..

ـ والجنرال ريكنتوف أيضاً.

ـ لن نصل أبداً إلى صاحب المدية.. لا أمل يا زميلي.. لا أمل.

● كانت المدية/ الفتّاحة قرب سجل النزلاء حين اقترب منها ضابط برتبة كولونيل.

ـ أعتقد أن هذه المدية تخصني أيها السيد.. هل تسمح لي بها؟

ـ بكل سرور يا كولونيل.

ـ هل تعرفني يا سيدي؟

ـ وهل يخفى صاحب السعادة على أحد؟

ـ أشكرك.. أشكرك!

● وأسرع الضابط إلى التلفون..

ـ تصور يا سيدي الوزير.. إنه الكولونيل ريدل!.. من يصدق!.. أجل.. أجل.. أراهن على ذلك بحياتي.. نقبض عليه؟ سيدي.. إن.. أجل.. أجل.. سننفذ أوامر سعادتك على الفور..

● وألقي القبض عليه في غرفته في الفندق.. قبل أن تُوجه إليه تهمة تزوير الأوراق المالية، تسرّع واعترف بالخيانة.. وتفجّرت القنبلة.. أصدر الإمبراطور فرانسوا جوزيف أمره الحاسم.. قصد الضابطان غرفة ريدل حيث اعتقل بسرية تامة..

ـ سيدي الكولونيل، في هذا المسدس رصاصة واحدة. . أنت تعرف كيف تستخدمها دون ريب. .

ـ أجل. . لي رسالة إلى جلالة الإمبراطور. . رجاء أخير. . أن يكون رحيماً بالأميرة ولهلمينا.

ـ سأبلغ وزير الداخلية برسالتك يا سيدي.

● بعد لحظات، دوى الطلق الناري. . في اليوم التالي أبلغت وزارة الداخلية جميع الصحف النمساوية البيان المختصر عن «وفاة» الكولونيل ريدل على أثر نوبة اكتئاب مفاجئة. . انتحر الكولونيل ألفريد ريدل رئيس أركان حرب الجيش النمساوي في براغ!

□ □ □

● هكذا أدت خيانة ريدل النمساوي إلى القضاء على الإمبراطورية النمساوية. . وعجّلت خيانة خصمه الروسي باتيوشين بهزيمة الروس في تاننبرغ. .

أما مصير الأميرة ولهلمينا، فذلك سر لم يُكشف عنه بعد!

هيروهيتو..
حقن الدماء بالتنازل عن إمبراطوريته

● العقود الأولى في القرن العشرين تخللتها حربان عالميتان، فقدت اليابان أغلب ممتلكاتها، وسرح جيشها، واستولت أميركا على أسطولها ومعامل أبحاثها العلمية، بعدما هدمت مدنها ودمّرت مصانعها. كان طموح الحلفاء إزالة الإمبراطورية برمّتها عن طريق إطاحة الإمبراطور هيروهيتو.

□ □ □

● وحين احتدم الخلاف بين أعضاء مجلس الوزراء الياباني على أثر إلقاء القنبلة النووية الثانية على ناغازاكي، اقترح رئيس الوزراء سوزوكي الاقتراع على مذكرة توجو وزير الخارجية بقبول إعلان بوتسدام الصادر عن الحلفاء، الذي حظي بأحد عشر صوتاً لمصلحته، مع عدم المساس بجلالة الامبراطور، وأربعة أصوات ضده. وحينها قال سوزوكي لأعضاء مجلسه:

ـ القرار النهائي، أيها السادة، في يد صاحب الجلالة الامبراطور.

● ترأس الامبراطور الجلسة، وتكلم الجنرال أمين سرّه أكيدو.

ـ أمام كل منا ورقتان . . تحمل الاولى نص إعلان بوتسدام عن الاستسلام دون قيد أو شرط . . وتتضمّن الثانية اقتراحين محددين . . إقتراح صاحب السعادة وزير الخارجية الجنرال توجو بقبول الاعلان شريطة عدم المساس بصاحب الجلالة الامبراطور . . والثاني هو اقتراح الجنرال أنامي وزير الحربية ممثلاً لرأي زملائه العسكريين بقبول الاعلان بشروط أربعة.

● لأول مرة في حضرة الامبراطور تنطلق الأصوات الغاضبة . . . إنقضت ساعتان والجدال الحامي العصبي مستعر.

ثم توسّل سوزوكي رئيس الوزراء، راكعاً أمام الإمبراطور، والدموع تترقرق في عينيه :

ـ يا سيدي . . تكرّم علينا بما يجول في خاطر جلالتكم . .

فتكلّم الإمبراطور :

ـ أيها الأحباء، إن الموقف الداخلي والخارجي، من الناحية العسكرية، بالغ السوء . . وقد لا يؤدي فقط إلى خراب البلاد، بل إلى أحزان الشعب عامة. إن التأكيدات التي قدمها العسكريون كثيراً ما خالفتها الحقائق، فهناك فجوة كبيرة بين الخطط التي يرسمونها وبين تنفيذها في الميدان . . لهذا ومع فهمي مشاعر جميع المشاركين في هذه الجلسة، أجد نفسي مضطراً لطلب معونتكم بهدف إيقاف هذه الحرب وقبول مقترحات الحلفاء، والاعداد لمستقبل، لا شك في أنه سيكون قاسياً ومحزناً وطويل المعاناة!

أجهش الحضور بالبكاء. . وانفضّ الاجتماع. ونهض الجميع وركعوا أمام الامبراطور . . وارتفع نشيجهم . . ترقرقت الدموع في عيني الرجل الذي أصدر لتوه أخطر قرار في تاريخ اليابان. . ما إن غادر الإمبراطور القاعة حتى قال رئيس الوزراء سوزوكي:

ـ جنرال توجو، لنسرع إلى مبنى الرئاسة حيث يجب إبلاغ الحكومتين السويدية والسويسرية بالقرار الامبراطوري لتنقلاه بدورهما الى واشنطن ولندن. . سنذهب بعد ذلك الى السفارة الروسية لإبلاغ القرار الى السفير ماليك.

ثم التفت الى توجو:

ـ أتحسب أن العسكريين سيقبلون بالقرار ؟

ـ لا بد لهم من ذلك. بعدما تكلم الإمبراطور . .

ـ ما لمحته على وجه الجنرال أنامي لا يُطمئن . .

ـ لقد أصدر الامبراطور أمره، وعلى الجميع تنفيذه. .

ـ إنني أخشى على أنامي من أن ينحر نفسه . .

ـ أمامنا مهمة تنفيذ أوامر الامبراطور قبل أي شيء . .

● تلكأت واشنطن في الرد . . وأكدت يوميات ترومان أنه كان يفكر في إلقاء قنبلة ثالثة على طوكيو لولا أن تشرشل حذّره من مقاومة انتحارية يابانية، فعدل عن مشروعه . . وأذاع راديو سان فرانسيسكو البيان التالي: **«إن رغبة الحكومة اليابانية في الاستسلام يجب أن تتماشى وإعلان بوتسدام بعدم فرض أي شروط . . وعلى هذا فإن الحكومة الأميركية تعتبر ما أُبلغ لها عن طريق الحكومة السويدية استسلاماً غير مشروط . . من هذه اللحظة يصبح ذلك الاستسلام نافذ المفعول. . وبه تنتقل جميع سلطات إمبراطور اليابان وحكومته إلى القيادة العليا المتحالفة».**

● وأسرع سوزوكي بالبيان الأميركي إلى القصر، حيث قابله أكيدو مبادراً بالقول :

ـ لقد استمع جلالة الإمبراطور إلى البيان!

ـ وماذا قال ؟

ـ قال : ليذهب سوزوكي إلى القيادة العسكرية ليقنعهم بضرورة الالتزام بما جاء في الاعلان . .

والاجتماع في بيت الجنرال الثائر أنامي عاصف جداً. رجال الحرب في أوج حالات الانفعال! حماسة فرسان الساموراي تسيطر على الموقف كله . . رئيس الوزراء سوزوكي يدخل عليهم وهو يعلم أن مهمته ستكون صعبة بعد أن فاجأه أنامي :

ـ سنحارب بروح فرسان الساموراي . . سنحارب الى آخر رجل وامرأة وطفل في اليابان . . لا نقبل أن تدوس أميركا على تاريخنا كله بهذا البيان الأحمق!

ـ جنرال أنامي . . تذكّر أن جلالة الامبراطور قد قبل البيان!

ـ ولكننا على استعداد للموت في وقفة حاسمة ونهائية . .

ـ [في غضب] **أنامي . . لقد حاربنا لأربعة أعوام ولم نحقق أي نصر . . جلالة الامبراطور لم يعد يؤمن بتأكيدات العسكريين لتحقيق أي نصر . .**

هنا يتدخل أونيشي . .

ـ [في منتهى الحماسة]، **على العكس يا صاحب السعادة، سنقف وقفةً تعيد ذكريات الحرب الروسية في منشوريا . . إنني أعارض الحالات الانهزامية بشدة . .**

ـ أونيشي . . لا أحد يُنكر فضلك في إنشاء الفصائل التي هزمت الجيوش الروسية . . ولكنك أول من يدرك أن إغراق مدرعة أميركية واحدة أو حاملة طائرات واحدة يحتاج الى ثماني قاذفات وست عشرة طائرة مقاتلة . . فكم يلزمنا

من الجنود للتصدّي للجيوش والروسية الغازية على ثلاث جبهات؟ سنحتاج الى عشرين مليون جندي.

ـ الآن لدي على خطوط القتال مليونا جندي تغطيهم ثمانية آلاف طائرة . . هذة القوة كافية لتوجيه ضربة حاسمة لكل من يحاول غزو اليابان. .

ـ أيها السادة، تتكلمون وكأنكم نسيتم أن جلالة الامبراطور سبق أن بتّ الأمر.

يقاطع أنامي قائلاً:

ـ لو علم جلالة الامبراطور بالأفكار الجديدة لأمرنا بمواصلة القتال . .

ـ لا أظن!

ـ جنرال سوزوكي . . لماذا لا نذهب من جديد إلى جلالة الامبراطور. .

● مرة أخرى في القصر الامبراطوري، حيث تكلم الإمبراطور هيروهيتو:

ـ أرى الاستمرار في الحرب مستحيلاً . . وحتى إذا تابعنا القتال فسنضطر الى اتخاذ القرار نفسه بعد أيام قليلة . . هل فكرتم في آلام الشعب الياباني، إذا تابعت أميركا إلقاء القنابل الذرية؟ إنني أيها السادة أفكر في الشعب، ولا يسعني إطالة عذابه . . دعونا نطوِ هذه الصفحة، ونتعاون معاً في سبيل إعادة البناء، سنبني معاً يابان جديدة. . وأنا على استعداد لتقبل المصير . . أقول لكم يا أحبائي، أدوّن الآن نقطة النهاية لهذه الحرب بموجب السلطات الممنوحة لي . . متحملاً وحدي كل المسؤولية. .

● انتاب الجميع حالة من البكاء الأشبه بالنحيب. . ولم يتمالك الامبراطور نفسه فأخذ يبكي . . كانت مناحة جماعية. .

ثم عادوا الى بيوتهم، حيث انتحر الكثيرون منهم على طريقة الـ«هاراكيري» المقدسة، ما أثار فزع الامبراطور، فبادر بإرسال مندوبيه الى بيوت سائر المسؤولين ليبلغوهم برسالته . .

«ليست الشجاعة في هذه الساعات في الهاراكيري . . بل في البقاء لتحمل المسؤولية، ومساعدتي على حملها. . وهذا أمر».

□ □ □

● في ٧/ ١٠/ ١٩٤٥ أُعلن أن الإمبراطور سيوجه خطاباً إلى الشعب . . تجمع الناس في كل مكان . .توقف العمال عن العمل في المصانع . . التفّ الفلاحون حول الأعمدة التي نُصبت في الحقول وركِّبت عليها مكبرات الصوت . . توقفت القطارات . . إلى أن صدح صوت الإمبراطور. .

ـ رعاياي الطيبين المخلصين، لم تتطور ظروف القتال في مصلحة اليابان . . في الوقت الذي تتجه فيه أنظار الشعوب كلها الى عالم يسوده السلام . . أطلب إليكم أن تقبلوا قرار إنهاء الحرب بصبر الشجعان . . اتّحدوا أيها الأحباء . . إننا في حاجة الى قوة الاتحاد لبناء اليابان الجديدة. .

□ □ □

● عمّت أنحاء اليابان ظاهرة انتحار الهاراكيري. . وحين انتحرت زوجة رئيس الوزراء سوزوكي، قال أمام جثمانها :

ـ وددت اللحاق بك، لكن الإمبراطور قال : «سنبني معاً اليابان الجديدة».

بنجامين فرانكلين..
رجل العلم والثورة!!

● حين رقد رقدة الموت، اقترب منه الدكتور سامسون، وفي يده ورقة مطوية.

ـ كل شيء حسبما طلبته، يا سيدي . . هل تريد حقاً أن توقع على الوصية الآن ؟

ـ يا دكتور سامسون، دون أي تجاوز لمهارتك في الطب، أعتقد أن الوقت قد حان. . كيمياء الجسم، يا عزيزي سامسون، أصدق من نبوءات الأطباء. .

ـ سيدي . . أمامك أعوام أخرى كثيرة . . إنما هو برد بسيط . .

ـ بل هو مرض الموت يا سامسون، لقد أحسست بهذا منذ أربعة أيام، رغم كلماتك المشجعة، لهذا طلبت تحرير الوصية . . أهي جاهزة يا سامسون ؟

ـ ها هي يا سيدي، لا ينقصها إلا توقيعك . .

ـ حسناً . . سنرى اذا كنتُ قادراً على توقيعها بالثبات نفسه حين وقعتُ على وثيقة إعلان استقلال بلادنا في الرابع من تموز/ يوليو عام ١٧٧٦ . .

وقّع، ثم ذيّل التوقيع بهويته: بنجامين فرانكلين.

من منصب خطير إلى منصب آخر أخطر. . توالت عليه الألقاب:

١ ـ دكتوراه في الكيمياء والطبيعة وعلوم الفلك.

٢ ـ محرر وثيقة استقلال الولايات المتحدة الأميركية.

٣ ـ كاتب مسوَّدة الدستور الأميركي.

٤ ـ سفير بلاده في فرنسا في أحلك ظروف حرب الاستقلال.

٥ ـ مؤلف العديد من كتب فلسفة الثورات، وأشهرها كتابه الفذ ريتشارد المسكين.

٦ ـ حاكم ولاية بنسلفانيا والصديق الشخصي لكل قادة الثورة الأميركية.

قال عنه صديقه جفرسون:

ـ كان بن فرانكلين يدافع عن وجهة نظره باقتناع كامل . . وعكف على كتابة مقالات كثيرة حافلة بالحِكم، حتى أطلق عليه القراء لقب الفيلسوف، وهو بعد شاب في الرابعة والعشرين، ولم تلبث أن نبتت في رأسه فكرة جميلة عن شاب تفلسف في سن مبكرة فأثبتها على الورق . . سمّى صاحبها ريتشارد المسكين. . وتداول الناس الحِكم التي كان ينطق بها الفيلسوف الصغير ريتشارد.

* التبكير بالنوم، والتبكير بالاستيقاظ، يجعلان الإنسان صحيحاً، وغنياً، وحكيماً.

* اذا أحسنت مرة إلى الناس، فقد أحسنت إلى نفسك مئة مرة.

* ليس للجمال، وللقوة، وللثروة، وإن عظمت كلها، فائدة كبيرة في الحقيقة، فالقلب الكبير الطيب يفضلها جميعاً.

* قد يكون الجهل عيباً، ولكن شر العيوب كلها هو العزوف عن التعلم.

* الكذبة تقف على قدم واحدة، أما الحقيقة فتقف على قدمين!

* لا تسرف في الوعظ مع جائع!

● رحلة طويلة تلك التي قطعها فرانكلين، لم تكن بدايتها تبشر بخواتيمها. كتب في يومياته:

ـ «كل شيء في بلادنا لم يكن يُبشر بأي خير . . كنا إحدى مستعمرات بريطانيا . . كل شيء في حياتنا يختم بخاتم بريطانيا . . محاصيلنا تباع في أسواقها لحساب كبار التجار البريطانيين . . الضرائب على الفلاحين والحرفيين والتجار، تُفرض من البرلمان البريطاني رغم أنوفنا . . تلك هي صورة البداية».

وكتب في مكان آخر:

ـ «بوسطن مدينتي صارت مركز النشاط ضد الاستعمار البريطاني وموطناً من مواطن الثورة الأميركية.

كان أبي طبّاعاً . . ولا عجب أني ترعرعت في مطبعته . . الحقّ أن أبي كان صاحب المطبعة الوحيدة في بوسطن . . كان عملنا رائجاً، وأرباحنا كثيرة . . **فالحاكم يثق بأبي ويقول له في كل مناسبة:**

ـ لقد أحسنت يا فرانكلين بالإفادة من إقامتك في لندن إذ أتقنت فن الطباعة البريطانية.

كان الحاكم على صواب، فلا أنكر أن أبي كان سعيداً في زواجه من بريطانية، فحاز ثقة الحاكم البريطاني . . وأذكر أنني سمعت أبي يقول لأمي ذات يوم :

ـ من نعم الله على هذه الولايات يا ديانا أنها الابن البكر لبريطانيا العظمى. غالباً ما ردّد والدي أننا رعايا بريطانيون ويجب أن نحمد الله على هذا!

أنا نفسي كدت أن أقتنع بهذا الرأي في أول شبابي، لكن حادثاً وقع بيني وبين أخي الأكبر جيمس، جعل الأمور تأخذ طريقاً آخر في ذلك الإيمان. . اذ سافرت على أثر الخلاف الى فيلادلفيا، ولم أكن يوماً ممّن تهزّهم الصدمات.

اتجهت الى الفندق الذي راقني اسمه بحروف ملونة: «فندق السعادة». قابلتني صاحبته ببسمة مشفقة، وقالت :

ـ هه ؟ من أي جحيم جئت إلينا ؟

ـ من بوسطن يا سيدتي.

ـ ما اسمك ؟

ـ بنجامين فرانكلين يا سيدتي.

ـ [ضاحكة] **سيدتي!؟ إنك تكرر هذه الكلمة عن عمد في ما أظن . . أليس كذلك ؟**

ـ أبداً يا سيدتي . . لقد اعتدت أن أخاطب السيدات بهذا . . يا سيدتي . .

ـ سيدتي، إذاً؟ حسناً . . هذا لقب جميل رغم صدوره من شاب في هذه الأسمال البالية . . سأعطيك سريراً لليلة واحدة، ولن تبقى في الصباح ساعة واحدة، حتى لو قلت لي ألف ألف يا سيدتي!

ـ سيدتي. . إنني لا أطلب صدقة. سأدفع ثمن إقامتي.

ـ ومع هذا فستترك غداً!

ـ ولماذا لا أبقى حتى أجد عملاً يا سيدتي ؟

ـ لماذا ؟ . . سأقول لك لماذا . . ما دمت تصّر على هذا . . اقترب . . [همساً] ستغادر البيت في الغد لأنه بيت غير محترم . . أفهمت ؟ والآن اصعد ونم . . وفي الصباح اذهب لتبحث عن عمل. .

ـ أشكرك يا سيدتي . .

ـ بنجامين! لم يبقَ إلا أن أتنازل لك عن الفندق ثمناً لهذه الكلمات الرقيقة . . ألم تدرك بعد مهنتي ؟

ـ أدرك أنك أرقّ وألطف سيدة عرفتها بعد أمي.

ـ يا إلهي، ماذا أفعل مع هذا الفتى الظريف . .إسمع يا فرانكلين ماذا تجيد من الأعمال غير كلمة سيدتي؟

ـ إنني طبّاع. . طبّاع ماهر يا سيدتي . .

ـ طبّاع ؟ إذن سأجد لك عملاً عند السيد كيمر أحد أصدقائي . . هل تعرفه ؟

ـ كلا.

ـ ستعرفه في الغد! .

وكتب فرانكلين في مذكراته أيضاً :

ـ «وعملت مع السيد كيمر بنجاح وإخلاص، ما جعله يرسلني إلى بريطانيا، بعد فترة، كي أعمل على توسيع مشاريعه في مضمار الطباعة.

● مكث فرانكلين في لندن ثلاثة أعوام، حيث اكتسب خبرة .. ثم عاد الى فيلادلفيا وأنشأ أول صحيفة مستقلة، لا تعتمد على إعلانات الحكومة ولا على طباعة أوراقها الإدارية.

غدت صحيفة بنسلفانيا غازيت موضع احترام الجميع . وصار فرانكلين يستقبل في دار الصحيفة كبار رجال الحركة الثائرين على السياسة البريطانية.

في تلك الفترة عكف على تنمية مهاراته العلمية، فخاض تجاربه الأولى في مقاومة الصواعق .. قال له أحد أصدقائه يوماً :

ـ ما أبعد الفرق بين السياسة والصحافة والصواعق!

ـ هكذا قالت لي زوجتي ديبورا، التي ما فتئت تطالبني باعتزال الصحافة والتفرغ للعلوم ..

ـ بنجامين إنك في الأربعين! أيعتزل الناس العمل السياسي والصحافي في هذه السن وقد قلت لي يوماً إن الصحافة هي كل حياتك ؟

ـ يجدر بي أن أدع الميدان لغيري من الشبان. لقد شهدت الأعوام الماضية صواعق كثيرة أحرقت عدداً كبيراً من البيوت، ويجب أن أضع لها حداً ..

● أنجز بنجامين فرانكلين تجاربه المشهورة التي أثبت من خلالها أن الصواعق ليست إلا ظواهر كهربائية، وأن في الإمكان الوقاية منها باستعمال مانعات الصواعق التي تمتص الشحنة الكهربائية من الصاعقة وتهدر قوتها في الأرض.

جرى تسجيل أكثر من عشرين اختراعاً لفرانكلين، آخرها رصد العواصف والتيارات البحرية المدمرة قبل وصولها إلى الشواطئ .

كاد أن ينسى السياسة وهو منكبٌّ على العلوم، إلاّ أن جورج واشنطن رجل الثورة الأميركية الأول أرسل إليه :

ـ نحن على أبواب نهضة ضخمة، وفي أمسّ الحاجة إلى جهدك يا بن . .

● بحماسة قلّ نظيرها خاض غمار السياسة، فارتقى الصف الاول مع رجالات الثورة الأميركية . . وقام بمهمات خارجية جعلت من استقلال أميركا حقيقة واقعة، منها، على سبيل المثال، جعل بنسلفانيا ولاية أميركية، بعد الاتفاق مع فرنسا . . كل هذه الأحداث وغيرها دفعت جورج واشنطن إلى تكريمه، عندما قال له :

ـ سأرشّحك حاكماً على ولاية بنسلفانيا التي تحبها، والناس هناك يريدونك . .

ـ سيدي، أنا طاعن في السن، أحتاج الى الراحة . . فأنا في الثمانين!

ـ وأنا في السبعين . . أرجوك يا بن أن تقبل تكريمي لك بهذا المنصب . .

● فضلاً عن ذلك، كرمته الدوائر الأميركية المختلفة بعد أن جعلت صورته تحتل مكانها على الورقة المالية من فئة المئة دولار، رغم أنه لم يتولّ الرئاسة الأميركية.

الفصل الحادي عشر

مدام كوري..
حازت جائزة نوبل مرتين!!

● في الرابع من تموز/يوليو عام ١٩٣٤، خرجت من مصحّة سانسلومور في سويسرا نشرة طبية دوّى صداها في العالم كله، لما احتوته من خبر محزن، جاء فيه :

«إن السيدة ماري بيير كوري، توفيت مساء اليوم بسبب إشعاعات الراديوم».

● قتلها الاكتشاف الذي قضت سنيّ حياتها لتقدمه هدية للبشرية.

ولعلّ قصة هجرتها من بولندا الى فرنسا أشبه بأحداث رواية بوليسية. عُرفت بجديتها، وانكبابها المفرط على الدراسة .. لم تكن تعتني بصحتها، وكان يُغشى عليها أثناء الدراسة والعمل، ما دفع شقيقتها أن تقول لها مرة:

ـ لن أسمح لك بعد اليوم أن تكوني وحدك في المعمل. ماذا لو أُغمي عليك وفي يدك أنبوب حامض الكبريت؟ أليس هذا جنوناً؟ هيا يا ماري اجمعي ثيابك، واصحبيني الى منزلي لتقيمي معي ..

ـ أرجوك . . لا تطلبي مني أن أذهب معك. سأعيش في هذه الغرفة الصغيرة، التي تضم الأجهزة التي أُجري بها تجاربي العلمية، رغم الرطوبة والأجواء الملوثة. . آسفة يا كلوديا . . سأبقى في غرفتي مع كُتبي ومعملي وأبحاثي.

□ □ □

● رغم الظروف الاجتماعية والمادية والنفسية الضاغطة، لم تكن ماري تبالي. . فحربها الحقيقية كانت مع عدو آخر. . إنه المرض . . ولكن أي مرض ؟ لم تكن تعرف اسم العدو الذي أعلنت عليه حربها. فمنذ أول يوم دخلت فيه جامعة السوربون، تحديداً معمل باستور الواقع في منطقة سان ميشيل، وهي تعيش في حالة من التقشف . . لم تكن تشعر بالبرد أو الجوع، كانت تكتب المعادلات والأرقام والملاحظات العلمية بيد مرتعشة وأصابع متجمدة، وكانت تكتفي بالخبز والزبد والشاي طعاماً لأيام، بل لأسابيع!

وبينما كانت مرّة تهمّ بدخول المعمل، سمعت من يقول لها :

ـ آنسة سكلودويسكي . . أليس في رأسك غير العلم والمعمل والأبحاث؟

ـ بل في رأسي بولندا . . بلدي التي أعشقها . .

ـ علمتُ أنك تحتفظين في غرفتكِ بخريطة كبيرة لبولندا . . هل تسمحين لي بإلقاء نظرة عليها؟

ـ لا مانع عندي . . ولكني أحذرك من الآن. . قد لا تروق لك غرفتي.

واصطحبته إلى غرفتها. . فسَّر البعض ــ في ما بعد ــ أن الشابة البولندية قد نصبت فخاً للأستاذ الفرنسي بيير كوري، للحصول على جنسية بلده. لم يلبث هذا التفسير أن قُدّم كأحد الأدلة في قضية رفعتها «زوجة مهجورة» على العالمة

البروفيسورة الشهيرة مدام كوري، تتهمها بالفجور والانحراف الخُلقي، واختطاف رجل متزوج . .

□ □ □

● والعجيب أنه رغم مؤشرات الفقر المدقع في غرفة ماري، فإن بيير كوري ابن الخامسة والثلاثين، رأى فيها غرفة رائعة بصاحبتها الشابة الرقيقة الخجول، المعروفة بترددها وخوفها إزاء عالم الرجال.

توالت زيارات بيير كوري الى غرفة ماري، كما انتشرت معها الشائعات، إلى أن فاجأها يوماً قائلاً :

ـ ماري . . أتمنى لو تقبلينني زوجاً لك. . لا تقولي في خضمّ المشاعر بيننا إنه طلب مفاجىء.

ـ كلا يا بيير . . كنتُ أتوقع أن يكون ذلك الطلب محصّلة نهائية للمعادلة . . حبٌّ من طرف، وحب مماثل من طرف آخر . . المحصّلة الزواج . . حسناً دعنا نُسجل هذه المعادلة في الكراسة . .

ـ بل سأكتبها بنفسي على خريطة بلادك: الخميس ١٢ تموز/يوليو عام ١٨٩٥ تزوّجتْ ماري. . ما رأيك. . ؟

ـ [بسعادة عارمة] معادلة صحيحة لا ينقصها سوى التوثيق والإشهار، بعد أن تذهب الى والديك وتزفّ إليهما الخبر.

□ □ □

● الجملة التي كتبها بيير كوري على خريطة بولندا استُخدمت في المحكمة ضدَّ مدام كوري، على اعتبار أنها تتماشى والشائعات . . لأنه كتب: (تزوّجتْ)، فعل ماضٍ، استدلت عليه النيابة بما سمته انحرافات مدام كوري، وتهتكها الخلقي قبل الزواج.

وأياً تكن الحقيقة، يُعدّ زواج بيير كوري من ماري من أنجح الزيجات بين العلماء، رغم ما يشوبه من عدم تكافؤ، فهي مهاجرة فقيرة بلا هوية معترف بها من الحكومة الفرنسية، وعلى أوراقها جملة مفادها:

«مهاجرة بولندية . . طلبت الجنسية الفرنسية، ولا يزال طلبها قيد البحث» . .

أنكر بعض خصومها، أثناء محاكمتها، الحب الذي أدى الى زواجها. كانت مذكرة النيابة في مرافعتها في تلك القضية تقول :

«كان الهدف الحقيقي للبولندية من استضافة الأستاذ المرموق المرحوم بيير كوري في غرفتها المنعزلة في كلية العلوم ليلاً، من دون رقيب، إنما هو خطة لاصطياد زوج تحصل من خلاله على الجنسية الفرنسية . . كان بيير كوري يعمل في مجال الكيمياء . . بينما البولندية كان مجالها الكهرباء . . مجالان متنافران كقطبي مغناطيس . . ولكنها من أجل الاقتران بالرجل نقلت نشاطها بالتدريج الى مجال نشاطه».

ويوماً تلو آخر، أخذت ماري تتفاعل مع مجالات دراسة زوجها (الكيمياء). كانت سعادة الزوج لا توصف، خصوصاً عندما رأى المحبوبة الصغيرة تجري تجارب ناجحة على أملاح اليورانيوم. وها هي تقترب اقتراباً خطيراً ومدهشاً من الوصول الى الراديوم، الذي استفادت البشرية كلها من إشعاعاته . .

شهور طويلة تمر عليها في المختبر الرطب المعتم شتاءً، والخانق صيفاً، وهي تعمل مرتدية تلك الملابس الرثة الملوثة بالأحماض، يحيط بها الدخان الكثيف من كل جانب . . تحرّك على النار بعض المواد بقطعة من الحديد، وعندما تجلس وراء مكتبها في الليل، تكتب في مذكراتها :

ـ أجرّب تقريباً كل المواد التي أتوقع أن تُصدر نشاطاً إشعاعياً . . الحجرة مليئة بأوعية السوائل والمحاليل والرواسب، لقد أجهدني حمل تلك الأوعية، وتحريك

المواد المنصهرة، غير أن كل جهد يهون إزاء النظرة الحانية الرقيقة من الحبيب بيير . .

ذات يوم، بينما كانت ماري منهمكة في تجاربها، لم تتمالك نفسها من الصراخ :

ـ بيير . . نجحنا يا بيير . . انظر . . ها هي عشرة غرامات من العنصر المُشعّ . . أنظر إليه ما أجمله! إنه كالثلج!

□ □ □

● عقب تحقيق انتصارهما العلمي، وقف بيير أمام زملائه في كلية العلوم وبجانبه زوجته ماري.

شرع يشرح لهم طبيعة العنصر الجديد الذي تم اكتشافه.

ذاع صيت ماري وبيير كوري في العالم أجمع . . أخذت الهيئات العلمية والأكاديمية تتنافس على تكريمهما . . وانهالت عليهما عروض كثيرة من الشركات الصناعية في أوروبا وأميركا، كما انهالت عليهما ألقاب الشرف العلمية . . بات بيير كوري مرشحاً لعمادة كلية العلوم في الجامعة، لكن الأقدار لعبت دورها . . فأثناء محاولة بيير كوري عبور الشارع، دهمته عربة فسقط بين قوائم جوادين، وإذا بالعجلة الخلفية تسحق جمجمته . . فتناثر الدماغ العبقري على حجارة الشارع.

□ □ □

كتبت مدام كوري في مذكراتها :

ـ عرضوا عليّ يا حبيبي أن أخلفك في مقعدك الجامعيّ . . ولستُ أدري هل أصبتُ أم أخطأتُ ؟ لكن هدفي أن يبقى اسمك كوري رمزاً للمحافل العلمية.

□ □ □

غدت مدام كوري من أشهر النساء بعد أن حازت جائزة نوبل للعلوم: عن فئة الفيزياء (عام ١٩٠٣)، وعن فئة الكيمياء (عام ١٩١١). من مآثرها أيضاً إنشاء معهد الراديوم، ومعمل للأبحاث البيولوجية لدراسة مرض السرطان.

وهي طريحة الفراش في سويسرا، كتبت التالي :

ـ حبيبي بيير . . كم أتوق الى أن أرقد بجوارك . . فمتى يكون ذلك يا حبيبي؟ بعدما حققتُ أمنيتك بإنشاء معهد لعلاج مرض السرطان، وأسستُ فيه معملاً كبيراً ونظيفاً تحقيقاً لأمنيتك . . بتُّ أشعر باقتراب أجلي للّحاق بكَ . . فأنا متعبة يا بيير . .

هيس، نائب هتلر..
يبحث عن السلام!!

● عام ١٩٤١، أجهض الإنكليز مغامرة مثيرة كان يمكن، لو أتاحوا لها فرصة النجاح، أن تُنقذ العالم من أتون الحرب العالمية الثانية!

ففي العاشر من أيار/مايو عام ١٩٤١ شوهدت طائرة ذات محركين من طراز «إم. إي ١١٠ مِسِرشميت» تقترب من الشواطئ البريطانية.. القمر بدر، والليل ساجٍ، والطيار في مقعد القيادة لا يبدو عليه القلق ولا الاضطراب.. ومع هذا، هو ألماني، بل هو الرجل الثاني في الحزب النازي: إنه رودلف هيس، نائب هتلر!

يخفّف السرعة.. وتنفجر حوله بعض قذائف المدافع المضادة للطائرات. ولكنه يستمر في مساره نحو شواطئ الجزيرة المعادية!

مما قاله لاحقاً:

«كنت أنوي إنقاذ الإنسانية كلها من الانتحار، بتعريض نفسي للخطر في هذه الطائر، لإنهاء الحرب مع الإنكليز».

السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كان هتلر، أو تشرشل، على معرفة بهذه الرحلة؟

يقول:

ـ لا.. لا دخل لهتلر ولا لتشرشل في هذا الأمر.. هتلر لن يقبل أبداً أن يمدّ يده، وهو المنتصر، لتشرشل المتعجرف.. وتشرشل أيضاً أعلن مراراً في البرلمان أنه لا صُلح إلا باستسلام ألمانيا بلا قيد ولا شرط..

لهذا لم يحدث أي اتفاق بيني وبين تشرشل على هذه الزيارة.. إنما اتفاقي كان مع الدوق هاملتون عضو مجلس العموم في الحزب المعارض، ونائب القائد العام للقوات الجوية البريطانية.. لأنني أعرفه معرفة جيدة.. جرى الاتفاق بيني وبينه عن طريق وسيط في لشبونة.

□ □ □

● كان هيس يحاول الهبوط في أقرب مكان من قصر الدوق هاملتون.. كانت وحدة الرادار التابعة لقوات حرس الشواطئ تتابع الطائرة منذ اللحظة التي اخترقت فيها الأجواء البريطانية.. خاصة أن الطيار لا يحاول ولو بالحدّ الأدنى الارتفاع بعيداً عنها، أو زيادة سرعته..

فور ظهوره على الأجهزة، تم الاتصال بالدوق هاملتون، بوصفه القائد المسؤول عن المنطقة.. أُخطر بوجود الطائرة، فقال:

ـ لا بدّ من وجود خطأ ما يا كولونيل! من المستحيل أن تتمكن طائرة من طراز مسرشميت من اجتياز المسافة من ألمانيا إلى شواطئنا! هذه طائرة مقاتلة قصيرة المدى.

ـ لا خطأ يا سعادة الدوق.. لقد تتبّعناها منذ اختراقها أجواء شواطئنا..

ــ ما مدى ارتفاعها وسرعتها الآن؟

ــ ٣٠٠٠ قدم، بسرعة أربعة أميال في الدقيقة!

ــ عجيب! الطيار مجنون دون ريب.. إنه يعرّض نفسه لقذائفنا عن عمد.. وهذا غير معقول!

ــ في استطاعتنا أن نُسقطه في أي لحظة يا سعادة الدوق..

ــ أين هو الآن على وجه التحديد؟

ــ أقرب ما يكون إلى قصر سعادتكم.. على بعد ميلين من إيغلشام قرب طريق ميرن..

ــ عجباً! ماذا يريد من منطقة القصر؟

ــ هل نُسقطه يا سيدي؟ في استطاعتنا أن.. [مستدركاً بسرعة] انتظر يا سيدي.. لقد جاءتني مكالمة عاجلة من إيغلشام مفادها أن الطيار قفز بالمظلة بينما هوت الطائرة نحو الأرض..

ــ حسناً.. لا تدعوه يفرّ.. اقبضوا عليه ثم أبلغوني!

□ □ □

● يقفز هيس من المظلة ويخلّص نفسه منها بصعوبة.. بينما انغرست مقدمة الطائرة في حقلٍ من حقول الكرنب! فهذا النوع من الطائرات لا ينفجر عند اصطدامه بالأرض.

أقبل أحد الفلاحين.

ـ هيه. . أنت؟ ماذا حدث؟ أنت لست إنكليزياً؟!. . من أنت؟

ـ لا تجزع يا صديقي. . أبحثُ عن قصر الدوق هاملتون. . جئتُ من ألمانيا في مهمة على أكبر درجة من الخطورة. . اطمئن تماماً. . أنا بمفردي. ولستُ مسلّحاً كما ترى.

ـ قصر الدوق ليس بعيداً. . ولكنك مصاب في قدمك. . تعال إلى بيتي. . من المناسب أن أقدّم لك فنجاناً من الشاي. . ما اسمك أيها الطيار؟

ـ ألفريد هورن. حين نصل إلى دارك، تكرّم بالاتصال بالمسؤولين وأبلغهم أنني أريد مقابلة الدوق هاملتون!

□ □ □

● إنها جرأة مثيرة من هيس، وبرود إنكليزي مثاليّ من الفلاح ماك لين.

احتسى هيس فنجاناً من الشاي، بينما أرسل الفلاح إحدى بناته لتُبلغ أقرب مركز للشرطة بوجود الألماني في داره.

طبعاً لا أحد يعلم بهذه الرحلة، سوى الدوق هاملتون والوسيط البرتغالي.

□ □ □

● هذه مزاعم يلفها الريب من كل جانب. . فالخروج من الأجواء الألمانية دون تصريح من هتلر مستحيل. . كما أن الطائرة «مسرشميت» المقاتلة قصيرة المدى ولا تستطيع قطع المسافة من ألمانيا إلى إنكلترا دون توقف في مطار في منتصف المسافة للتزود بالوقود. . هذا ما كتبته الصحف لاحقاً.

لكن هيس يردّ على كل ذلك:

ـ هذا سرّ روعة رحلتي. . سيذهل هتلر حين يعرف بما حدث! وسيصيح مرحاً: هيس رجل المفاجآت. . وأنا معجب به دائماً. هذا إذا لم ينتهز غورنغ الفرصة ليُفسد عليّ حظوظي عند الفوهرر ليحتل مكاني. . إنني الشخصية الثانية في الرايخ الألماني. . الثاني بعد هتلر!

ولما سألوه في المحكمة:

ـ كيف غادرت ألمانيا دون علم هتلر، بل دون علم أدقّ وأكفأ جهاز استخبارات في العالم كله. . الاستخبارات الألمانية؟ كيف خدعت الجميع؟ ولماذا؟

ـ لكي أوقف نزيف الدم في حرب حققت أهدافها حتى الآن. . ففرنسا قد انهارت تماماً في ساعات، واستسلم جيشها، وتسارع قادتها وسياسيوها وشعبها أيضاً إلى الفوهرر يطلبون رضاه وصفحه. . آملين أن يؤدي هذا الخضوع المريب إلى الإبقاء على مستعمراتهم في شمال أفريقيا. .

لم يبق إذاً إلا إنكلترا. . الدولة الوحيدة القادرة مع ألمانيا على تشكيل عالم جديد قائم على العلم، وتوزيع الثروات المالية توزيعاً لا احتكار فيه لدولة دون أخرى.

ـ هل يؤمن هتلر بهذا؟

ـ كل الإيمان. . ولكن وسائل الدعاية الاحتكارية تُظهره بمظهر الطامع في ثروات شعوب أوروبا. .

ـ فلماذا لم تأتِ إلى إنكلترا بموافقة هتلر؟

ـ لو عرضت الفكرة عليه لرفض تماماً. . فهو يعتقد ـ وإنه لعلى حق ـ أن ألمانيا قد كسبت الحرب، وأن استسلام إنكلترا آتٍ لا ريب فيه. . الفرق بيني وبينه أنني أريد حقن الدماء بدل إطالة حرب كسبناها منذ ستة شهور!

ـ هل فعلت ما فعلت في غفلة من هتلر واستخباراته؟

ـ لقد خدعتهم! أنظروا مثلاً إلى أسلوبي في الحصول على طائرة بعيدة المدى. . المعروف أن مِسِرشميت لا ينتج طائرات بعيدة المدى. . ولا أعتقد أن من السهل خداع رجل صناعة الطائرات الشهير المهندس العبقري «مسرشميت». .

لم يكن الأمر سهلاً. . لكن بوصفي طياراً ذا سمعة عالمية، وأحتلُّ في الرايخ الألماني المكان الثاني بعد هتلر. . تعذّر على «مسرشميت» منعي من التردد على مصانعه وتفقُّد طائراته، بل مناقشته في أسرار صناعة أحدث أنواع الطائرات: إم. إي. ١١٠. . رفض في بادئ الأمر، ورغم إلحاحي المستمر لم يكن موافقاً:

ـ أنت تعرف يا هيس أن أوامر الفوهرر صريحة ولا تحتمل التأويل. . ليس من حق أي إنسان أن يطّلع على أسرار إنتاج مصنعي. .

ـ [مرحاً] ولكني لست أي إنسان. . أنا رودلف هيس، نائب الفوهرر. . من حقي أن أخفي عنك سبب رغبتي في تجربة الطائرة الجديدة. . لماذا لا تقول مثلاً إن هذه أوامر الفوهرر السرية؟

ـ في هذه الحالة يا هيس يلزم أن. .

ـ [في شيءٍ من الشدة] يلزم ألا تناقش في هذه النقطة لأنها تمس قراراً سرياً للفوهرر. . يجب يعرف ألاّ به غيرنا نحن الثلاثة. . واضح يا مسرشميت؟!

ـ حسناً يا هيس. . ماذا تريد أن تعرف عن الطائرة الجديدة؟

ـ كل شيء: مداها، قدرة جهاز الإرسال والاستقبال، خزانات الوقود، قدرتها على الطيران المنخفض.

ـ حسناً سأطلعك على الرسوم الزرقاء يا هيس.

ـ لا يكفي. . يجب أن أجرّب الطائرة نفسها!

□ □ □

● جرّبتها أكثر من عشرين مرة. . وفي كل مرة كنت أطلب تعديلاً معيناً. أهم التعديلات وضعُ خزانات وقود إضافية، وتركيب جهاز إرسال واستقبال بعيد المدى. .

في الوقت الذي حددته لمغامرتي، قصدت مطار الشركة وحلّقت بالطائرة. لم يساور الرجل الطيب مستر شميت أي شك في أنني أقوم بتجربة أخرى كسابقاتها؛ إلاّ أنني انطلقت نحو إنكلترا.

بدأت في الطيران عند الثامنة مساءً، وهبطت في حقل الفلاح الذي قدّم لي الشاي عند العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين. . وها نحن نشارف منتصف الليل ولم يأتِ دوق هاملتون! ثمة في الأمر ما يريب!

لعلّ تأخُّر دوق هاملتون في الحضور لمقابلتي، معناه أن تشرشل منعه من ذلك!

كنت متفقاً مع هاملتون، عن طريق وسيط لشبونة، ألاّ يخبر أحداً، أياً كان، إلا بعد نجاح مفاوضاتي معه! لماذا تأخر؟ إن هذا مريب!

● حالما انتشر خبر هبوط الطائرة الألمانية، انكشف سرُّ تقاعس دوق هاملتون عن الحضور لاستقبال هيس. قال للصحافيين:

ـ ماذا؟ عن أي اتفاق تتكلمون؟ أنا لا أعرف رودولف هيس، ولم يحدث أن اتفقت معه شخصياً، أو عن طريق وسيط، على المقابلة. هذا سخف.

● لكن الصحافيين حاصروه:

ـ كل شيء يوحي بوجود هذا الاتفاق. . سماحكم لطائرة هيس بدخول الأجواء البريطانية، وسؤالك الدائم عن خط سيرها، وأوامرك بعدم إسقاطها!

ـ هل استمعتم إلى البيان الذي أصدره هتلر إثر ذيوع خبر هروب هيس؟

● قال هتلر في ذلك البيان:

ـ إن هيس مجنون.

وأنكر صلته بالموضوع. . ومن الواضح أنه لن يوافق على أية اتفاقات تتم بيننا وبين نائبه.

ـ لكنك كنت تعرف أن هتلر سينكر هذا يوم اتفقت مع هيس على الزيارة السرية. .

ـ أنا لم أتفق مع أحد على شيء!

ـ هيس يقول إنه يحمل رسالة بخطك عن طريق الوسيط!

ـ غير صحيح! واعلموا جميعاً أنني منذ ساعة أرسلت أحد ضباط أركان الحرب لمعرفة ما يحمل من شروط تصلح قاعدةً للاتفاق. . يشك الضابط في شخصية هيس، خاصةً أنه لا يذكر اسمه الحقيقي، ويتمسك باسم ألفريد هورن. وعلى هذا قام الضابط بتفتيشه. . فلم يعثر على ما يثبت وجود صلة بيني وبينه. .

ـ ولماذا قام بهذه المغامرة الخطيرة؟

ـ ما جاء به لبدء المفاوضات لا يصلح قاعدة لأي اتفاق. هذا الرجل مجنون ذو مطالب عجيبة!

ـ ما هي؟

ـ منها مثلاً مطالبتنا بالانسحاب من الهند والعراق وفلسطين ومصر. ومنها الموافقة على إخراج قوات الاحتلال الفرنسية من الشام وشمال أفريقيا!

ـ هل أوصاك تشرشل بعدم مقابلته؟

ـ رفض تشرشل الأمر كله، لكنه طلب مني أن أقابله.

ـ لتبدأ المفاوضات؟

ـ بل لاعتقاله!

□ □ □

● في محاكمة نورمبرغ لمجرمي الحرب، أثيرت زيارة هيس السرية إلى إنكلترا. . لم يجد المسكين شاهداً واحداً يؤيد نيّاته السلمية. حتى الرسائل التي تبادلها مع دوق هاملتون. . كانوا قد أتلفوها في الثاني عشر من أيار/مايو عام ١٩٤١، يوم كتب تشرشل على الملف السري للرحلة المثيرة:

«يُعتقل رودولف هيس في قلعةٍ حصينة، ويمنع من مقابلة أي إنسان».

● النتيجة أن أجهض الإنكليز في ذلك اليوم المحاولة المثيرة التي كان يمكن ــ لو أتاحوا لها فرصة نجاح ــ إنقاذ العالم من أتون الحرب العالمية الثانية.

القسم الثاني

مؤمنون وكفرة

الفصل الثالث عشر

جوهان كبلر..
لاحقته الكنيسة فانتصر عليها

● هكذا هم دائماً وفي كل العصور، يظنون أنهم أوصياء السماء على الأرض، فيتصدّون لكل الظواهر الإنسانية الرائعة، ويمارسون، باسم الدين، أبشع أساليب البطش لدحضها.

وحتى هذه الساعة، لا يزالون يمارسون جرائمهم، وإن تغيرت الأسماء والأشكال والأساليب، بل حتى العقائد الدينية نفسها!

□ □ □

● أول من كتب روايات الخيال العلمي.. كتبها أولاً باكتشافاته الفلكية المذهلة، ثم بقلمه، ليتفرّغ بعدها لكتابة أعظم ما اكتشف الإنسان في علم الفلك.

● هو جوهان كِبلِر.

سخروا منه بالطبع، حين قال ذات يوم في جمع من العلماء الذين جاؤوا لمشاهدة أول خريطة للمجموعة الشمسية، رسمها على جدار قاعة الجلوس في بيته..

ـ ذات يوم ستغدو السياحة بين الكواكب متعة لا تقلّ عن متعة الملاحة بالسفن في البحار.

ردّوا ساخرين:

ـ وكيف تحصل تلك السياحة؟ فوق أجنحة الرخّ، كما في قصص ألف ليلة وليلة؟

ـ كلا يا أصدقائي، بل في سفن فضاء لا تقل فخامةً وحجماً عن السفن البحرية..

اعتبروه مجنوناً.. كان ذلك عام ١٥٩٠، قبل خمسة قرون أو أكثر!

□ □ □

● في يوم من أيام الخريف عام ١٦٢٦..

يسير رجل طويل، ضعيف البصر، مطأطئ الرأس في الشارع الكبير في مدينة لينز الألمانية.. يتأمل عميقاً.. أو لعله يصطنع التفكير العميق، حتى لا يلمح المتربصون به على الدوام، ما على وجهه من مخاوف!

فجأة يصيبه حجر في رأسه! يتحسس مكان الإصابة.

يُحدّث نفسه: حمداً لله على أنّ دمي لم يَسِل.. ماذا أقول لماريا إذا دخلت عليها والدماء تعفّر وجهي؟

أسرع في خطاه.. كان يأمل أنّ ينجو من العاصفة التي توشك أن تهب على حياته المضطربة بسبب أهل المدينة.. لكنها نفخت فجأة في وجهه.. وإذا بالناس خلفه يصرخون:

ـ اقتلوا الكافر الزنديق!

ـ كيف تسمحون لرجل كهذا بالعيش في مدينتنا؟

ـ أحرقوا الساحر ابن الساحرة..

ـ ارجموه بالحجارة..

واضطر هذه المرة إلى العدْو.. سالت دماؤه على وجهه.. تمكّن أهم عالم فلكي بعد غاليليو، من النجاة حتى بلغ باب بيته.. وقف يمسح ما على وجهه من دماء.. تفادى الدخول على زوجته الشابة وعلى طفليه، وهو على هذه الهيئة المزرية! وصعد الدرج..

ـ جوهان.. ما هذه الجروح في وجهك؟

ـ لا شيء يا ماريا.. لا شيء..

ـ هل تجاسروا هذه المرة على رجمك بالحجارة؟

ـ أجل، لسوء الحظ.. وصاحوا «الساحر ابن الساحرة»..

ـ جوهان.. لا بقاء لنا في هذه المدينة.. أمس بصقوا عليّ وعلى ريتشارد.. هل ننتظر حتى يشنقونا أو يحرقونا أحياء.. كما فعلوا بالمسكين برونو في إيطاليا؟

ـ حسناً، إهدئي يا عزيزتي.. كنت آمل أن أستقرّ في لينز، ولا أهرب منها كما من سواها في أوروبا.. يؤسفني أن دفعتك معي إلى هذه المواقف!

ـ لن أفارقك ما عشت يا جوهان.. إذا قبضوا عليك طلبت الصعود معك على المحرقة.

ـ لا مفرّ من الهرب إذاً.

ـ الآن، الآن، قبل فوات الأوان.

ـ كلا لننتظر حتى المساء.. إنهم الآن يتربصون بنا في الشوارع.. من المؤسف أن يقف على رأسهم الأسقف ركالو.. منذ أسابيع هددني منذ أسابيع بالحرق كما يفعلون بالسَحَرة.. أخشى أن يكون قد عزم على تنفيذ تهديده في الغد.

ـ سأجمع حاجياتنا ثم نفرّ متى حلّ المساء وحَلُك الظلام.

ودخل كبلر حجرته ليجمع إنجاز حياته كلها: مؤلفاته في علم الفلك التي لم يكسب منها قرشاً واحداً، والتي قلبت الكنيسة في أوروبا كافة عليه: على أعظم عالم فلك في الدنيا كلها بعد غاليليو.. العالم الفلكي الألماني العظيم، يوهان كِبلِر الذي يحكي قصة حياته المضطربة، الحافلة بالأخطار وبالأمجاد، رغم كل شيء، في مذكرات تركها للتاريخ:

كان أبي يريد لي الانخراط في الجيش.. أن أغدو جندياً مثله.. لكني لا أكره شيئاً كرهي للدماء.. لست جباناً، وإنما أعتقد أن لا حقّ لأحد في إراقة دم آخر، أياً تكن الأسباب.

في سنّ العشرين، أصبحت مدرّساً للرياضيات في جامعة غراتز، وتزوجت هيلينا. كانت جميلة وثرية ومحبّة.. كانت نعمَ الزوجة، على أمل أن أكون لها نعم الزوج، حتى وقعتُ على مؤلفات الفلكي البولندي كوبرنيكوس..

اتُّهم كوبرنيكوس بالكُفر لمجرد قوله أن الأرض ليست هي محور الكون، بل الشمس؛ وأن الأرض، كسائر توابع الشمس، تدور حولها في فلك بسرعة رهيبة.

كثيرون كانوا يصدّقون في أعماقهم ما جاء به كوبرنيكوس.. لكنّ الكنيسة أفتت

بأن هذا كفرٌ صريح، لمخالفته ما جاء في الإنجيل.. وأنا أعذُر رجال الكنيسة، بل أعذُر كل من لم يصدّق ما قاله كوبرنيكوس.. ليس سهلاً أن يقبل العقل البشري في أيامنا هذه أن الأرض عبارة عن كرة كبيرة تجري في ممر هائل حول الشمس بسرعة مذهلة لا تقل عن ١٨ ميلاً في الثانية الواحدة.. وكيف؟ وهي تدور حول نفسها طوال هذا العدو اللاهث، كما تدور النحلة التي يلهو بها الأطفال في الشوارع!

تعذّر آنذاك تصديق نظرية دوران الأرض حول الشمس.. فحين عرضتها على أقرب الزملاء في الكلية، صاح في وجهي:

ـ كبلر، لا تقل هذا في جمع من الناس، وإلا رجموك بالحجارة.. يا رجل، لو أن ما تقوله حق، لما احتمل الناس على الأرض هذه السرعة المخيفة.. إذاً لتناثرت في الهواء القلاع والغابات ومياه المحيطات.. ولطار الناس في الهواء كما تطير ذرّات الغبار في العاصفة.

● لكن كبلر عرض رأيه هذا في اجتماع لأساتذة الجامعة، بل نشره في أول كتاب له بعنوان **الكون العجيب**.

● واستُقبل الكتاب أسوأ استقبال! كانت تلك أيام اضطهاد البروتستانت في غراتز.

ـ كان ينبغي أن أفرها قبل أن أُحرقَ حيّاً كما حدث للعالم جيوردانو برونو الذي أُحرق حيّاً في إيطاليا، لأنه قال ما يشبه مقولات كتابي.

بعتُ أملاك زوجتي بأبخس الأثمان.. وفررنا إلى براغ، حيث نزلت بضيافة صديقي تيخو براش، الذي أحسن وفادتي مع زوجتي هيلينا..

ـ أنت هنا آمن تماماً.. فالإمبراطور رودولف الثاني يحمي علماء الفلك.

ـ حقاً، إنك تسعدني بهذا القول.

ـ لا تذهب في الأحلام بعيداً يا يوهان.. الرجل لا يحب الفلك حباً في العلم!

ـ لماذا إذاً؟

ـ إنه يؤمن بقراءة الطوالع في الكواكب.. سأُقدّمك إليه.. فلا تنكر ما يؤمن به.

ـ ولكن هذا هراء يا تيخو.. كيف ترضى بأن..

ـ [يضحك مقاطعاً] يا صديقي، من أجل العلم أرضى بالقول للإمبراطور إن الكواكب تؤكد أنه سيفتح العالم، وأنه سيخلف الإسكندر الأكبر، بل سأقول له إنه المسيح أيضاً إذا شاء.

ـ كل هذا من أجل الأجر الذي تحصل عليه؟

ـ لا، بل من أجل أن أستخدِم مرصد القصر في معرفة حركة الكواكب.. هل تعرف ما يشغلني الآن يا كبلر؟ تشغلني معضلة مدارات الكواكب.. كلّ النظريات السابقة، حتى نظريات كوبرنيكوس لا تحلّ المشكلة. منذ فجر التاريخ والكواكب تدور في أفلاك.

ـ حسناً، أهي مدارات ثابتة، أم متغيرة؟

ـ أقول إنها مدارات ثابتة حول الشمس.

ـ وما دليلك؟

ـ ليس عندي دليل في الوقت الحالي.. إنما سأتوصل إليه.

ـ ولن تتوصل إليه إلا إذا ركعت أمام الإمبراطور وأخبرته بما تضمره الكواكب

عن مستقبله ومستقبل إمبراطوريته.. عندها فقط سيتركك تفعل ما تشاء في مرصد القصر..

ـ تعني أنك تنوي أن تحدّثه في وظيفة لي بالقصر؟

ـ بالطبع، سنعمل معاً، ونقول معاً للإمبراطور ما يريد من ترّهات.

● كان الإمبراطور ظريفاً رغم مظهره المتكبّر.. إذ قال لي:

ـ إسمع يا كبلر.. لا أريد أن أسمع كلمة واحدة عن مدارات الكواكب وسرعة الأرض حول الشمس وأمثال هذه السخافات.. كل ما أريده منك ومن تيخو هو قراءة طالعي في تلك الكواكب.. ما أسخف هذه النظريات التي قرأتها في كتابك.

ـ قرأتَ كتابي يا صاحب الجلالة؟

ـ ولو أطعت أسقف براغ في أمرك لأحرقتك حياً.

ـ لو تسمحون لي، جلالتكم، بدقيقة من وقتكم لشرحتُ كيف..

ـ [مقاطعاً] كبلر، لا تضيّع وقت صاحب الجلالة في هذه السخافات.. هيا.. علينا أن نرصد زحل الذي يقول الكثير عن مستقبل صاحب الجلالة!

ـ يُخيّل إلي يا تيخو أنك أخبث مما أظن.. لا أشك في أنك تعتنق نظريات صاحبك هذا [يضحك] حسناً.. أكتبا ما تريدان، شرط ألا يقرأ أحد ما تكتبان.. أريد أن أعرف ما يقول زحل عن حربي مع الدانمارك..هيه؟ أريد أن أتبيّن الأمر صباح الغد.. لا تنسَ يا تيخو!

● من حسن حظي أن الإمبراطور لم يكن ضيّق الأفق، وإلا أمر بحرقي حياً كما طلب أسقف براغ.. وهذا ما كان على وشك أن يحدث بعد أن توفّي الإمبراطور ولحق به صديقي تيخو.

● زجّ بي الأسقف في السجن، ثم «تعطّف» وحدد إقامتي في داري الصغيرة.. كانت تلك بداية أحزاني! عام ١٦١١ وفي خلال أسبوعين فقط فقدتُ زوجتي وولدي ريتشارد.. وما إن عدت من جنازة ولدي، حتى طرق أحدهم بابي.

ـ سيد كبلر، يجب أن تهرب الآن..

ـ ولماذا تريد مني أن أهرب في مثل هذا الوقت المتأخر؟

ـ لو بقيت إلى الصباح لساقوك إلى المحرقة.. لقد أخبرني بذلك ابن العمدة.. قال لي إنه سمع الأسقف يُحدّث أباه بهذا..

ـ ولكن أباك أكدّ مراراً أنه يؤمن بنظرياتي عن دوران الأرض حول الشمس!

ـ أجل، كان هذا في حياة الإمبراطور الذي كان يحميك.. إنما بموت الإمبراطور، أشاع الأسقف أنك تقول بوجود أكثر من ألف مجرّة مثل المجرة الشمسية، وبوجود كواكب غير الأرض مسكونة بأقوام غير أهل الأرض.. هل قلت ذلك حقاً يا أستاذ كبلر؟

ـ أجل، ولو دخلت يا ويلهلم لشرحتُ لك كيف أن..

ـ إذا كنت قد قلت هذا، أصدقك يا أستاذ.. ولكن الأمر لن يجديك نفعاً متى ساقوك إلى المحرقة.. أرجوك يا أستاذ، غادر براغ الليلة.. أرجوك!

● حللتُ في لينز فاراً من براغ..

سنواتي الأولى في لينز كانت تعويضاً لي عما لقيت سابقاً من أحزان. تزوجت ماريا، وأنجبت منها ثلاثة أولاد. وكتبت أفضل كتبي في الفلك ـ كتاب **تجانس الأفلاك**، وغيره..

ثم جاءت المتاعب.. حين قُبض على غاليليو في إيطاليا.. ففي بدء التحقيق معه، قال إنه يؤكد كلّ ما جاء في كتابي **تجانس الأفلاك**.. فأرسل البابا إلى أسقف لينز يطلب القبض عليّ والتحقيق معي، تمهيداً لحرقي بالطبع!

كان الناس يصرخون وأنا في طريقي إلى داري.. يقولون:

ـ كيف تهرب والمطر في الخارج كأفواه القِرَب؟

ـ هناك عربة صغيرة تنتظرني في فناء الدار، وسأستقلّها وأغادر إلى مدينة أولم على نهر الدانوب، حيث تعيش أسرة زوجتي.. لقد بلغت أرذل العمر، وآن لي أن أستريح.. نفضتُ يدي نهائياً من الفلك ومن تهديدات الكنيسة! أريد أن أعيش في سكينة ما تبقّى لي من أيام..

□ □ □

● لم يَفِ كبلر بما وعد به زوجته ماريا، بل عاد إلى كتاباته في الفلك.. رسَمَ أول خريطة للمجرّات المعروفة حالياً.. الخريطة التي يعرفها العالم الآن باسم «ألواح كبلر».

كان ينوي المغامرة بعرضها على الإمبراطور فرديناند الثاني، إلا أن القدر لم يُمهله، إذ وُجد ميتاً في فراشه، ذات يوم من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٦٣٠.

الفصل الرابع عشر

يزعمون محبة المسيح..
وينشرون الكراهية والشذوذ

جاؤوا إلى أرض فلسطين، وليس في قلوبهم غير الحقد والبغض للإسلام والمسلمين في حملات صليبية متكررة.

لنقف على واقعة يصورها هذا الحوار الذي دار بين ريموند ملك طرابلس، وجيرار ديريد رئيس فرسان المعبد:

□ □ □

ـ أنتم السبب يا سيد جيرار!

ـ من تعني بكلمة أنتم؟

ـ أنت بالذات، ورجالك، تسمون أنفسكم فرسان المعبد!

ـ لقد بدأت أصدق ما يقال عنك يا ملك طرابلس.

ـ صدّق ما يحلو لك. أعرف تماماً ما أفعل.

ـ وما تفعله لا يشرفك!

ـ وهل يشرفك ما تفعله بقرى المسلمين التي تغزوها مع رجالك بالذبح والقتل والحرق؟

أهذه هي الفروسية التي تمارسونها تحت راية الله؟

ـ لا عهد عندي لغير المسيحيين!

ـ إذاً، غيّروا اسمكم إلى «لصوص المعبد»!

ـ هؤلاء اللصوص يحمون تاجك في طرابلس!

ـ أحمي تاجي بقواتي.

ـ بل قل: بقوات صلاح الدين.

ـ لا أظنك تثيرني بهذا الكلام يا جيرار، بيننا وبين صلاح الدين هدنة، فخرقتَها وصديقك المتهور رينودي شانيون صاحب الكرك، الذي هاجم قافلة حجّاج مسلمين.

ـ أنا من حرّضته على ذلك كيما ندفع صلاح الدين الى الحرب.

ـ إن صلاح الدين لقادرٌ على سحق الكرك في نهار واحد.

ـ سنتحرك جميعاً لمواجهته، وتلك هي خطتي.

ـ وما هدفك؟

ـ حماية الدين.

ـ جيرار،أنت وفرسانك آخر من يتكلمون عن الدين، فرائحة ما تقترفون في حروبكم تزكم الأنوف!

ــ ورائحة ما يجري في قصر زوجتك في طبرية مع قادتك فاحت في أوروبا. .وإني لأحذّرك: ما لم تنضم إلينا في مواجهة صلاح الدين سنجردك من طرابلس وطبرية عقب انتصارنا على المسلمين!

□ □ □

● استثارت مذبحة قافلة الحجاج المسلمين صلاح الدين الأيوبي، فوصل من القاهرة الى دمشق. احتل الكرك بسرعة، انتقاماً من قائدها الذي ارتكب المذبحة، وسرعان ما حاصر صلاح الدين طبرية. انتاب الذعر ريموند ملك طرابلس الذي هداه تفكيره الى الذهاب لمقابلة صلاح الدين سراً.

□ □ □

ــ أيها الملك ريموند، طبرية أرض المسلمين، فلا تطلب مني أن أدعها لكم مهما كانت الوعود، لم ألق منكم غير الغدر والخيانة. . .طلبتم هدنة، وافقت. . طلبتم أسراكم، أعدتهم إليكم. . وها أنتم خرقتم الهدنة بهذه المذبحة الفظيعة!

ــ لا أطلب أيها السلطان العظيم غير رفع الحصار عن طبرية. . فيها زوجتي وأولادي. .

ــ أمهلك ساعات لدخول طبرية، والخروج منها بزوجتك وأولادك.

ــ وما ينفعني هذا؟

ــ أنت لم تأتِ إذن في شأن أهلك؟ يا ريموند، لن أفك الحصار عن طبرية!

ــ لكل شيء ثمن أيها السلطان!

ــ وما ثمن فك الحصار عن طبرية؟

ـ دع لي طبرية، وأنا أعدك بانسحابي من جيوش أعدائك وسط المعركة.

ـ لا أثق بوعودكم.

ـ ما نكثت مرةً وعداً قطعته لك أيها السلطان. . دع لي طبرية وطرابلس.

ـ أما طبرية، فلا يا ريموند.

ـ لكأنك تنوي أن تكون المعركة فيها؟

ـ من يدري؟

ـ إذاً، دع لي ملك طرابلس.

ـ شرط أن تكون والياً عليها من قِبلي.

ـ وأفقد تاجي؟

ـ لن يكون في أرض الإسلام تاج لغير أصحابها يا سيدي!

ـ قبلت، على أن تحميني من انتقام الأمراء الصليبيين إذا هاجموا طرابلس.

ـ سأحمي طرابلس ومن فيها، فهي أرض المسلمين.

● أُنجز الاتفاق الشفهي، لكن صلاح الدين الذي تجرّع الخيانة من الصليبيين لم يركن الى وعود ريموند، فوضع خطة حرب شاملة دون الاعتماد على وعد مضمون. . وبراعته المعروفة في التكتيك، خدع الصليبيين خدعة قاتلة. .

تعمّد إرغام جيوشهم على المسير إليه عبر الصحراء حتى طبرية، ليبلغوها منهكين متعبين، في حين ادّخر جهده و جهد رجاله. .لم يكن حصاره لطبرية غير الطعم المسموم. . ساروا نحوه في أرض قاحلة، ينهكهم العطش، وتهدّ قواهم حرارةُ الشمس الملتهبة. . ما إن شارفوا على بحيرة طبرية، حتى صُعِقوا بجيوش صلاح الدين تحول بينهم وبين الماء، وتجبرهم على ركوب تلال حطين عطاشى

متعبين.. في حطين كانت نهايتهم: أُبيد الجيش الصليبي، ووقع كل قادته وملوكه في أسر صلاح الدين.

وكتبَ التاريخ:

«إن حطين شهدت نهاية الحملات الصليبية».

وكان لقضاة المسلمين كلمتهم، فقال صلاح الدين للقاضي الفاصفي:

ـ أسرت قواتنا أكثر من خمسمائة رجل من فرسان المعبد، وبينهم رئيسهم جيرار.. وأنتم أدرى بما فعل هؤلاء الناس بالمسلمين. فماذا ترى في أمرهم أيها القاضي؟

ـ ما يأمر به ديننا.. نعرض عليهم الاسلام، فمن أبى، يجرِ عليه ما يجري على الأسرى من استرقاق أفداء.

ـ [في مرح] يا سيدنا القاضي، فرسان المعبد يتباهون في كل مكان بأنهم وحدهم يحاربوننا باسم الدين.. أمثل هؤلاء المتعصمبين يدخلون في الاسلام؟

ـ ما علينا الا البلاغ!

□ □ □

وظنّ فرسان المعبد أن ليس أمامهم سوى الاسلام أو القتل.. فتلك هي شروطهم على من يقع في أيديهم من المسلمين..

وكم تعجّب صلاح الدين حينما رأى ثلاثمائة رجل منهم يريدون الدخول في الاسلام!

وتعاظمت دهشته لمشاهدة جيرار ديريد، رئيس الطائفة، يخلع ثوبه الذي يحمل

شارتهم ويدوسه بقدمه محتقراً، ثم يرتدي ثياب المسلمين ويقف في صفوفهم . .

□ □ □

لكن، هل اعتنقوا الاسلام فعلاً؟ أم أنهم من هول الكارثة التي حلّت بهم اتخدوا لأنفسهم عقيدة أخرى غير المسيحية والاسلام؟

لعل هذا ما سطره التاريخ عن فرسان المعبد، إذ عُثر في معابدهم على تماثيل للشيطان، وثبت ممن كتبوا عنهم أنهم كانوا يحرسون قوم لوط . . بل كُتب عنهم من المخازي والرذائل ما لا يتسع المجال لذكره.

□ □ □

● ولما طفحت رائحة تصرفاتهم الشاذة، أصدر فيليب ملك فرنسا مرسوماً بالقبض على كل من يُشتبه بانضمامه الى هذه الطائفة. وسرعان ما حذا حذوه معظم ملوك أوروبا فأمروا بإعدامهم، وحرق تعليماتهم السرية التي عُثر عليها في معابدهم . . الغريب أن معظم تلك المدونات كانت تبرر تصرفاتهم الشاذة جرّاء ما فعله بهم **صلاح الدين الأيوبي** في موقعة حطين.

نجت من أسر أكلة لحوم البشر.. فأشهرت إسلامها

أيدا فيافر هو الاسم الأول الذي حملته منذ الولادة حتى أكثر من خمسة وخمسين عاماً. . أما اسمها الثاني فهو آمنة فيافر، بعد ما اعتنقت الدين الإسلامي.

ألّفت السيدة آمنة فيافر ثلاثة كتب في الرحلات التي خاضتها وأدخلتها عالم الشهرة في مضمار أدب الرحلات.

● ولدت في فيينا في الخامس من تموز/ يوليو عام ١٧٩٥، وتوفّت في القاهرة عام ١٨٥٨. . يقع ضريحها عند مدخل قرافة المجاورين (مقبرةٌ في القاهرة).

□ □ □

كتبت تقول :

● كنت البنت الوحيدة في أسرة من ستة أولاد، وكان والدي شديد التزمّت، لا سيما تجاه الفتيات. سمعته يوماً يقول لوالدتي:

ـ لن أسمح بأن تكون لي ابنة في هذا البيت! احلقي شعرها.. وألبسيها ثياب ذكور كأشقائها..

● وكانت أمي ضعيفة الشخصية.. لا رأي لها في حياتها أو في حياة أولادها.. أطاعت هذا الزوج الطاغية فألبستني ثياب الصبيان بعد أن قصت شعري.. والغريب أنها كانت تخاطبني بلهجة الضمائر التي تخاطب بها إخوتي..

إثر وفاة أبي، دخلتُ بهدوء إلى غرفتي؛ خلعت ثياب الصبيان، وارتديت ثياب الفتيات..

دخل الأستاذ فيافر في حياتي دون أن يجمعنا حب.. فتزوجت منه.. وعشت معه بنمط حياة أمي مع أبي نفسه..

كان يكبرني بربع قرن.. ومع هذا، كان رقيقاً معي، شديد الحدب علي.. يبذل كل جهده في سبيل إسعادي وتنشئة ولدينا أفضل تنشئة!

كبر ولداي، فتبوّآ منصبين ممتازين في الخدمة الحكومية.. عُيّن أصغرهما ملحقاً سياسياً في تريستيا، حيث رافقته لأطمئن على إقامته.. ذات يوم، عند شاطىء البحر، قال لي ابني:

ـ طال تأملك للبحر يا أماه!

ـ لم أنعم برؤية البحر كثيراً يا ولدي.. فقد عشت أيامي كلها تقريباً بين البرّ والغابات. أجدني أشعر برغبة جامحة في امتخار هذه البحار المجهولة لي.

ـ إنك في الرابعة والأربعين، ولا أظنك تحتملين البحر.

ـ [مداعبةً] يا منافق، أنا في الخامسة والخمسين.. ومع هذا أشعر بحماسة الشباب للترحال.

ـ سنسافر معاً في رحلة إلى فلسطين لزيارة القدس.. فالرحلة تستغرق عشرة أيام بالسفينة.. فترة كافية لإشباع رغبتك في السفر البحري..

ـ لا، يا ويلهلم .. أريد أن أقضي بقية عمري في الرحلات.. لقد أنهيت واجباتي تجاهك أنت وأخيك.. آن لي أن أستمتع بحياتي دون قيود أو التزامات.

● افتتحت آمنة فيافر رحلتها الأولى بزيارة اسطنبول، ومنها بحراً إلى سورية، ثم فلسطين فالقاهرة.. نفد مالها. فاضطرت للعودة إلى فيينا..

● وصفها لرحلتها القصيرة يُخبر عمّن التقت بهم، خلالها مسهبة بتفاصيل العادات والتقاليد الموروثة في البلدان التي مرت فيها.

لقي الكتاب نجاحاً. ولم تعد مشكلة المال عائقاً أمام طموحاتها لزيارة الشرق الأقصى.. لكن ثمة من أسدى إليها النصائح:

ـ تذهبين إلى الصين والهند؟ ستموتين من الكوليرا.. أو يعضّك ثعبان الكوبرا! وإياكِ والشرق الأقصى! فليس للنمسا هناك سفراء أو قناصل.. وسيتهمك الإنكليز والفرنسيون بأنك جاسوسة.

● أخذت بالنصيحة، منطلقة إلى آيسلندا حيث تعلمت الإنكليزية والنرويجية.. بلغت منطقة في جبال آيسلندا الثلجية لم يسبقها إليها أحد.. منطقة بركان هيكلا الخامد.. وعادت إلى فيينا بمجموعة نادرة من المعادن والنباتات، كما وضعت خريطة بالغة الدقة لآيسلندا والمناطق التي لم تطأها قبلها أقدام بشر..

□ □ □

● تورِد آمنة فيافر في مذكراتها:

«في الأول من أيار/مايو ١٨٤٦ سافرتُ إلى البرازيل.. ومنها قمتُ بعدة رحلات

داخل القارة الأميركية الجنوبية. قادني أحد الأدلاء إلى منطقة أميركا الوسطى حيث أهرامات قبائل «المايا». . كنتُ أول من اقتحم بابها عبر البحيرة. . ولولا حرص الدليل لما رحمني الأهالي الذين غالباً ما يقتلون من يجسر على اقتحام أهراماتهم ليعرف أسرارها الغامضة.

ومن أميركا الجنوبية توجّهت إلى رأس الرجاء الصالح. أما في الصين، فقد اتهمني القنصل الإنكليزي في بكين بأنني جاسوسة، إذ شوهِدت وأنا أرسم خريطة دقيقة للعاصمة الصينية وأسوارها. . كانت بحوزتي آلة للتصوير غير معروفة آنذاك في عدد من بلدان العالم. . ألقوا القبض علي ونسوني في السجن عاماً كاملاً، إلى أن حضر من أطلق سراحي وأركبني عربة يجرها ثور حتى الحدود الهندية. .

كنت أسعد حظاً في الهند. . كان همي الأوحد دراسة العبادات والعقائد الهندوسية. . رأيت العجب العُجاب من فقراء الهنود الذين يغالون في عبادة آلهة متعددة إلى حد الفناء في المعبود وفقد الإحساس الجسدي بالآلام في سبيله. . رأيت من يطعن جنبه بسيف محمّى بالنار دون أن يُصاب بأذى! وقد يكون أغرب ما رأيته هو ذلك العابد الذي قضى ثلاثة وعشرين عاماً واقفاً بلا حراك وقد أمسك بيده إناء يحتوي باقة من الزهور، يُبدلها له أولاده كلما ذبلت!

من الهند عبرت المحيط حتى قلب جزر بورينو. . كنت برفقة مجموعة من المغامرين الأوروبيين الذين تخلوا عني ذات ليلة ونحن في قلب الغابة، وما بصحبتي إلا دليلي المخلص كايمان. .

ـ نحن يا سيدة أيدا وسط منطقة آكلي لحوم البشر. . إذا وقعنا في أيديهم، انتهى أمرنا.

ـ لكن الإنكليز الذين رافقونا قالوا إن قبيلة الباتاك من أكلة البشر بعيدة عن مكاننا هذا بمسير خمسة أيام!

ــ لقد أخطأوا يا سيدتي.. ولا أمل لنا في النجاة إلا بمحاولة الوصول إلى بحيرة إيرتو.

ــ أهي بعيدة يا كايمان؟

ــ مسير ثلاثة أيام جنوباً، إذا لم نقع في أيدي رجال قبيلة الباتاك!

● لكننا وقعنا في أيدي رجال الباتاك في الليلة نفسها.. كانوا شبه عراة، يرقصون ويقفزون.. دفعونا إلى قرية صغيرة، حيث ربطونا إلى شجرتين، وأخذ زعيمهم يشير إلى رقبتي..

ــ ما العمل يا كايمان؟ ألا ترى أنهم يشيرون إلى رقبتي ويضحكون ويرقصون ويقفزون. معنى هذا أنهم سيبدأون بي!

ــ لم يبق أمامنا غير لحظات. وإني لأعجب كيف تقابلين كل هذا الرعب بأعصاب باردة! لا أحسبنا ننجو يا سيدتي.

ــ سأبذل محاولة أخيرة لعل فيها نجاتنا! وسأستعين بالإشارات..

واتجهت آمنة نحو الزعيم وأخذت تتحدث إليه بصوت مرتفع وهي تبتسم وتضحك.. ومما قالته:

ــ أيها الزعيم الوسيم.. إنني لا أخافك لأنك لطيف وظريف ورقصك يروق لي.. ولكنني بصراحة لا أفهم رغبتك في أكلي! ماذا تأمل أن تأكل؟ إنني عجوز.. لحمي صلب قاسٍ! أنظر إلى جلدي المتجمد والجاف.. هل يرضى زعيم جميل مثلك أن يأكل امرأة عجوزاً؟ فُكّ وثاقي ودعني أرقص معك!

● ونجت ونجا دليلها.. وتشير في مذكراتها:

«فكرت بعدها بزيارة الديار الإسلامية.. قيل لي إنني سأقتل لو حاولت التسلل إلى مكة أو المدينة.. ولكنني حين نزلت في جدة لم ألقَ من أهلها إلا كل احترام وترحيب.. لكنهم لم يسمحوا لي بالوصول إلى مكة.. قالوا إن هذا محرّم على غير المسلمين.. مكثت في جدة ثلاثة شهور.. درست فيها الدين الإسلامي، بيد أنني لم أقرر اعتناقه حتى بلغت القاهرة.. في أحد أيام الشتاء من عام ١٨٥٣، حين زرت الأزهر، قابلني الشيخ العدوي، شيخ الإسلام، برقة وطيبة وسماحة. كانت صراحته مضرب الأمثال. أعربت له عن رغبتي في زيارة مكة والمدينة فأفهمني أن هذا مستحيل إلا إذا اعتنقت الإسلام.. مكثت عدة أشهر أقلّب الأمر على كل وجوهه، قبل عودتي إلى الشيخ السامني في جدة.. عدتُ وفي رأسي أسئلة كثيرة تقت إلى الإجابة عليها.. فهل تجيبني يا فضيلة الإمام على أسئلتي؟».

● وأمضت آمنة فيافر أكثر من عام تدرس الدين الإسلامي.. قالت للشيخ:

ـ يا فضيلة الإمام، أريد عن رغبة شديدة واقتناع كامل أن أدخل في الدين الإسلامي.. وعزمت على أن يكون اسمي «آمنة» تيمناً بوالدة النبي الكريم!

ونطقت آمنة بالشهادتين، وسعدتْ بزيارة بيت الله الحرام، وقبر الرسول في المدينة المنورة.. عاشت في القاهرة إلى أن انتقلت إلى رحمة الله عام ١٨٥٨ مخلّفة ثلاثة كتب، بعضها لم يُترجم إلى العربية، والبعض الآخر دخلت عليه تحريفات، حيث حُذف القسم المتعلق بإسلامها!

ابن قلاوون..
كان شريراً ثم تاب

سلطان عظيم القدر، واسع النفوذ، ارتكب في حق رعيته ما أسخط عليه الناس حتى تمنّوا موته، وزوال سلطانه.

كان يعلم أنه مكروه، وأن الناس يعقدون المقارنات بينه وبين أبيه وأخيه، فترجح كفّتاهما، فيزداد حقداً وبغضاً للجميع، ثم يرتكب أفظع الكبائر عندما يقتل المقربين إليه..

□ □ □

● يدخل الأشرف خليل يوماً على زوجته الشابة الجميلة أردكين، فتحاول استدراجه ليبوح لها بما يكدّره، فتتحدث إليه بطيبة صادقة:

ـ لشدّ ما افتقدتك اليوم يا زوجي العزيز.. أكنت في صحبة والدك السلطان؟ أم أنك مررت على أخيك الأمير علي؟

ـ لا تذكري هذا الاسم اللعين على شفتيك!

ـ معذرة يا زوجي الحبيب.

ـ ويحك يا أردكين. تعرفين أنني لا أبغض أحداً قدر بغضي لعليٍّ هذا.

ـ أميري العزيز، وزوجي الكريم.. عليّ أخوك!

ـ لَبئس الأخ هو! قلت لك مرّات عدّة إنني لا أحب أن يذكر اسم هذا الإنسان في داري..

ـ وأنا أقول لك يا زوجي باسم الحبّ إنه لا مفرّ لنا من أن نعتاد ذكر اسمه في هذه الدار، وفي غيرها. ولا تنسَ أن أباك نصّبه ولياً للعهد! وأنك لأولى الناس بأن يكون حبّك له مضاعفاً.

ـ إنك لا تعرفين علياً كما أعرفه.. فهو ناعم كالأفعى، رقيق كشملة من حرير تلتف حول العنق!

ـ لشدّ ما تظلم أخاك يا أميري.. وما جاء ذكرك في مجلس إلا وقال: أخي وأستاذي الأشرف خليل.

ـ إذا كان يراني أستاذه، فلم لا يخلع نفسه من ولاية العهد لمن هو أحق بها منه؟

ـ لأن لولاية العهد يا أميري العزيز قواعد لا يصح تجاوزها.. فعليٌّ أكبر أولاد السلطان قلاوون، ومنذ صباه يقوم بالملك نيابة عنه إذا ما خرج محارباً أو حاجّاً..

ـ قد أخطأ أبي، فأنا أكثر علماً بالفروسية وأشد حنكة بالسياسة.

ـ لكن يا زوجي العزيز، المماليك غضبوا منك لشدتك عليهم، والعلماء يتحفظون في تعاملهم معك لتركك الصلاة!

ـ سَتَرين يا أردكين ماذا سأفعل لهؤلاء جميعاً عندما يؤول الأمر لي!

● تلزم أردكين الصمت. . لكنها تجلس في قصرها متوجسة، خائفة، منذ أن يغادر زوجها القصر، حتى يعود. وأشد ما يكون خوفها أن يقتل على يد مملوك حاقد غاضب، أو أحد عامة الناس ممّن لم ينجوا يوماً من أذاه وشرّه.

● وتمر الأيام، وولي العهد الطيب القلب، الرقيق الحاشية، يحاول أن يسترضي أخاه ما وسعه ذلك سبيلاً. . لكن الأشرف خليل يزداد حقداً وبغضاً لأخيه. . حتى كان يوم استدعى السلطان ولديه إلى قصره، وتحدّث إليهما بوقار وحكمة:

ـ لا مفرّ يا ولديّ من الخروج إلى الجهاد في سبيل الله لقد تقافمت اعتداءات الفرنجة على أرض الشام، ولم يبق لنا سوى التصدّي لهم في عكا، وصور، وصيدا، فنحول بينهم وبين بلاد المسلمين.

فيجيبه الأشرف خليل:

ـ إجعلني يا مولانا السلطان، نائباً لك على مصر حتى تعود مع أخي الأمير عليّ سالمين غانمين. .

لكن السلطان يقول لولده الأشرف:

ـ لا يصح هذا، وأخوك هو وليّ العهد. لقد أخذنا له البيعة، فماذا يقول الناس؟

ويلتفت عليّ إلى والده:

ـ يا مولانا السلطان، إذا كانت نفس أخي لا تطيب إلا بذلك فاجعله نائباً لك على مصر، فإني والله راضٍ بذلك كل الرضا. .

وما إن أنهى عليّ جملته حتى صاح الأشرف:

ـ هاك يا مولاي السلطان، أخي يخلع نفسه من الولاية من أجلي، فاكتب ذلك وأشهد عليه الخاصة والعامة.

يحدّق السلطان في ولده الأشرف:

ـ ستخرج معي كما يخرج أخوك.. لأنني جعلت من شيخ الأزهر نائباً عني.. وهو رجل نعرف أمانته، وصدقه، وإكبار المماليك له.

فيظهر بوضوح على وجه الأشرف أنه قد استشاط غضباً، فيخاطب أباه في حنق:

ـ أو تترك مصر لشيخ الأزهر، الذي لا نأمن كيف سيتعامل المماليك معه، وربما يحتالون عليه، ليسلبوا منك ملكك؟

فينظر قلاوون إلى ولده في هدوء، ويُقسم محذّراً:

ـ أُقسم بالله العظيم، لتخرجنّ معي إلى الحرب، أو أزجّك في السجن يا خليل!

● كان السلطان قلاوون أعرف الناس بولديه، مدركاً أن ولده الأشرف مكروه من الخاصة والعامة، عكس عليّ الذي يعتبره من أحب الناس إلى قلوب الرعية.. لذا، لا يستطيع أن يترك خليلاً وحده في مصر، وهو يعلم كثرة عداواته مع المماليك. ربما لا يتورع عن سلب الملك والسلطان لنفسه، وإن يكن والده وأخوه يقاتلان الأعداء. فعزم على اصطحابه معه..

● ولم يملك الأشرف خليل غير الخضوع لإرادة الأب القوي الشكيمة.. خرج مع الخارجين، ليحدث ما لم يكن متوقعاً. فما إن تجاوزوا مدينة بلبيس، حتى سقط عليّ فريسة مرض غامض، دفع البعض إلى الظن أن الأشرف خليل قد دسّ له السمّ في الطعام.

ولم يتمكن الأطباء من إيقاف نزف الدم الحاد، فحمل الأب ابنه الحبيب عائداً به إلى القاهرة.. وما كاد يبلغ مشارفها، حتى أسلم ولي عهده المحبوب الروح.

ولم يتسنّ للنور اختراق القلب المظلم.. حالما أصبح الأشرف خليل ولياً للعهد، أخذ يتعجّل الوثوب إلى العرش..

ويموت السلطان فجأة، وتتشجع أصابع الإتهام، في إشارة صريحة إلى الإبن الطامح للحكم. لكن قسوة السلطان الجديد وشدته وغلظته، تكتم الأصوات الهامسة، فتضمن له ولاء المماليك وخضوع العامة.

□ □ □

● وبعد عام من توليه العرش، يتهافت أولاده صرعى الموت، واحداً تلو الآخر... وتبتلى البلاد بأوبئة تسببت بمجاعات أوشكت أن تفرغ مصر من سكانها لولا رحمة الله..

وأدرك الأشرف خليل بن قلاوون أن نقمة الله تتابعه إلى حتفه، فيستبدّ به الخوف من ربّه، ومع آية الخوف يتسرب نور التوبة إلى قلبه.. وما أن فتح القرآن الكريم حتى تراءت أمام عينيه آية:

﴿قُل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾.

ويجسِّد الأشرف خليل توبته إلى الله، فيجاهد في سبيله، ويحقق النصر تلو النصر، حتى يستردّ المسلمون أراضيهم المغتصبة، فيتجه حاجاً إلى مكة، ويسجّل مؤرخوه هذا الدعاء:

«اللهم اجعل من توبتي إليك خيراً عميماً للإسلام والمسلمين».

وكذلك يسجل التاريخ:

«في عام ١٢٩١ ميلادية حقق السلطان الأشرف خليل بن قلاوون السيادة الإسلامية المطلقة على أرض الرسالات المقدسة، بعد أن طردَ الصليبيين من حصن عكا، آخر معاقلهم، وعاد إلى مصر حاكماً عادلاً، إثر توبته إلى الله».

الفصل السابع عشر

كليوباترا: بين السلطة والكرامة

لوّعت بجمالها الأخّاذ وجاذبيتها الفاتنة قلوب الرجال ممن كانوا يتبوأون القمة، وبسبب فشلهم في تحقيق مآربهم منها، قدموها إلى التاريخ بصورة مشوهة.

كتب عنها شيشرون، خطيب روما المفوّه، جراء خيبة أمله في التعامل معها:

«كليوباترا عنوان الرذيلة.. وهي لا تعرف من فرط تسفّلها الفرق بين العفة والتمرغ في أحضان العبيد!».

كان يعرف أنه يكذب، كما يعرف الناس بكذبه إلى حدّ قول بعضهم:

ـ مسكين.. أفقده حب كليوباترا عقله.

ـ أغلب الظن أنه كان يتمنى أن يكون أحد عبيدها.

● كاسيوس، قائد روما العظيم، والعضو البارز في مجلس الشيوخ الروماني، كاد أن يهجر زوجته إرضاءً للملكة، التي سخرت منه، فوقف في المجلس خطيباً ومحرِّضاً:

«نحن إزاء عدوّ أخطر على روما من هنيبعل! إنها كليوباترا ملكة مصر.. حطموها يا أبناء روما، كما حطمتم هنيبعل».

● بل إن المؤرخ بلوتارك منعته أحقاد الحب الخائب من إنصاف حبيبته التي لم تبادله الحب.. كتب في تأريخه:

«برأيي، لن يهدأ بال روما حتى تقع تلك المرأة الداعرة أسيرة في أيدي قواتنا.. فنراها ذليلة في شوارع روما وهي مقيدة بالحديد أمام موكب النصر».

وثمة من كتب:

● «ظلموها جميعاً.. فالتاريخ المنصف يؤكد أن من فاز بقلبها لم يكن الأجمل أو الأذكى، أو الأنضر شباباً، أو الأوفر علماً، أو الأسمى فناً.. من فاز بحبها هو من همس لها بالجملة السحرية.. بالمفتاح الحقيقي لقلبها، وطموحها».

مصر وروما سنحكمهما معاً يا كليوباترا..

هذا ما همس لها به يوليوس قيصر..

أما همسة مارك أنطونيو، فكانت أقوى جاذبية:

سننشر ظل مصر على العالم كله يا كليوباترا.. سأكون زوجك.. وسيفك الذي به تضربين.

لنرَ كيف قيلت لها الجملة الأولى.

□ □ □

● كان يوليوس قيصر في قمة مجده، بعدما انتصر على بومباي. جاء إلى الإسكندرية في زيارة ودية، إنما في وقت حرج، إذ كان الصراع على أشدّه بشأن التاج المصري.

فقد تُوفّي بطليموس ملك مصر، مخلفاً التاج مناصفةً بين ولده الصبي النزق، وابنته الجميلة الذكية العشرينية.. ليقع التنازع الذي لا مفرّ منه.. فالصبي يقول:

«لن أسمح لأختي كليوباترا بمشاركتي العرش والملك! لا حقّ لها في ذلك، رغم وصية أبي المخرّف. ولا مانع عندي من أن أتزوجها، فهذا حقها أن تكون زوجة لملك.. أما أن تشاركني الحكم، فأمر مستحيل».

من جهتها كانت كليوباترا تقول:

«كيف بحق الآلهة، أترك مجد مصر ليتحكم به صبي في الرابعة عشرة فيبدده؟ والعجيب أنه يريد أن يتزوجني. كيف وأنا في العشرين، وهو طفل لا يدرك معنى الزواج أو الحب؟».

في نهاية المطاف، تبعث إلى يوليوس قيصر الذي كان يستجمّ في الإسكندرية، وتطلب منه مساندتها في مواجهة أخيها. لكن قيصر لا يبدي استعداداً للتدخل في شأن العرش المصري. أمر حرّاسه بمنعها من الدخول عليه فيما لو حضرت إلى الإسكندرية، فهو لا يريد لروما التدخل في شأن مصر.

وإذ أدركت كليوباترا عدم ترحيبه بها، ابتكرت أسلوباً عجيباً يفوق في إبداعه خيال أذكى الكتّاب.

● كان قيصر يجلس في شرفة قصره المطلّ على البحر ذات ليلة قمرية ساجية، حين أقبل عليه أحد مساعديه قائلاً:

«مولاي، وصل لتوّ تاجر من لبنان، وبحوزته مجموعة من السجاد الثمين والنادر، وهو يسأل إذا كانت لكم رغبة في مشاهدة ما يحمله من تحف فنية».

وكان من عادة قيصر أن يقدم إلى زوجته في روما هدايا يجلبها أثناء رحلاته.. فوجدها فرصة لانتقاء سجّادة يهديها إلى زوجته.

أُذن للتاجر بالدخول. كان يحمل سجّادة مطويّة، افترشها على الأرض أمام القيصر. وفوجئ القائد الروماني بكليوباترا تنسلّ من السجّادة معتذرة له:

«كان يجب أن ألقاك يا سيدي، ولم أجد وسيلة للدخول إليك إلا بهذه الحيلة!».

● وكان اللقاء ممّا صالت وجالت به جميع الكتب التي تناولت حياة كليوباترا.

ولعلّ الشعور الأول الذي انتاب الرجل الكهل ذا الأعوام الخمسين، بعد أن رأى الشابة ابنة العشرين مستلقية أمامه على السجّادة، الوقوع في غرامها. وقد توّج ذلك الغرام بالزواج منها، فثبّتها على عرش مصر، بعد أن قطع الطريق أمام أخيها. أنجبت له كليوباترا طفلها الأول قيصرون. ردّد لها القيصر مراراً، **«مليكتي كليوباترا. . تعالي معي إلى روما. لتشاهدي تتويجي ملكاً على كل الرومان، فنضمّ روما إلى مصر تحت تاج ولدي وولدك قيصرون»**.

□ □ □

● وبئس المصير. قُتل القيصر في روما قبل تتويجه.

وفرّت كليوباترا إلى بلادها، مصطحبة ولدها الذي منّاه أبوه بتاجَي الشرق والغرب. .

أما روما، فأوفدت قائدها الوسيم مارك أنطونيو ليقهر الملكة الساعية إلى إفساد نظام روما الديموقراطي. .

في الإسكندرية، يكون اللقاء الثاني. . والهمسة الثانية:

● «سننشر ظل مصر على العالم كله يا كليوباترا. . وسأكون زوجك، وسيفك الذي به تضربين».

● ويكون لأنطونيو ما أراد: الزوجة الجميلة، وقيادة الجيش، والمجد.

لكن روما لا تهدأ، ففي مجلس الشيوخ وُصمت كليوباترا بكل الأوصاف المشينة. منهم مَنْ صاح:

«اقتلوا من لطّخت بالعار أبطال روما.. قيصر أولاً.. والآن مارك أنطونيو».

ويتخذ المجلس قراراً بانتداب أكتافيوس ـ صهر مارك أنطونيو ـ الذي أبدى لمجلس الشيوخ الروماني استعداده للقضاء على كليوباترا:

«أقسم بالقضاء نهائياً على النفوذ المصري في اليونان والبحر الأبيض المتوسط، وأن أعود إلى روما، ومعي كليوباترا وابنها وزوجها أسرى مكبّلين في الحديد، في ذلة أمام مواكب نصر روما».

□ □ □

● تعرضت كليوباترا لتشويهات المؤرخين في تلك الفترة من تاريخ العالم. إذ زعموا أنها لم تكن مستعدة للحرب بسبب انغماسها في الغرام الطائش مع مارك أنطونيو، علماً بأن هذا الأخير لم يكن مجرد صديق أو عاشق، بل كان زوجها، وله منها ثلاثة أبناء.

لكن سبب الهزيمة التي مُنيت بها أن أنطونيو قد وثق بغير الجديرين بالثقة. إذ سلم القيادة البحرية إلى ربابنة من الرومان واليونان، مقصِياً المصريين عنها.. فكان من السهل على أكتافيوس شراؤهم بالمال، والاتفاق معهم على الفرار من أمامه ليلة المعركة.

ورغم قلة سفن كليوباترا، لم يجسر أكتافيوس على مطاردتها في البحر، بل إنها دخلت بسفينة القيادة إلى ميناء الإسكندرية، وبجانبها مارك أنطونيو، وأولادهما في موكب نصر عظيم.. ما كان من أكتافيوس إلا اقتحام مصر برّاً محقّقاً انتصاراً كبيراً.

شعور مُخزٍ انتاب مارك أنطونيو بأنه أُخذ على حين غرة، وفوجئ بالهزيمة. ففقد اتزانه، وأقدم على الانتحار..

يناقض المؤرخون بعضهم البعض الآخر بشأن تاريخ انتحار كليوباترا، فمنهم من قال إنها انتحرت فور سماعها بخبر موت أنطونيو. أما البعض الآخر فأصر على أنها انتحرت بعد ستة أشهر رفضاً للسير بمذلّة في موكب نصر أكتافيوس في شوارع روما..

فضلاً عن اختلاف المؤرخين حول الطريقة التي انتحرت بها.. حيث كتب بعضهم أن كليوباترا تزينت بأبهى زينة، ثم جاؤوها بسلة فيها فاكهة التين، رقد بين حباته ثعبان رهيب، فتناولته بجرأة ليلدغها اللدغة القاتلة..

تلك صورة رومانسية درامية مثيرة، لكنها تجافي الحقيقة.

الحقيقة هي أن كليوباترا كانت دائماً تخفي في خاتم كمية قاتلة من السمّ الذي اشتهر كهنة آمون بإعداده. كمية كافية لقتل عشرة رجال.

حالما أُبلغت قرار أكتافيوس بنقلها إلى روما، اجترعت السمّ، بعد أن ابتلعه أمام ناظريها أولادها ووصيفاتها.

أبي الجميع الحياة ثمناً لمسيرة ساعة في موكب الذل أمام القائد الروماني المنتصر في شوارع روما.

القسم الثالث

ثـــوّار وعبـاقرة

العاشق سيمون بوليفار..
بطل أميركا اللاتينية

تقدّم الشاب الوسيم الأنيق إلى النبيل العجوز، طالباً منه أن يزوجه ابنته..

ــ [في غضب عارم] أخرج من القصر أيها الفتى العربيد وإلا قتلتك في مكانك.. وأقسم أنني لن أقبل، ما عشت، أن يكون مثلك زوجاً لابنتي!

● فتحررت بفضل هذا الرفض ثلاث عشرة دولة، من فنزويلا شمالاً إلى الأرجنتين جنوباً.

□ □ □

● كان بوليفار طفلاً يتيماً إثر موت أبيه النبيل دون خوان بوليفار، ومصرع أمه دونا ماريا سوغا، في حادث سقوط عربتها من الجبل. تكفّل خاله بتربيته، فأحاطه بالحب والرعاية.

ــ يا خالي.. بصراحة لم تكن موفقاً في مباراة التنس اليوم!

ـ كف عن الكلام وأنت تأكل يا سيمون!

ـ لماذا؟

ـ من آداب المائدة أن تغلق فمك. .

ـ كيف آكل إذا أغلقت فمي؟

ـ إنك ولد محشوّ بالبارود!

ـ إذاً فابتعد عني يا خالي حتى لا أنفجر!

ـ ماذا ستفعل اليوم؟ ألم تسأم من قراءة كتب جان ـ جاك روسو؟

ـ من قال إنني أسأم يا خالي. . على العكس، فكتُب هذا الفيلسوف الفرنسي تدعو إلى حرية الإنسان.

ـ لولا موقفه من المرأة!

ـ ماذا بشأن موقفه من المرأة يا خالي؟

ـ يطلب مساواتها بالرجل!

ـ ألا ترى يا خالي أن أمك وأختك وزوجتك وابنتك لجديرات أن يتساوين بك؟

ـ إذهب، وأنجز قراءاتك لهذا الفيلسوف الذي سيفسد دماغك بحرية المرأة!

ـ أصدقك القول يا خالي. . إن تطوير المرأة والحرية هما عندي هدفان لا يتجزآن!

● وإذ بلغ سيمون سن المراهقة، خشي عليه خاله من شابة لعوب كانت تتحيّن

الفرص لإغواء الفتى. كانت حفيدة مربية عجوز تعيش معهم في القصر.. فقرر أن يرسل سيمون إلى إسبانيا!

ـ ولماذا إسبانيا يا خالي؟

ـ إسبانيا يا سيمون هي أمنا.. أم الشعوب اللاتينية في القارة الأميركية الجنوبية.. وأنت تتمتع بذكاء حادّ، حصيلة لا بأس بها من القراءات. فلا بد من سفرك إلى إسبانيا لتنهل من العلوم ما يهيئك لمواقع قيادية، بحكم أصلك العريق، وثروتك الطائلة، ومكانة والدك الرفيعة المشرّفة. كل هذا يا سيمون يؤهلك لأن تقصد إسبانيا للعلم. وإني لعلى ثقة أن المجتمع الإسباني سيفتح ذراعيه مرحباً بك.. وعندما تنهي تحصيلك العلمي، تعود إلى فنزويللا لتتبوأ مكانتك المميّزة فيها.

□ □ □

● وكما توقع الخال، أصبح الفتى الأنيق الثري الجريء سيمون بوليفار حديث مجتمعات مدريد، تتخاطفه القصور.. وقد علّقت أكثر من فتاة أملها عليه.. أما هو، فمخزن بارود متحرك.. ما اقترب من أحد إلا أوشك أن يحرقه بتفجرات من لذعاته ـ حتى ولي عهد إسبانيا.

ـ لن تهزمني يا دون بوليفار.. فلا أحد يهزم ولي عهد إسبانيا!

ـ لماذا تُعرّض تاج إسبانيا للسقوط في ملعب التنس يا صاحب السمو؟ ألا تراه مستقراً كما يجب أن يكون؟

ـ [ضاحكاً] أنت مجنون، دون ريب، يا سيمون بوليفار.. لو سمعك أحد من رجال أبي، لألقوا بك في البحر.. الآن لنبدأ اللعب، وحاول بكل قوتك صدّ قذائفي الكروية إن استطعت!

ـ وحاول أنت ردّها إن استطعت!

● وخسر ولي العهد الرهان، إذ سقط في الملعب أكثر من مرة..

وعلم ملك إسبانيا بما حدث.. فتجهّم ونادى رئيس شرطته، طالباً منه مراقبة الفتى سيمون بوليفار.. فوصلت إلى ديوان الملك تقارير كثيرة، هذه نماذج منها:

○ «تم تفتيش داره دون علمه، فعُثر فيها على عدد كبير من كتب فلاسفة ألمان وفرنسيين، لا سيما كتب جان ـ جاك روسو!».

○ «يتلقّى رسائل عديدة من خاله في فنزويلا يكتب له فيها عن أسباب التمرد الأخير في كاراكاس».

○ «يتردد في معظم أمسيات الأسبوع على قصر الجنرال برناردو ديل تورو، ويقضي أوقاتاً مع ابنته الآنسة تيريزا».

○ الحقيقة أن الفتى سيمون الذي لمّا يبلغ العشرين من عمره، كان قد شغف حباً بتيريزا، وجنّت هي به غراماً، واتفقا على الزواج.. لم يبق إلا أن يتقدم إلى والدها طالباً يدها.

ـ سيدي الجنرال، قد تكون سمعت أقاويل كثيرة عن سلوكياتي.. بعضها كاذب، والبعض منها مبالغ فيه. ثمة ما هو حقيقي. لا أنكر أنني سريع الكلمة، حاد المزاج، ولكني..

ـ [مقاطعاً] أعرف عنك كل شيء يا سيمون بوليفار.. إنك تتردد على بيتي فلا أمنعك لنبلك، ولعلاقتي القديمة بوالدك الراحل الماركيز دون خوان.. أعرف عنك كل شيء. والآن ماذا تريد على وجه التحديد؟

ـ أرغب يا سيدي.. بل أرجو وأتوسل إليك أن تمنحني شرف الاقتران بالآنسة كريمتكم تيريزا!

ـ [في شيء من الضيق] تناهى إليّ أنك مجنون.. ورأيت بوادر بعض هذا الجنون أثناء زياراتك لنا.. لكنني لم أظن مرّة أن يبلغ بك الجنون هذا الحد!

ـ سيدي الجنرال.. هل معنى ذلك أنك توافق؟

ـ [بتبرّم] أوافق؟ لست مجنوناً فقط، بل غبيّ أيضاً.. أتعني حقاً أنك لم تفهم مقصدي؟ كلا.. أنت تفهم تماماً أنني أرفض.. أرفض.. أرفض!

ـ ولماذا يا صاحب السعادة؟

ـ لماذا؟ لأنك أيها المجنون في الثامنة عشرة من عمرك.. وهي في الخامسة عشرة!

ـ إذا كان هذا اعتراضك الوحيد، فيمكننا تذليل هذه العقبة!

ـ أيها الأحمق، هل نحن في مجال بيع وشراء؟

ـ سيدي.. إنني أحب الآنسة تيريزا، وهي تحبني، وليس من الرحمة أن..

ـ [مقاطعاً بعصبية] لا تخاطبني أيها الفتى كأنك تتلو على مسامعي حوار مسرحية رخيصة من مسرحيات الفرنسيين الذين أتلفوا عقلك!

ـ يا صاحب السعادة، إن هذا الغضب لن يحل المشكلة. سأتزوج الآنسة تيريزا! وستصير أنت جدّ أولادي! فأرجو أن تعاملني المعاملة التي تليق بوالد أحفادك!

ـ اللعنة على المسرحيات الفرنسية الرخيصة التي أفسدت عقول الشباب. [في غضب عارم] أخرج من القصر أيها الفتى العربيد وإلا قتلتك في مكانك.. وأقسم أنني لن أقبل، ما عشت، أن يكون مثلك زوجاً لابنتي!

□ □ □

● لم يطق الفتى المحشو بالبارود ــ على حدّ وصف خاله ــ البقاء في إسبانيا. فقد غادرها إلى باريس التي تعج بالملذات. لكن الفتى العاشق المطعون لم يستجب لنداءات باريس.. فكان يقضي جلّ وقته يناقش مع الثوار التطبيق العملي للثورة، لا سيّما غداة نجاحها في أميركا الشمالية، فضلاً عن إنجازات الثورة الفرنسية. عاش سيمون بوليفار عدة سنوات، طولاً وعرضاً، مع الأفكار التحررية التي سادت أوروبا كما النار في الهشيم.

في باريس التقى عدداً من مواطنيه الفنزويليين الذين حدّثوه تفصيلياً عن عسف الإسبان بالأهالي، وعن القسوة المفرطة التي قضوا بها على متمردي كاراكاس. كما تواصل في مراسلاته مع الجمعيات السرية المطالبة بالاستقلال عن إسبانيا.

وبينما كان سيمون بوليفار منهمكاً معظم وقته في الاجتماعات الثورية وكتابة المنشورات النارية، وبعد مضي سنوات تجاوز فيها العشرين من عمره، أخذه الحنين إلى حبيبة القلب تيريزا. فسافر إلى مدريد ليلتقي والدها الذي بادره بالقول:

ــ ماذا أفعل بفتىً مجنون مثلك؟

ــ زوّجه ابنتك!

ــ دعني أفكر.. فصداقتي بوالدك تستحق مني أن أكرّم ولده.. وما سمعته عنك في باريس سيجعل الأمر هيّناً.

ــ سيدي، لا يمكنني هدر دقيقة واحدة من السعادة.. زوِّجني تيريزا الآن..

● جرت مراسم الزواج في الكنيسة الصغيرة، وأمضى سيمون وعروسه شهر العسل في فنزويلا.. ولم يكن أسعد من الزوجين اليافعين سوى الخال الطيب، الذي عاتب سيمون:

ـ كيف تعتزل الناس في هذه المرحلة الخطيرة يا سيمون؟ كاراكاس في ثورة عارمة.. ولا أظن سواك يمتلك القدرة لتزّعم حركة الثوار!

● وبالفعل انخرط سيمون بوليفار في معمعة الأحداث التي كان قد هيّأ لها منذ إقامته في باريس. كانت تيريزا توفّر له أسباب الراحة، وتشجعه على المضي قدماً في مشاريعه الثورية التحررية.. إنما أصابتها حمّى مجهولة، كانت من الشدة بحيث طرحتها على فراش الموت. وبينما هي تحتضر، همست بصوتها الخافت لسيمون:

● سيمون.. عدني يا حبيبي بألا تخيّب ظنّ مواطنيك فيك.. إذا شاءت إرادة الله أن أفارق هذا العالم، روحي ستكون في غاية السعادة إذ تراك ترفع رايات الحرية.. مع أنني أعلم حقيقة ما في قلبك.. إنك تريد الحرية لمواطنيك قبل أن يريدوها لأنفسهم..

شكّل يوم وفاة تيريزا نقطة تحول خطيرة في تاريخ حياة سيمون بوليفار.. فقد كرّس جهده سنوات طويلة في سبيل الحرية، يوم قاد معارك طاحنة ضد إسبانيا.. ولم يخلع السيف من يده إلا حين تحررت أميركا الجنوبية من ربقة الاستعمار الإسباني.. غدا سيمون بوليفار رئيساً لأربع دول مستقلة، هي: فنزويلا، كولومبيا، إكوادور، وبوليفيا.

ومع تقدّم العمر، ومتاعب الرئاسة في اتحاد الدول اللاتينية، خطرت له زيارة قبر تيريزا:

ـ [في حزنٍ شديد] لقد حققت لك رغبتك يا تيريزا.. وآن لي أن ألقاك وأستريح إلى جانبك..

عندما وافاه الأجل، أرقدوه إلى جانبها، بناء على وصيته.

ثلاث دول تتنازع على جثة الثائر الأممي.. توماس بين

● قبل الخوض في موضوع النزاع على جثة هذا الثائر الأممي بين أميركا وبريطانيا وفرنسا، لا بد من تسليط الضوء على موقفه تجاه الدين، عموماً الذي كان يجهر به، بل دوّنه في معظم مؤلفاته.

يقول توماس بين:

«لا أؤمن بعقائد اليهود، ولا عقائد كنيسة روما، ولا كنيسة الأرثوذكس الشرقية، ولا عقائد المسلمين، ولا البروتستانت، ولا أي مؤسسة دينية أخرى. فعقلي هو كنيستي. جميع الكنائس هي عبارة عن بدع بشرية تستهدف إرهاب البشر واسترقاقهم، واحتكار السلطة لتحقيق المكاسب على حساب الانسان».

ويقول في مكان آخر:

«لا أهدف الى تدمير الدين السائد، بل إلى منع الفساد الناتج من الهيمنة باسم الدين. فاللاعقلانية الممارسة باسم الدين تقوّض النظام الاجتماعي وتدمره.

سأتصدّى للخرافة الزائفة، واللاهوت الزائف، فهذه النظم الدينية المزيفة تفقدنا الأخلاق الانسانية. أنا معجب بالمسيح كرجل خيِّر وفاضل، دعا الى قيم وأخلاق. لكن حكاية كونه ابن الله ليست سوى خرافة مشتقة من خرافات شائعة بين الوثنيين، إذ يكاد جميع الرجال المميزين ممّن عاشوا في ظل الميثولوجيا الوثنية يكرّرون الزعم بأنهم أبناء الآلهة. كان للأرباب (الآلهة) اتصال جنسي بالنساء ــ وهي ظاهرة شائعة آنذاك. فالرب جوبيتير قد تعايش مع كثيرات عيشة الأزواج. وعلى هذا، فحكاية أن المسيح ابن الله ليست جديدة، ولا غريبة، ولا مدهشة، ولا فاحشة، إنما هي مجرد فكرة كانت سائدة ومريحة ومنسجمة مع آراء وعقول غير اليهود. على هذا الأساس فالميثولوجيا المسيحية ليست سوى الميثولوجيا الوثنية في شكل جديد. هي لا تعدو كونها تكراراً للميثولوجيا الوثنية».

□ □ □

● أكتفي بهذه اللمحة القصيرة من أفكار توماس بين، الذي كان واحداً من أهم المنظّرين للثورتين الأميركية والفرنسية. وبسبب علاقته الوثيقة بهما، فلْنقفْ على الخلاف الدائر بين ثلاث دول: أي منها جديرة بشرف الاحتضان جثمانه في ترابها؟

□ □ □

عاش شبابه الأول في إنكلترا، وأمضى أغزر سنوات عمره في أميركا، وأجمل أيام الكهولة في باريس.

تنازعته البلدان الثلاثة: إنكلترا، فرنسا، وأميركا، زعماً منها أنها صاحبة الحق فيه، واعترافاً بما تحقق لهذه البلدان على يديه.

● أما هو، فردّ على سؤال فحواه: من أنت؟

«من أنا؟ أنا مواطن عالمي. . كل بلد حرّ في الدنيا هو بلدي».

ورغم التنازع حول «المواطن العالمي»، لا يعرف أحد يعرف، حتى الآن، أين دُفن توماس بين. ولماذا اختفت من المقابر جثة رجل لا أعداء له؟.

لا يزال السؤال بلا إجابة، رغم الأبحاث المحمومة والدراسات الدقيقة التي اشتركت فيها الدول الثلاث المتنازعة على العبقري الحرّ، أبي الحرية، توماس بين.

□ □ □

● ليزا كوربيت، سيدة إنكليزية من لندن، كتبت في منتصف القرن التاسع عشر ما يكشف بداية سر اختفاء جثة توماس بين:

«في فترة مرض أبي، استدعاني، طالباً إغلاق الباب، فلا يسمعنا أحد. قال لي: أصغي إليّ جيّداً، يا ليزا ولا تقاطعيني، فقد أموت بعد لحظات دون أن أبوح لك بهذا السر! لقد نبشت قبراً كان لا بدّ من نبشه، واستخرجت منه جثة ما كان يجب أن تدفن في أميركا بل في إنكلترا.

ـ لماذا يا أبي؟

ـ لأن صاحب تلك الجثة إنكليزي. سافرت إلى أميركا، وسرقت الجثة، عائداً بها إلى هنا، حيث دفنتها في تابوت في حديقة الدار. لا تجزعي يا ابنتي، فهو رجل أعظم ما يكون الرجال. وحذاري أن يعرف أحدٌ بهذا السر، وإلا في يحاولون سرقة الجثة.

ـ منْ هذا الرجل الراقدة جثته في حديقة دارنا يا أبي؟

ـ إنه أبو الحرية يا ابنتي. . إنه الرجل الذي عاش حياته كلها مدافعاً عن. . عن. . .

تُوفي أبي قبل النطق باسم صاحب القبر. . . كنت حينئذٍ في الخامسة عشرة من العمر، ولا يعنيني من أمر القبر أو صاحبه قليل أو كثير. . . وبعد مرور عشرين عاماً، سافرت لقضاء عطلة الصيف عند خالتي في الريف. غداة عودتي، أخبرني أحد الفلاحين أنه شاهد أشخاصاً يحفرون في حديقة بيتي، ويستخرجون تابوتاً. . ينقلونه ويتوارون. أبلغ الفلاح الشرطة، لكن الشرطة وصلت بعد فوات الأوان. ولدى استجوابي، قصصت عليهم حديث أبي إليّ قبيل وفاته. إذّاك قام رجال الشرطة بحفر أرض الحديقة فلم يجدوا سوى كتاب مربوط بشريط رُسمت عليه ألوان العلم الأميركي. . ولما فتح الضابط أول صفحة في الكتاب، قرأ العنوان التالي: **كتاب حسن الإدراك، تأليف توماس بين. سألني الضابط:**

ـ أوتعرفين صاحب الجثة التي سرقت مرتين حتى الآن؟

ـ ماذا تعني بمرتين. . يا سيدي؟

ـ تارةً سرقها أبوك من أميركا! وطوراً سرقها مجهولون من حديقة دارك!

ـ لا أدري يا سيدي، ولكنني ألمح ورقة مطوية بين صفحات الكتاب، لنقرأ ما فيها. . لعلها تلقي الضوء على هذا اللغز.

فيقرأ الضابط: **«لقد آليت على نفسي أن أعيد جثة توماس بين إلى الأرض التي أحبها وأحبته. . إلى أميركا. . اللعنة على من يحاول أن يقتفي أثري».**

وهنا تقول ليزا: **«ما أغباني، كانت جثة رجل عظيم في حديقة داري وأنا لا أدري؟ لو علمت طوال هذه السنوات بأهميته لأبلغت السلطات، ولأمكن أن تتحوّل حديقة بيتي مقبرة ومتحفاً لهذا الرجل العظيم».**

فيقول لها الضابط: **معذرة يا سيدتي يجب أن أنصرف، فعلينا أن نعمل المستحيل لاستعادة جثة ذلك الإنكليزي العظيم قبل أن يهرّبها سارقها إلى أميركا.**

□ □ □

● هذا ما بلغنا من رواية ليزا كوربيت عن جثة توماس بين. لكن ثمة رواية أخرى في باريس يدلي بها شخص اسمه **دانتون**، زعم أنه من فناني باريس، وتربطه صلة صداقة برواد، أمثال فان غوغ، وغوغان، وماتيس. . هو حفيد أنطوان دانتون، أحد أبطال الثورة الفرنسية الذي أُعدم على المقصلة في عهود الاضطهاد.

يدّعي **دانتون** أنه أعاد جثة توماس بين إلى فرنسا:

«تعرّضت هذه الجثة لثلاث سرقات: الأولى نفذها والد ليزا في أميركا بحيث نقلها إلى لندن ودفنها في حديقة داره، إيماناً منه بأن إنكلترا أحق بتوماس بين من أميركا. . إلى أن ظهر أميركي مجهول حفر في الحديقة واستخرج الجثة منها، معتقداً أن هذا المواطن أميركي وينبغي دفنه في أراضٍ أميركية. .

ولأن توماس بين كان من أوفى أصدقاء جدي أنطوان دانتون الشهير، وبذل محاولات مستميتة لإنقاذه من حكم المقصلة، لم أنسَ له هذا الجميل أبداً. . ولا بأس من ذكر ما اتخذه هذا الرجل الحرّ من مواقف جديرة بجعله مواطناً فرنسياً. . كانت الثورة الفرنسية تحترم آراءه. رغم كونه نصف إنكليزي ونصف أميركي، عُرف عنه حبه لفرنسا وللحرية، ما دفعه إلى مناصرة الحق، فمُنح الجنسية الفرنسية، وعُيّن عضواً في مجلس الثورة. . وغداة اقتراع المجلس على إصدار حكم يحدّد مصير الملك لويس السادس عشر، بحيث صدحت بعض الأصوات المطالبة بسجن لويس مدى الحياة، بينما دعا البعض الآخر إلى إعدامه، وقف توماس بين في مجلس الثورة مخاطباً الثوار:

«أيها المواطنون، لطالما كانت لغتي تنطق بالحرية مقرونة بالإنسانية. لست أعرف ميزة ترفع من شأن أمة كاجتماع هذين المبدأين في عقيدتها الوطنية. . لهذا لا أرى سبباً للحكم بإعدام الملك لويس السادس عشر».

● ما إن فرغ توماس بين من كلمته حتى تعالت الأصوات متهمة إياه بالخيانة

والارتشاء، لكن أنطوان دانتون وقف إلى جانبه وأنقذه من حكم الغوغاء المطالبين بقطع رأسه بالمقصلة.

□ □ □

وإذ غادر توماس بين فرنسا إلى إنكلترا ومكث فيها فترة، علم أن صديقه أنطوان دانتون يواجه هو الآخر خطر الموت كما واجهه بنفسه من قبل، فأسرع عائداً إلى باريس لإنقاذه.. إلا أن محاولاته باءت بالفشل. فما كان منه إلا الرحيل إلى أميركا للمشاركة بالسيف وبالقلم في حرب التحرير الأميركية، فيغدو من زعمائها البارزين.. وما من أحد في فرنسا إلا ويعترف بأحقّيتها برجل الحرية توماس بين.

● لعل هذا ما يفسّر تتبّع دانتون الرسام مسار الجثة المسروقة من حديقة أحد البيوت في إنكلترا، فعرف أنها وضعت في صندوق على متن سفينة تجارية في طريقها بحراً نحو أميركا.. فاستأجر سفينة أكبر منها، ليهجم برفقة رجاله على تلك السفينة وسط المحيط الأطلسي، من دون أن يعثروا للصندوق على أي أثر..

أما بشأن كيفية حدوث ذلك، فيبدو أنهم ألقوا بالصندوق في أعماق البحر.

وحتى هذه الساعة لا أحد يدري شيئاً عن مصير الجثة..

□ □ □

● وانقطع تماماً البحث عن جثة توماس بعدما تبين الغموض في ظروف ضياعها. لكن أميركا قررت أن تضع خاتمة لهذه القصة المثيرة.

ففي ذكرى وفاة توماس بين، في ٣١/٨/ ١٩٢٥، اجتمع ممثلون عن كافة الهيئات الأميركية الرسمية والشعبية، في مدينة نيويورك، حيث موقع بيت توماس بين. أمسك توماس أديسون معولاً فضياً ضربه في الأرض، قائلاً:

ـ أيها السادة، إذا كان القدر قد شاء حرمان هذه الأرض من جثمان رجلنا العظيم، فباسمكم جميعاً نبني هنا أول نصب تذكاري لأبي الشعب.. توماس بين.

كان عاملاً فقيـراً ..
فأصبح رئيساً لجمهورية فرنسا!!

● وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها عام ١٩١٨، فسعت البشرية إلى الخلاص من آثارها في عشرينيات القرن الماضي، وبدأت الثلاثينيات منه بداية هادئة ورقيقة، تزدري الحروب وويلاتها.. حيث ازدهرت حركة المعارِض والمهرجانات، والمسابقات الرياضية، في أصقاع الأرض، ونشطت الشعوب بالاحتفالات والمناسبات القومية السعيدة، كما كثرت بشكل ملحوظ الاحتفالات بالزيجات الملكية هنا وهناك في أرجاء المعمورة..

باتت معظم الكتابات تودع الأيام السوداء، مرحّبة بالمستقبل الزاهر للبشرية، حتى جاء في عناوين بعض الصحف: «وداعاً لمآسي الحروب، وعبث القتلة والمجرمين.. ومرحبىً بالسلام.».. «لا حرب، ولا فوضى بعد اليوم.. وإلى الأبد».

□ □ □

● فجأة تخيب الآمال مطلع أيار/مايو ١٩٣٢، عندما تنطلق ست رصاصات

لتستقر في جسد بول دوميير رئيس الجمهورية الفرنسية، فترديه قتيلاً. . وتنفلت فوضى الاغتيالات من عقالها، لتطيح كبار الشخصيات الرسمية في مناطقَ متعددة من العالم. . وتظل البشرية تعاني من ويلات التوتر حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، التي كبتت طموحات الإنسانية المتطلعة إلى السلام.

□ □ □

● بول دوميير هو المثال الصادق للإنسان العصامي المكافح. . تدرّج من عامل فقير حتى تبوأ رئاسة الجمهورية الفرنسية. . لم يقاسِ أحد في حياته من متاعب، وشظف عيش، وكوارث اجتماعية، مثلما قاسى ذلك الرجل. . صعد السلّم من أولى درجاته، حيث كان أبوه هو الآخر من عمال السكك الحديد. عمل معه حالما أنهى دراسته الثانوية، ثم انتقل إلى مصنع لصك الأوسمة والنياشين. . كان يعمل ليل نهار، يشتغل في الصباح، ويدرس في الليل، كيما ينال البكالوريوس في الرياضيات البحتة، وهو في الخامسة والثلاثين. . وبما أنه تخرّج بامتياز على كل زملائه، عُيّن معيداً في معهد الصناعات والفنون في أورليان. ما إن حلّ عام ١٨٨٨ حتى غدا نائباً لهذه المدينة في البرلمان الفرنسي. فضلاً عن انتخابه رئيساً للجمهورية الفرنسية عام ١٩٣١ بأغلبية ساحقة. . ولم يمض في المنصب الرئاسي أكثر من عام وشهر واحد فقط، حتى تعرّض لعملية الاغتيال.

□ □ □

● القاتل جورجليوف، خطيباً سابقاً لزوجة أليكس ابن رئيس الجمهورية. فظهرت بعض التحليلات: هي جريمة عاطفية لا علاقة لها بالسياسة، والقاتل قد هدد من تزوج خطيبته بأنه سيدفع الثمن في أقرب الناس إليه!

شاع أن القاتل كتب أربعة أسماء على أربع ورقات، وهي: مدام دوميير الأم، وبول دوميير الأب، وأليكس دوميير الإبن، ثم مارغريت دوميير زوجة الإبن.

أجرى القاتل قرعةً لسحب أحد الأسماء بعدما وضع الأوراق في كيس، فاقترع اسم دومبير الأب!

يزعم القاتل أن حظ القتيل السيّئ هو ما جعله عرضة للرصاصات في ذلك اليوم؛ وأنه ـ أي القاتل ـ كان معجباً بالرجل وبكفاحه، لكنه لا ينسى أن ابنه أليكس اختطف منه خطيبته مارغريت ليتزوجها!

• مع ذلك يؤكد كلود فارير وزير الثقافة الفرنسي:

«لست أصدق ما جاء على لسان القاتل من أسباب شخصية وعاطفية أو ما شابه. إنها جريمة سياسية، والقاتل قد اخترع هذه القصة الخرافية على أمل تخفيف الحكم عنه».

ويتحدث الوزير عن تفاصيل يوم مقتل الرئيس:

«ليتني لم أدعُه لافتتاح ذلك المعرض! لو لم يقتنع بفكرتي للذهاب، لكان الآن على قيد الحياة».

• ففي يوم الجمعة الموافق ٦ أيار/مايو١٩٣٢، أقامت جمعية قدامى المحاربين، التي كان دومبير يرعاها بحماسة شديدة، معرضاً للكتاب، فدعته إلى حفل الافتتاح..

ويتابع: كنت بجانبه ساعة نزل سلالم قصر الإليزيه. كانت البرك المائية في فناء القصر الرئاسي تفيض بالأمطار المنهمرة منذ أيام.. وقد اقترح الكولونيل بيجو مرافقه الخاص الخروج من الباب الخلفي، نظراً إلى الجماهير الغفيرة المحتشدة في الميدان المواجه للقصر، في حين أن رجال الحرس قليلون، فردّ عليه دومبير:

«يا عزيزي بيجو، بحق السماء، من يفكر، باغتيال عجوزٍ مثلي تجاوز السبعين من عمره».

ثم صمت متأملاً، كأنه اكتشف شيئاً، فنظر إلينا قائلاً:

«إنها لنهاية مثيرة، بعد حياة مملة. . أن أموت اغتيالاً!».

أجبتُه:

«بحق السماء، لا تقل هذا يا صاحب الفخامة!».

فالتفت إليّ قائلاً:

«الحق يا كلود أن إحساساً ملحّاً يلازمني منذ انتخابي رئيساً للجمهورية بأنني لن أتمكن من إتمام مدة الرئاسة».

□ □ □

• لطالما لازمت الكوارث بول دوميير في حياته، إذ فُجع بمقتل أربعة أولاد في الحرب العالمية الأولى، وبعدها بأقل من نصف عام ماتت أخته حرقاً. . وغرقت أمه في حوض الاستحمام . . لم يملك من حطام الدنيا غير بضعة أسهم في إحدى الشركات التي أعلنت إفلاسها، فخسر ما لديه من مال.

□ □ □

• يدخل الرئيس الفرنسي إلى معرض الكتاب في القاعة الكبرى، فيلتفّ حوله كبار الكتّاب، وعددٌ من خصومه السياسيين ممن كانوا يوقّرونه ويكّنون له الاحترام رغم اختلافاتهم معه في النهج السياسي. . يجول في قاعات المعرض متأملاً الكتب على الرفوف، واللوحات على الجدران. كان مبتهجاً، مرحاً، بشوشاً، خاصة وهو يمتدح صديقه وزير الثقافة حول كتابه المعروض، الذي بادر بإهدائه إليه.

• في هذه الأجواء المفعمة بالثقافة والمرح والابتهاج وقع هول الفاجعة، إذ ظهر

من باب مواجه لخط سير رئيس الجمهورية الفرنسي، جورجليوف وفي يده مسدسان.. وسرعان ما أطلق ست رصاصات على الرجل المسالم، من مسافة لا تتجاوز المترين.

● تولى أحد الأطباء فحص الجثة الغارقة في الدماء، فأعلن أن الرئيس قد مات.. لكن وزير الثقافة أصرّ على نقل الجثمان بأسرع وقت إلى قصر الإليزيه، حيث اجتمع أركان الدولة يتداولون في صيغة البيان الذي سيُتلى على الشعب الفرنسي.

● في هذه الأثناء، فتح الرجل الذي ظُنّ ميتاً عينيه، بدرت منه حركة.. فألقت زوجته بنفسها عليه وهي تنتحب.. حاول وزير الثقافة إنهاضها، قائلاً لها:

«يحسن أن تأتي معي الآن، حيث ستعنى بك زوجتي».

فأجابته والألم يعتصرها:

«لا يا كلود.. لقد تركته لكم طيلة عمره.. دعوه لي الآن لأعيش معه ولو للحظات».

فاحتضنتْ رأسه، وقد فارق الحياة وهو بين ذراعيها..

زنغا باندي..
بطلة أنغولا!!

زنغا باندي. . لو أنصف المؤرخون، لسجّلوا اسمها على لائحة الشرف للمجاهدين الأبطال في ميدان السياسة والقتال معاً.

لكن للاستعمار أهواء. . وأخطرها أن يطمس الأسماء التي حاربه أصحابها، وأن يؤلّب عليها صغار المؤرخين، ويشتري ذمم كبارهم، كي يلطخوها بالعار وينسبوا إليها كل نذالة وصَغار.

□ □ □

● في النهاية، لا يصح إلا الصحيح. . فما من طفل أو رجل أو سيدة في أنغولا لا يتخذ من هذا الاسم رقية ووردة في كل مناسبة وطنية أو شعبية. .

إنها بطلة من أبطال البلد الأفريقي الذي ظلّ طيلة الستينيات والسبعينيات على كل لسان، وفي كل نشرة من نشرات الأخبار في أنغولا.

● عام ١٤٨٤، نزل الجنود البرتغاليون في القرية الساحلية «لواندا»، الثغر المعروف تلك الأيام في أكبر دولة في أفريقيا الغربية.

● و«أنغولا» هو اسم جدّها.. وعلى اسمه تيمّنت البلاد.. في عهده جاء البرتغاليون تجاراً مستأذنين لممارسة عملهم مع المواطنين شرط ألا يتعدّوا حدود قرية لواندا.

حافظ التجار البرتغاليون على وعدهم بضعة أعوام.. ثم جاش الطمع الاستعماري، فخططوا للاستيلاء على البلاد بأسرها.. على أنغولا!.. مساحتها أكبر من البرتغال بثلاث وعشرين مرة. ظنوا أنها فريسة سهلة، لا سيما أن أنغولا كان رجلاً مسالماً يُحسن الظن بالناس.. أما في عهد والد زنغا، فقد استطاع البرتغاليون التوغل في أنغولا، ليكون لهم في معظم قرى الغرب مراكز تجارية مسلّحة تنهك قوى الأهالي بالخمور ونشر الشائعات عن قدرة البرتغاليين على الاتصال بالقوى الشريرة.. والأهالي يصدّقون. ولا ننسَى أن أوروبا كانت في تلك القرون تحت حكم الملوك دخلوا التاريخ مثل لويس الرابع عشر، وبطرس الأكبر، وكرومويل، وفيليب الثاني.. كانت أوروبا فريسة الخرافات والعقائد الفاسدة.

وكان والد زنغا أول ضحية لوسائل المستعمر.. أغرقوه بالهدايا، وأغلبها الخمور.. أدمن الخمر، وانجرف في الملذات، حتى صحوا يوماً، فإذا به ميت وبالقرب منه زجاجة خمر.. قيل يومها إنها كانت مسمومة.

أسرع القاتل وأمسك بأهل أنغولا قبل أن يمسكوا به!!.. كان أخوها «غامبا» يكره البرتغاليين، فقرر اغتيال أبيه ليمسك بزمام الحكم، ويقف وقفةً راسخة أمام مطامعهم..

وما هي إلا فترة قصيرة حتى استعرت نار الحرب على مدى عدة أعوام.. البرتغاليون لديهم مدافعهم.. وقد وطدوا سلطانهم في كل المدن والقرى الساحلية، وشيّدوا في «لواندا» قلعة حصينة، جعلوها مركزاً لكل نشاطهم الحربي

ضد أخيها «غامبا». . وفي معركة حاسمة، هُزم «غامبا». فاقتادوا عائلته أسرى، بمن فيهم أولاده وأخواته. .

□ □ □

● تقول زنغا في ما عُثر عليه من كتابات:

«لم ينقذني من الوقوع في الأسر إلا الفرار. . حاول أخي إعادة جمع فلول قواته من قلب الغابات للانقضاض مرة أخرى، فأرسل إليه قائد البرتغاليين: إذا حاولت مهاجمة قواتنا مجدّداً، فسنذبح جميع أفراد أسرتك، ونرسل بأرواحهم إلى مملكة الشر ليستمر عذابهم في العالم الآخر.

فعلَ التهديد فعله بأخي، فأرسل إلى لواندا يطلب الصلح أكثر من مرة، لكن شروط المستعمر كانت قاسية. فأرسلني لإجراء مفاوضات شاملة مع قائد البرتغاليين.

واقع الأمر أنني كنت الرأس المفكر وراء تحركات أخي غامبا. كان ذهابي إلى لواندا لإجراء المفاوضات فرصة طيبة جداً لمعرفة العدو الذي نواجهه عن قرب».

□ □ □

ــ كيف نستقبل الأميرة زنغا باندي يا جنرال فرناندو؟

ــ لا تنسوا أنها هي من تقف وراء الحروب التي شنّها أخوها الملك غامبا. . إنها ذكية ماهرة في المفاوضات حسبما علمت. . وبما أنها لا تؤمن بالخرافات والقوى الشريرة، فلنحاول أن نصطنع معها وسائل جديدة.

ــ كيف يا جنرال؟

ــ استقبلوها أعظم استقبال. . أغرقوها بالهدايا. . دعوها تقابل أهلها الأسرى. . فإذا أبدت أية رغبة في الإفراج عنهم، سارعوا إلى تلبية رغبتها بكرم وسماحة. .

دعوها تخرج حرة إلى كل مكان في لواندا، إنما بالحرص المناسب.. إصنعوا لها تاجاً من الذهب المرصّع بالماس وقدموه إليها كأنها الملكة الحقيقية على أنغولا.. باختصار، اكسبوها إلى جانبنا.. عندها فقط تنقلب على أخيها وتقبل الحماية البرتغالية لتاجها الجديد.

● التزم الجنود بما أشار عليهم الجنرال فرناندو.

ـ هل استطاعوا أن يكسبوها إلى صف الاستعمار؟!..

تجيب: لقد توقعت كل هذا.. وتصرفت كأني ابتلعت الطعم.. وعلى مائدة المفاوضات قبلت كل شروطهم لقاء الهدف الوحيد الذي جئت من أجله.. ليس إطلاق سراح أهلي الأسرى لديهم، إذ أفرجوا عنهم فور وصولي.. قبلتُ أن أكون ملكة مكان أخي.. وأن أعقد معاهدة مع البرتغاليين لقاء حصولي على أكبر كمية ممكنة من البنادق والذخيرة. كنت أريد السلاح.. هدفي هو الحصول على السلاح.

ولمّا طالت المفاوضات وظنوا أنني خضعت لشروطهم، فاجأتهم بطلبي:

ـ يا صاحبة الجلالة.. ماذا تفعلين بالأسلحة؟ كل قوات صاحبة الجلالة ملكة البرتغال رهن إشارتك..

ـ يا جنرال فرناندو.. لا أنوي الزجّ بقوات صاحبة الجلالة ملكة البرتغال في الحروب المحلية.. أنغولا محاطة من كل جانب بقبائل معادية تجيد حرب العصابات في الغابات.. اضرب واهرب.. اقتل وانسحب.. أحرق ودمِّر، وخرِّب ثم اختفِ.. هذه هي الحرب التي يجيدها من يحاربون في الغابات، خاصة قبائل «تونغي» و«غياغيا». يعجز الجيش البرتغالي بأجمعه عن إتقان هذا اللون من الحرب المفاجئة.. أما نحن فنجيد التعامل مع جيراننا.. أعطونا السلاح.. البنادق.. الكثير من البنادق، ونحن سنكفل الأمن للأهالي، والتجارة لكم..

ـ إذن نزوّدك بفرقة برتغالية تشارك رجالك في هذه الحرب المفاجئة . .

ـ عجباً . . هذا العرض نفسه الذي قدمته لأخي غامبا القوات الهولندية المتمركزة في الكونغو.

ـ ماذا؟ هل كان أخوك على اتصال بالقوات الهولندية في الكونغو؟

ـ بالطبع . . الحرب هي الحرب يا جنرال . . وعلى المحارب أن يلجأ إلى كل من ينصره على عدوّه . . حين استشارني أخي في الأمر، أجبته بضرورة الانتظار كي أعرف ما سنحصل عليه من الجنرال فرناندو . .

ـ لا أعتقد يا صاحبة الجلالة أن من مصلحة بلادك الحصول على أسلحة من هولندا . . معنى هذا أنك تُمكّنين هولندا من احتلال شمال أنغولا . .

ـ بالطبع لن ألجأ إلى هولندا . . ولكن أطمع حقاً في الحصول على البنادق كي أصمد أمامهم إذا حاولوا الاعتداء على حدودي الشمالية . .

□ □ □

● وحصلتُ على الأسلحة من الطرفين . . حالما تدرّب الرجال في مملكتي على استخدام الأسلحة الحديثة، أعلنت الحرب صريحة على البرتغال، تحت شعار **«أنغولا للأنغوليين»**.

حرب الغابات لا يصلح لها إلا السهام المسمومة والبنادق الخفيفة . . لقد استولت قواتي على الكثير من المدافع البرتغالية، فحطّمتها دون استخدامها . . ما قيمة مدافع بلا ذخيرة؟

أما عن نتائج الحرب بيني وبينهم، فكان الميزان يتأرجح تارةً لمصلحتي، وطوراً لمصلحة الجيش البرتغالي . . استطعت مرة أن أحتل العاصمة «لواندا» مدة شهرين . . لكن الأسطول البرتغالي ظلّ يقصفها بالحمم ليلاً نهاراً، حتى اضطررت

للانسحاب إلى عمق الغابات.. هذه المرة كانت قواتي تزخم خبرة وإيماناً بالنصر.. ثم تمكنت من كسب الهولنديين إلى صفّي.. ليس حباً بي بل كرهاً لعدوهم التقليدي، البرتغال..

□ □ □

● كل من كتبوا عنها قالوا إنها كانت مثال الجمال الزنجي المثير.. لكن أحداً لم يذكر شيئاً عن حياتها العاطفية، أو زواجها..

أما هي فتقول: **الزوج الوحيد الذي وهبته نفسي، هو استقلال بلادي.. والحب الوحيد الذي سكن قلبي هو حبي لأنغولا..**

● لقد عرض الجنرال فرناندو الأعزب الزواج منها إذا اعتنقت الديانة المسيحية.. غير أنها أبتْ: «رفضتُ.. **لأنه بهذا الزواج كان يبتغي ضمان خضوع بلادي إلى الأبد**»... ولم تجد ضيراً في اعتناق الديانة المسيحية.. فنقرأ اسمها في كُتبهم «آنا دي سوزي» بجانب اسم «زنغا باندي»..

● أجّج البرتغاليون ما في قلوبهم من حقد وكراهية عليها، وملأوا به تاريخ كفاحها.. لم يفعلوا ذلك بعد موتها، فحسب، ليثبطوا عزيمة المواطنين المناضلين ممّن حملوا الراية بعدها، بل مارسوه أثناء حياتها. وقالوا ما لا يخطر حتى على بال الشياطين، من قبيل:

ساحرة.. تجيد الكهانة وعلى صلة وثيقة بالشيطان.

تنكّرت للديانة المسيحية، وأحرقت قساوسة بلاطها أحياء.

تستحم في دماء أطفال الأهالي لتحتفظ بنضارة بشرتها وجمال وجهها.

تتحول في الليالي القمرية إلى «غولة» تفتك بالأهالي، وتتمصّ دماءهم.

جيمو كينياتا...
الثائــر المــرح!!

من تابعوا أحداث منتصف القرن الماضي، يدركون عمن نتحدث. .

لم تكن العين تخطئه أينما حلَّ، بنظراته النافذة التي تتغلغل الى أعماق محدثه . . بجسمه الضخم المتين. . بالمنشَّة المصنوعة من ذيل حمار الزرد الأفريقي، والتي يربطها الى معصمه بسلسلة فضية قصيرة. .

هذه صورته المعهودة، سواء أكان في الغابات يتحدث الى مواطنيه بلغته الساحرة البليغة،أم في أرقى صالونات بريطانيا التي تضم علية القوم المثقفين . .

قال عنه أحد أعدائه المستعمرين :

«أخطر رجل في أفريقيا . . المسؤول الأول عن حركة «الماوماو» الدموية التي أثارت الرعب في قلوب المستوطنين في كينيا».

أما عشاقه وأبناء وطنه في أفريقيا فيصفونه:

«إنه أبو الوطن . . الشعار الحي لحرية الأفريقي وحقه في الحياة الكريمة».

ذاك هو جيمو كينياتا رئيس دولة كينيا، الذي تدرج في مناصب الشرف في قبيلته، ليتزعّم القبائل في كينيا دون منازع . .

رفع لواء الثورة على الإنكليز، ولمّا أعياهم أمره قدموه للمحاكمة . . أعلنت النيابة العامة في بريطانيا التهمة بهذه الصيغة:

«تتهم حكومة صاحب الجلالة المدعو جومو كينياتا بالتحريض على أعمال الإرهاب التي تقوم بها عصابة «ماو ماو» الإرهابية، وبالمسؤولية الكاملة عن مقتل ما لا يقل عن ٤٠٠٠ مواطن بريطاني نتيجة أعمال العنف المذكورة، وتُطالب النيابة العامة بتطبيق المادة (٣٣) من قانون العقوبات، التي تقضي على من يقوم بهذه الأعمال بالإعدام شنقاً».

وإذ حاول الإعلاميون حضور المحاكمة، فوجئوا بأن الحكومة البريطانية نقلت المحاكمة الى مدرسة نائية على ارتفاع سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر، تحيط بها المدافع البريطانية من كل جانب، مبرّرة الفعلة بأن كينيا بأسرها ثائرة على اعتقال زعيمها، فيخشى الإنكليز هجوم الأهالي على المحكمة لتحرير زعيمهم.

لكن ثمة من حالفه الحظ لحضور المحكمة، ونقل وقائعها، لتُنشر في ما بعد، حيث تضمّنت الاستجواب بين كينياتا والادعاء العام والقاضي. استهلّ القاضي الاستجواب بالقول:

ـ لتتكرم النيابة باستجواب المتهم، بعدها يتولى الدفاع مهمته.

فيجيبه كينياتا:

ـ سيدي القاضي. . أشكر السيد المحامي الذي تطوع للدفاع عني، ولا شك عندي في براعة ما جمعه من أدلة لإثبات براءتي . . ولكني أرجو من المحكمة ـ مع اعتذاري الشديد من السيد المحامي ـ تفويضي الدفاع عن نفسي . .

ـ حسناً . . هذا من حقك . . الآن جاء دور النيابة.

ـ سيدي القاضي . . دعني أسأل المتهم عن بعض جرائمه. . ألستَ يا سيد كينياتا من كتب في جريدة عصابتك أن الأفريقي ليس أعمى. . وأن في استطاعته . .

ـ [كينياتا مقاطعاً] ليسمح لي السيد النائب العام، إني أحفظ عن ظهر قلب كل ما كتبته يا سيدي. . وأنا أعفيك من قراءة ما جاء في مقالتي، وسأتلوها عليكم غيباً. . أجل، قلت: الأفريقي ليس أعمى، وإن في استطاعته أن يهتك الأستار عن أولئك الذين يتظاهرون كذباً بالرحمة الانسانية . . وها هو ذا يستيقظ من سباته، فيدرك أن أحداً لا يستطيع سدَّ مجرى النهر الدافق إلى الأبد دون أن يفيض الماء على جانبه ويحطم شاطئيه . . لقد حيل بين الأفريقي والتعبير عن إرادته، ولكنه يشق طريقه رغم ذلك وسيجرف أمامه شتى صنوف القهر والطغيان المحيطة به».

ـ . . اذاً أنت تعترف بتزعّم من ينوون أن يجرفوا أمامهم المستوطنين البيض؟

ـ وهل هناك شك في هذا؟ أنت ترى في هذه نقطة لمصلحة قضيتك! وأنا أراها نقطة لمصلحة براءتي!

ـ إنك أيضاً تعترف بتزعّم عصابة الماوماو.

ـ [ضاحكاً] سيدي النائب العام . . هكذا أنتم دائماً تخيفون أنفسكم بأنفسكم . .ماوماو هذه خرافة يا سيدي . . فكينيا كلها جماعة واحدة ثائرة وستظل كذلك. . هدفنا الحصول على الاستقلال والحرية . .

ـ هل تعتقد أن جماعة ماوماو قادرة على تحقيق أهدافك؟

ـ [يضحك] ما زلت تُخيف نفسك وتريد دفع الخوف أيضاً إلى قلوب السادة

أعضاء المحكمة . . إسمع يا سيدي . . إسمعوا جميعاً . . سأردّ على سؤال السيد النائب العام بكلمة قصيرة توضح الأمر كله . . لا نريد أن نطرد الرجل الأبيض، إنما نريد أن يعيش معنا مواطناً، وزميلاً . . فنحن لا نقبل أن يعيش هو مترفاً بينما نموت نحن جوعاً، أو يرفل هو بالثياب الفاخرة، بينما نكتسي نحن بالخرق البالية وجلود الحيوانات . . عشرة آلاف رجل أبيض يعيشون عيشة التخمة، بينما يموت ستة ملايين من مواطنيّ جوعاً! أتذكر يا سيدي أول حديث دار بيني وبين القائد البريطاني الذي طلب مفاوضتي؟ حسناً . . سأذكره لكم، إنه يعطيكم صورة واضحة عما تريدون، رغم ما تصيح به أبواق دعايتكم . .

يتدخل القاضي:

ـ إنك تخرج عن موضوع التهمة يا سيد كينياتا.

ـ حقاً ؟ وما يضيركم لو استمعتم الى الحديث ؟ حين دخلت عليه أجلسني بأدب بريطاني . . ثم . .

ـ تجنّب أيها المتهم التعريض برجال الحكومة.

ـ [مرحاً] سيدي، أتكلم عن الأدب البريطاني المشهور . . أنا أيضاً تعلمته منكم حين كنت طالباً في أكسفورد، وعلمته لتلاميذي حين كنت مدرساً في تلك الجامعة . . إذاً أجلسني قائدكم المحترم، وقال لي :

ـ سنجعل منكم شعباً متمدناً . . أطلب ما تشاء يا سيد كينياتا.

ـ علِّمونا . . علِّمونا، شرط الإبقاء على تقاليدنا . .

ـ حسناً . . سنبدأ بتعليم الأهالي قواعد الحساب، وهذا لا يتأتى الا بتطبيق قوانين الضرائب . . فالضرائب يا عزيزي كينياتا هي الرابطة الحقيقية بين عقل الانسان والحساب.

فتضج قاعة المحكمة، ويتدخل النائب العام.

ـ سيدي القاضي . . يحاول المتهم جعل محاكمته فرصة للسخرية من الرجل الأبيض وحضارته.

ـ [ساخراً] أهذه تهمة جديدة يا سيدي النائب؟ . . يا لسوء حظي! لم أفرغ بعد من الرد على التهمة الأولى!

ـ تلفت المحكمة نظر المتهم الى ضرورة التزام الجدية في رده على أسئلة النيابة.

ـ لم أكن يوماً جاداً كما في هذه الساعة يا سيدي القاضي . . ليس خوفاً على رقبتي، فأنا أعرف تماماً قدر عدالة المحكمة . . و . .

ـ ها هو يعود الى السخرية يا سيدي القاضي . .

ـ [مرحاً] كيف أسخر وأنا حزين، فالسادة أعضاء حرس المحكمة جردوني من المنشَّة التي تحميني من البق؟ وبمناسبة المنشَّة، أمسك بها دائماً في دلالة إلى عجز السلطات البريطانية في كينيا عن ردم مستنقع واحد. هذه المنشَّة يا سيدي القاضي ــ وما أحزنني اذ حرموني منها ــ مصنوعة من ذيل حمار الزرد. . .

ـ مرة أخرى ألفت نظر المتهم الى ضرورة الالتزام بحدود التهم الموجهة إليه.

ـ أقسم أني ملتزم حدود التهم. . ولكن منشَّتي تذكرني بأسطورة شعبية يتناقلها الأبناء عن الآباء، هي خير تعبير عما بيننا وبين المستوطنين من خلاف . . يزعم هؤلاء الأجداد أن فيلاً عقد أواصر صداقة مع إنسان. هبَّت ذات يوم عاصفة عاتية، فقصد الفيل صديقه الإنسان الذي يملك كوخاً صغيراً على أطراف الغابة. .

ـ لا تخرج عن الموضوع أيها المتهم.

ـ يا سيدي القاضي، أنا في صُلب الموضوع . . إذا سمحت لي برواية صداقة الفيل مع الإنسان . .

ـ قل ما تريد، لكن لا تخرج عن الموضوع.

ـ (شكراً سيدي القاضي . . جاء الفيل إلى الإنسان وقال:

ـ يا صديقي العزيز، هلاّ سمحت لي بإدخال خرطومي في كوخك . . المطر غزير كما ترى، ولا أجد لي صديقاً غيرك أحمي خرطومي في كوخه . .

ـ أهلاً بك يا عزيزي الفيل. كما ترى كوخي صغير، ومع ذلك يتسع لي ولخرطومك . . تفضل بإدخال خرطومك.

ـ سأدخله من باب الكوخ برفق، يا عزيزي. إطمئن . . لن أُدخل غير خرطومي.

ـ معذرةً. كان بودي أن أدعوك كلك إلى الدخول، ولكن الكوخ لن يسعنا طبعاً.

ـ لا، يكفي خرطومي يا صديقي العزيز.

وما إن أدخل الفيل خرطومه، حتى احتلّ حيّزاً واسعاً من الكوخ. فبرّر الفيل ذلك لصديقه الإنسان:

ـ إطمئن . . الواقع أنني لا أريد لجزء منه أن يبقى في الريح والمطر . .

ـ ولكنك يا عزيزي الفيل تدفع جسمك شيئاً فشيئاً إلى داخل الكوخ! يا إلهي، أمسيت بجسدك كله في الكوخ . . وها أنذا أغدو خارجه، والمطر يتساقط.

ـ دعني أسترح داخل الكوخ. . ألا ترى أنه لن يتّسع لكلينا.

ـ وهل أبقى في المطر وأنا صاحب الكوخ ؟

ـ الحق يا صديقي أن جلدك أسمك من جلدي . .و . . . و . .

ـ ماذا ؟ جلدي أنا الإنسان، أسمك من جلدك أنت الفيل ؟

ـ بالطبع، لذا لن تتأثر بالمطر أو العاصفة.

ـ ولكني صاحب الكوخ! أخرج أيها الفيل . . أخرج ولا تضطرني لأن أشكوك إلى الأسد ملك الغابة.

ـ يا عزيزي الإنسان، ابتعد عني ودعني أنمْ).

ـ مبتغاك يا سيد كينياتا ؟

ـ دعني أكمل الحكاية يا سيدي القاضي . .

حيث لجأ الإنسان صارخاً باكياً للأسد، فما وجد من الأسد إلا الزئير في وجهه قائلاً :

ـ ما هذه الضجة ؟ . . كيف تقلقون راحتي . .وأنت أيها الفيل ماذا تقول في الشكوى المتقدم بها هذا الإنسان ؟

ـ يا سيدي، ومليكي، ومولاي الأسد، ليس هناك من تعكير لصفو السلام في مملكتك. كل ما في الأمر أنني أتناقش بهدوء مع صديقي الإنسان حول ملكية الكوخ الصغير الذي تراني أشغله الآن . . فأنا أعتبره ملكي لأنني بداخله.

ـ أنا من كان داخل كوخي أيها الأسد، فرجاني هذا الفيل أن أسمح له بإدخال خرطومه احتماءً من المطر، وإذا به يدخل كله في الكوخ ويطردني منه . . فما حكمك أيها الأسد ؟

ـ حكمي أن هذه المسألة ليست هينة . . والأقوال فيها متضاربة.

ــ أيها الأسد، طالما مررت قرب هذا الكوخ ورأيتني بداخله!

ــ نعم . . ولكن ربما التحقيق سيُظهر الحقيقة . . لهذا آمر بتعيين لجنة تحقيق حول هذه المسألة وتقديم تقرير عنها. . أظن أن هذا يرضيك أيها الإنسان.

ــ ولكن يا ملك الغابة . . إن . .

ــ [بسرعة] أرى أنك رضيت . . حسناً . . سنأمر بتأليف لجنة تحقيق من السيد قشطة والأستاذ جاموس والعظيم تمساح والشريف ثعلب، يضُاف إليها نمر، ويُعيَّن الفيل سكرتيراً عاماً للجنة.

ــ سيدي الأسد . . السيد فيل هو خصمي في القضية!

ــ وأي ضير في هذا . . هو من رجال الدولة المخلصين!

ــ تقضي العدالة يا سيدي الأسد في هذه الحالة، أن تضم اللجنة عضواً يمثل وجهة نظري على الأقل.

ــ هذا مستحيل يا عزيزي الإنسان . .

ــ لماذا ؟

ــ لأنه لا يوجد في الغابة مَنْ بلغ من التعليم حداً يمكّنه من إدراك قوانين الغابة المعقدة. . ليس ثمة داعٍ لتخوفك، فأعضاء اللجنة جميعاً معروفون بالاستقامة والعدالة. إن الله اختار هؤلاء السادة للعناية بأمر الأجناس التي لم توهب كفايتها من المخالب والأنياب. . فعليك أن تطمئن اذاً إلى عدالتهم. . على اللجنة أن تبدأ عملها في الحال وترفع تقريرها إلينا لنعلنه للطرفين.

ــ سيدي القاضي إن المتهم يبتعد بنا عن القضية المطروحة.

ـ بصفتي قاضي هذه الجلسة أرجو من السيد كينياتا أن يكون في صلب الموضوع، وألا يؤدي بنا إلى سرد قصته الحيوانية.

ـ سيدي القاضي سأختم بعد أن تستمعوا إلى قرار اللجنة!

ـ تفضل . .

ـ بالطبع، جاء قرار اللجنة التي تناولت غداء عمل شهياً على مائدة سكرتيرها العام السيد فيل، مؤيداً لوجهة نظره في ملكية الكوخ . . وذهب الثعلب ـ الشريف ـ لإعلام الإنسان بقرار اللجنة التالي :

«ترى اللجنة أن هذا النزاع قد نشأ عن سوء تفاهم يرجع إلى تخلّف آراء الإنسان . . نرى أن السيد الفيل قد أدى واجبه المقدس بالدفاع عن مصلحتك . . ولما كانت هذه المصلحة تتحقق بتوفير السكن لك، ولما كنتَ لم تبلغ بعد مرحلة النمو العقلي التي تتيح لك تحقيق هذه المصلحة، فقد رأينا من الضروري أن نقترح حلاً وسطاً يُرضي كلا الطرفين: أن يستمر السيد الفيل باحتلال كوخك، على أن نأذن لك بالبحث عن مكان آخر تستطيع أن تُقيم فيه كوخاً يفي بحاجاتك البسيطة، ونتعهد عندئذ بالمحافظة عليك».

وتكرر الأمر. كلما بنى الإنسان كوخاً، استُلب منه بقرار من اللجنة الموقرة . . أخيراً رأى الرجل أنه هو من حُرم نعمة الناب والمخلب، وأن لا مفرّ من استخدام عقله، فظل أعواماً ثلاثة يجهد ويشقى في عمل متصل، حتى بنى كوخاً فسيحاً جميلاً رائعاً . . وقف على بابه يتمتم لنفسه مبتسماً :

ـ ما من دابة على الأرض يستحيل صيدها. يستطيع الأسد أن يخدعني بعض الوقت، لكنه يعجز عن خداعي إلى الأبد. . سنرى الآن من يضحك أكثر من سواه. .

مرَّ أعضاء اللجنة أمام الكوخ الكبير، وأسرَّ كلٌّ في نفسه أن يحتل الكوخ في الغد.. كان الأسد نفسه أسرعهم.. لكنه اضطر لمواجهة الفيل ووحيد القرن والنمر والثعلب والضبع والتمساح والجاموس.. كان كل من هؤلاء يطمع في أن يصبح وحده صاحب الكوخ الأنيق.. لم يكن من المعركة بدٌّ.. ووقعت أيها السادة.. وتقاتل الجميع داخل الكوخ فتهدّم عليهم جميعاً.. أما الرجل الواقف متفرّجاً، فكان يتمتم بأسف

ـ ما أغلى ما يتكلفه السلام، وما أجدره بالثمن..وسرعان ما بنى كوخاً جديداً آمناً من اللجنة الموقرة.

□ □ □

● حالما أكمل جيمو كينياتا قصته هذه، سعت النيابة إلى استدراجه للكلام في التهمة، فقال:

ـ أيها السادة، لقد قلت كلمتي وأُحب أن أستريح.. أرجو ألا يضايقكم شخيري إذا غلبني النعاس..

□ □ □

وصدر الحكم عليه بالسجن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة..

خرج بعدها جيمو كينياتا ليتابع مسيرة الاستقلال والحرية لشعب كينيا.. حتى تحقق له ما أراد، ونالت بلاده استقلالها كاملاً، وارتفع علمها فوق أعلى جبل في كينيا: الجبل الذي أطلقوا عليه اسم جبل كامو، تيمّناً ببطل الاستقلال جيمو كينياتا.. إنه الجبل الذي تقع فيه المدرسة حيث جرت محاكمة كينياتا.

روكفلر
هذا الملياردير.. كان فقيـراً!!

● في العاشرة من صباح السادس والعشرين من أيار/مايو عام ١٩٣٧، توقف العمل في جميع آبار النفط في العالم كله مدة خمس دقائق. . عند منشآت التنقيب والضخ، وفي مكاتب إدارات الشركات العاملة في ذلك المجال. . القطارات التي كانت في تلك اللحظة تحمل ملايين البراميل في طريقها إلى نقاط التسويق، وحاملات النفط في جميع بحار العالم، أطلقت صفاراتها طويلاً.

حينها، كانوا في مدافن كليفلاند في الولايات المتحدة، يوارون في التراب جثة أعظم الرواد في مجال النفط!

ختم القس موعظته القصيرة على القبر:

«من التراب. . وإلى التراب تعود».

● وصدق، عاد التراب إلى التراب، لكن بعدما خلّف لورثته أكبر ثروة حققها

إنسان في العالم أجمع، بمفرده، وبجهده الشخصي، وعلى مدى عمر بلغ الثامنة والتسعين!

هو جون ديفيدس روكفلر.

□ □ □

● ورد في تقرير مكتب التحقيقات الفدرالي:

سدّد جون روكفلر لضرائب الدخل ستة ملايين ومائتي ألف دولار عن دخله عام ١٩٢٤: دخله الخاص وليس دخل شركاته الكثيرة العاملة في مجال واحد لم يقرب غيره طيلة حياته.. مجال النفط!

كيف يمكن إنساناً بمفرده وبجهده الشخصي أن يحقق في أيامنا هذه من عمل شريف ثروة كالتي حققها روكفلر؟

مستحيل بالطبع.. كانت ظروف النصف الثاني من القرن التاسع عشر تختلف كلياً عن أيامنا هذه.

كيف حقق روكفلر ما عجز عنه كل العاملين في مجال النفط آنذاك؟

من الفقر المدقع، إلى ثلاثة مليارات دولار.. ثروة شخصية لا تشتمل شركاته الكثيرة العاملة في مجال النفط. يقول في مذكراته:

ـ أعتقد أنني انتهزت كل فرصة ممكنة دون تردد.. لم أغشّ.. لم أخدع.. لعبت بأمانة.. ربما بقسوة، لكن بأمانة. اعتنقت المبدأ الذي أشار إليه أبي ذات يوم، وإن لم يعمل هو نفسه به، قال لي:

ـ جون، لا تعمل من أجل المال.. بل دع المال يعمل من أجلك..

ـ اتخذت من هذا المبدأ الذي لم يحسن أبي تطبيقه شعاري الأوحد. . وما كنت بقادر على الأمر لولا ذلك اليوم الذي أجلستني فيه أمي قبالتها، وأنا صبي في العاشرة، وقالت لي:

ـ كرّر من بعدي يا ولد: أنا جون روكفلر، أقسم على ألا أتخذ من أبي نمطاً لحياتي، وأن أحترم أوامر الخالق العظيم ونواهيه. . وأن أتفادى الإسراف في كل لحظة من حياتي، وألا أقرب ما عشتُ دولاراً واحداً من حرام، وألا أدخّن أو أتردد على البيوت ذات السمعة السيئة، وأن أتزوج حين تتاح لي الفرصة بفتاة متدينة مقتصدة غير مسرفة تجيد الطهو وتربية الأطفال. .

وأقسمتُ كما أرادت أمي، وإن كنت ساعتها لم أفهم الكثير من معاني ذلك القسم. . ولم أحنث لحظة واحدة طوال حياتي بأي جزئية من جزئياته.

● يثير عجبنا في هذا القسم إصرار الأم على البدء بهذه الجملة اللافتة:

«أقسم على ألا أتخذ من أبي نمطاً لحياتي».

من يعرف دقائق حياتها مع الزوج، والد جون روكفلر، يلتمس لها الأعذار. فهي تقول:

ـ لا أدّعي أن زواجي من جون ديفيدس روكفلر هو غلطة حياتي. . تلك إرادة الله. . ومن يعرف جون روكفلر على حقيقته يباعده كما يباعد الموت. . لكن مظهره بريء ومشجّع لأي فتاة تطمع في الزواج. . طويل عريض كالجدار. . قوي. . ضاحك الوجه. . يحب الحياة. . هي سمات أحبّها، فأحببته. . إلا أنني لم أدرك أن جون لم يُخلق ليستقر ويكوّن أسرةً ويرعاها. . فاجأني يوماً:

ـ إليزا. . لقد مللت الإقامة في هذا الكوخ. . أنا ذاهب. .

ـ إلى أين يا جون؟

ـ لأمارس مهنتي الحقيقية. هل نسيتِ أنني طبيب؟ دكتور جون ديفيدس روكفلر.

ـ ما أخشاه أن يُقبض عليك ذات يوم بتهمة ممارسة الطب دون إجازة طبية.

ـ لا تخافي، أنا لا أؤذي أحداً. . صحيح أنني أعالج السرطان والدرن والإسهال والروماتيزم، إنما بأدوية لا تضر.

ـ ولا تنفع!

ـ من يقول إن الماء المحلّى بالسكر لا ينفع؟ أعدّي لي العربة والجواد.

ـ جون، من يعيلني وولدك الصغير؟

ـ أنا بالطبع. هل يلزم أن أعيش مقيّداً إلى هذا الكوخ؟ سآتيكم بين الحين والآخر وجيبي مليء بالنقود، وقطع الذهب أيضاً!

ـ قطع الذهب؟ أي مجنون هذا الذي يدفع لك أجرة العلاج الكاذب ذهباً؟

ـ الهنود الحمر يا إليزا. . إما أن آخذ ذهبهم. . وإما أن يسلخوا فروة رأسي!

□ □ □

● لطالما عاد أبي بفروة رأسه سليمة. كانت له طريقته في خداع الهنود وغير الهنود أيضاً. لكن المحظور الذي حذّرته منه أمي وقع ذات يوم. . سمعتها تصيح:

ـ ماذا تفعلون بأثاث الكوخ؟

ـ سيدتي، لدينا أمر من المحكمة بتوقيع الحجز على كل أملاك جون ديفيدس روكفلر، استيفاءً لما عليه من ديون.

ـ وأين جون؟ أهو في السجن الآن؟

ـ كلا، لقد فرّ. . لا ندري إلى أين. . إذا جاء إلى الكوخ فعليك أن تخطري مأمور المنطقة. . هو مطلوب بتهمة النصب والاحتيال وممارسة الطب من دون إجازة.

● ولم يقبضوا إطلاقاً على جون ديفيدس روكفلر. . رغم أنه غالباً ما تسلّل إلى الكوخ الخالي من الأثاث.

ـ لن أمكث طويلاً معكما. فالشرطة، كما تعرفين يا إليزا، في أعقابي. . خذي هذا المبلغ. ألم أصدق معك في وعودي؟

ـ جون، لماذا لا تسلّم نفسك، فتقضي عاماً في السجن ثم تخرج وتتفرغ لزراعة قطعة الأرض المحيطة بالكوخ؟ بمقدورك أيضاً شراء مزرعة صغيرة، والاستقرار. . ولدك جون بحاجة إليك.

ـ آسف يا إليزا، لا أطيق المكوث في مكانٍ واحد. . لو بقيت لاختنقت ولأحلت حياتك وحياتي جحيماً بالشجار والخصام. وأودّ الاحتفاظ بحبك لي. . كيف هو جون؟

ـ نائم. . إنتظر حتى أوقظه لك. .

ـ لا. . سأقبّله في فراشه. . وأقبلك أيضاً!

● وكتب جون عن تلك الحقبة في مذكراته:

ـ هذه الزيارات الليلية السريعة أثمرت ولدين آخرين. . ورغم ما كنا نعانيه من فقر وضنك، لم يكف أبي عن «إتحاف» أمي بأطفال جدد خلال زياراته المسروقة تلك! أصبح عددنا خمسة. . وفجأةً اختفى أبي تماماً. .

□ □ □

● ذات يوم، أعلنت السيدة إليزا وفاة الزوج.. ومع هذا، فمؤرّخو الملياردير الشهير، أطلقوا عن اختفاء أبيه المفاجئ أقوالاً مثيرة.

ـ وجّهت الحكومة إلى «بيل الكبير» ـ اسم الأب الذي اشتهر به ـ تُهماً متعدّدة، آخرها سرقة الجياد.. ومن المؤكد أنه كان ضالعاً في المجال، فلم يكن ثمة من هو أبرع منه في «صبغ» الجياد المسروقة بألوان مختلفة عن ألوانها الحقيقية.. وهو فن اكتسبه من علاقاته اللصيقة بالهنود الحمر.

● مؤرخ أميركي آخر هو وليم آلان يقول:

ـ إن الحكم الصادر على «بيل الكبير» بالحبس مدة ثلاثة أعوام، مردّه جريمة اغتصاب إحدى الفتيات من ولاية نيويورك.. ولولا أن الفتاة أنكرت أمام المحكمة لجوء بيل إلى الإكراه في فعلته، لكان مصيره الشنق.. ولقد راجعت بنفسي ملف القضية، فلم أجد ما يشير إلى هذه التهمة، بجانب تهمة سرقة الخيل والنصب والاحتيال.. لكن ترقيم الصفحات في الملف يؤكد ضياع عدد كبير منها.. لا ريب في أن «المال» لعب فيما بعد دوراً رئيسياً في اختفاء الصفحات الخاصة بجريمة الاغتصاب!

● أين اختفى إذاً «بيل الكبير»؟ هل مات كما أكدت زوجته؟

وقفتْ أمام حشد من الناس يوماً:

ـ كيف تحارون في ما لا تعرفون؟ هذا خطاب قس قرية «أنطونا» في نيوجرسي، يثبت لي فيه أنه تلقى اعترافات زوجي وهو على فراش الموت، وأنه حضر الصلاة عليه في كنيسة القرية، وشهد دفنه. . أنا الآن أرملة جون ديفيدس روكفلر!

● ويجزم وليم آلان:

السيدة تكذب.. أو في أحسن التقديرات هي مخدوعة برسالة القس المزعوم.. لقد سألت القس في قرية «أنطونا» فنفى علمه بالرسالة، أو بأيّ شخص يدعى «بيل الكبير» أو «جون ديفيدس روكفلر».. حتى عام ١٨٥٠ كان يعيش على الحدود الكندية رجل يدعى «وليم ليفينغستون» يزعم أنه طبيب يعالج السرطان والدرن والإسهال والروماتيزم، ويستعمل الماء المحلى بالسكر دواءً.. هو متزوج من كندية حسناء.. حين عرضنا عليها صورةً لجون ديفيدس روكفلر، في غيابه، قالت: يا إلهي.. لا ريب في أنه شقيق زوجي.. إنه صورة طبق الأصل من وليم..

□ □ □

● أكان الأب لا يزال فاراً من العدالة، ومن أسرته أيضاً حتى عام ١٨٥٠؟ يقول أحد مؤرّخي سيرة روكفلر:

ــ لقد عاش «وليم ليفينغستون» حوالى مائة عام ــ إحدى سمات أسرة روكفلر. ولطالما تردّد سرّاً على قصر ولده الملياردير «جون روكفلر».. فيعامل معاملة خاصة، ويقف أمامه جون روكفلر في احترام وتوقير، لا يلقاهما إلا الأب من ابنه!

أياً تكن حقيقة اختفاء الأب البوهيمي النزعات جون ديفيدس روكفلر، فولده جون لم ينسَ لحظة ما قالته أمه:

«كرِّر من بعدي يا ولد.. أنا جون روكفلر.. أقسم على ألا أتخذ من أبي نمطاً لحياتي».

● يورد الملياردير في يومياته:

ــ كان أبي شديد الإسراف، فقررت الاقتصاد إلى حد البخل.. كان لا يعرف قدر المال.. فقررت الانحناء في احترام أمام الدولار.. كان يكره الاستقرار في مكان واحد.. فعزمت على ترسيخ جذوري في الأرض حيث ولدت. أهداني أحد

الجيران ممّن أُعجب بقدرة أمي على رعايتنا رغم الظروف القاسية، ديكاً رومياً صغيراً في عيد الميلاد.. لم أذبحه.. تعهّدته بالرعاية، ثم بعته بأربعة دولارات.. أول أربعة دولارات كسبتها في حياتي.. وحتى اليوم ما زلت أحتفل بالحدث حين أودعت الدولارات الأربعة في حساب خاص باسمي في بنك كليفلاند.. بعد ثلاثة أشهر، قال لي صرّاف البنك:

ـ جون، لقد دوّنا لحسابك أرباحاً عن مبلغك.

وتذكرت الحكمة الوحيدة التي ندّت يوماً عن شفتي أبي، **«لا تعمل من أجل المال.. بل دع المال يعمل من أجلك»**. قررت أن تكون شعاري في الحياة.. إنها النصيحة الذهبية في عالم الرأسمالية.. صدرت عفواً من فم رجل قضى حياته يبعثر المال على النساء وموائد القمار!

لم أكن أهتم بالأدب أو الشعر أو الفنون على وجه العموم.. لم أشعر أمامها بأي إثارة، في حين كانت كل عضلة في جسدي تنتفض أمام الدولار.

يقولون هذه الأيام إنني راعي الفن والأدب والموسيقى في أميركا. أجل. أفعل هذا بعدما أحسست بحاجة ملحّة إلى دخول هذا العالم المسحور الذي حرمت نفسي منه في شبابي أيام الصراع، عن عمد ودون تقدير حقيقي لقيمته.. لقد دفعتُ مليون دولار ثمن لوحة لا تزيد على ٣٠×٤٠ سنتيمتراً للفنان الإسباني غويا. وصدقوني إذا قلت إنني أطيل النظر إلى صورة بنجامين فرانكلين على الورقة من فئة المائة دولار أكثر مما أنظر إلى لوحة غويا.

● يروي روكلفر هذه الحكاية القديمة:

ـ قالت لي أمي ذات يوم: جون، لقد حصلت على تعليم مناسب في مدرسة التجارة، آن لك التفرّغ لزراعة الأرض المحيطة بالكوخ!

ـ أنا لا أصلح للزراعة يا أماه.. فسأبحث لي عن عمل في المصرف الذي أودع فيه أرباحي.

ـ كم لك الآن في المصرف؟

ـ ألف دولار..

ـ يا إلهي، ألف دولار؟ كيف جمعت هذا المبلغ يا جون؟

ـ لم أجمعه أنا يا أماه.. هو الذي جمع نفسه.. أربعة دولارات ثمن الديك الرومي، بإضافة بعض الهبات من الجيران، وهبة كبيرة قدرها مائة دولار، من مدير المدرسة يوم تخرجت متفوّقاً في الحساب.. المجموع مع الأرباح، ألف دولار..

ـ وماذا تنوي أن تفعل بهذا المبلغ يا جون؟

ـ أماه، السؤال هو: ماذا سيفعل هذا المبلغ بنفسه؟ وإني لأرجو أن يحسن التصرف!

وانطلق إلى الحياة.. إلى الصراع الرهيب من أجل المال.. المال الكثير.. مذ بدأ كاتباً للحسابات في إحدى شركات التعدين، حتى غدا مالك الشركة، وصاحب أكثر من مائة شركة أخرى في جميع أنحاء العالم تعمل كلها في حقل واحد هو حقل النفط.

وصار قارون عصر الثلاثينيات من القرن العشرين.. حيث غدا اسمه رمزاً للثراء!

● عندما تصفحنا يومياته، وجدناه جُبل على اللاخوف من أحد، أو من شيء. فقد كتب كل التفاصيل.. حتى التي تشينه..

تمحورت حياته حول مراقبة دقيقة لحساباته في البنوك، وارتفاع نسبة الفائدة على الدولار أو انخفاضها. . هذه النسبة هي معيار مزاجه الخاص. . يبتهج ويسعد مع ارتفاعها، ويحزن وينقبض ويتجهّم للناس مع انخفاضها. .

● ورأينا كيف جمع أول ألف دولار وهو بعد كاتب للحسابات في شركة شركة «هويت وتَتِل» للنقل. ويقول في هذا الصدد:

ـ كان في كوخنا القديم في كليفلاند، سجلٌ سميك جعلته أمي ليدوِّن كل من أبنائها ما يكسبه وما ينفقه. حين غادرتُ الكوخ وبات لي بيت مستقل في كليفلاند، أخذت هذا السجل معي. . وإنك لتجد في صفحاته أنني دونت كل دولار دخل حسابي المصرفي. . وكل دولار أنفقته. . من يزعم أنني كنت بخيلاً مقتّراً، فليقلب صفحات ذلك السجل، وليقرأ. .

«خمسة دولارات منحة للكنيسة». .

«٦٠٠ دولار لمدرسة الأحد في الكنيسة». .

«إقترضت اليوم ألفي دولار من المصرف، إثر استقالتي من الشركة التي أعمل فيها». .

نواصل أوراق السجل حتى عام ١٩٢٦ لنقرأ:

«٤٠٠ ألف دولار لأعمال خيرية مختلفة».

صفحة قريبة جداً من تاريخ وفاته:

«أرغمني أحد الصحافيين بكلماته اللطيفة على التبرّع لما سمّاه «مؤسسة روكفلر لرعاية المعوقين» بمبلغ مليون دولار. . يا إلهي».

لم يكن بخيلاً كما حاول منافسوه ـ أخطرهم الملياردير أندربلت ـ تصويره

لمواطنيه الأميركيين. إنما يتضح تبرّعه عن غير رغبة حقيقية. . في بادئ الأمر كانت زوجته تدفعه إلى التبرع للكنيسة. . أما بعدما صار ملء السمع والبصر في العالم أجمع، فالصحافة، بوخزاتها الأليمة، هي التي كانت تدفعه إلى التبرع. . ولكنه يقول:

ـ لم أكن أخشى الصحافة. . ولكنني كنت أحترم الصحافيين. . لم أكن أخشاها لأن أحداً يعجز عن رصد بقعة سوداء في صفحة حياتي. . وحتى الذين اخترعوا القصص والحكايات أفلسوا صحافياً حين اكتشف الناس أكاذيبهم. .

● وصدق الرجل. فقد عاش مذ كان شاباً حتى بلغ الثامنة والتسعين، نظيفاً طاهراً. . كان دوماً أنيقاً، كأنه ذاهب إلى عرس. . يقول في مذكراته:

ـ حتى حين كنت كاتب حسابات في شركة «هويت وتتل»، كنت أقضي نصف ساعة في الحمام، في التزيين وتصفيف شعري وتنظيف حذائي قبل انصرافي من المكتب.

● يصفه زميله وشريكه، لاحقاً، وليم كلارك:

ـ لولا يقيني أن جون روكفلر لا يهوى القراءة، لقلت إنه قرأ ما كتب كازانوفا عن الرجل الناجح. . قال كازانوفا، كأنما يصف جون روكفلر الذي ظهر بعده بثلاثمائة عام: «الرجل الذي يخرج إلى الحياة ليجمع ثروة كبيرة يجب أن يكون لين المدخل والمخرج مع الناس، يحسن إخفاء أفكاره، يستمع أكثر مما يتكلم. . لا يدع أحداً يقتحم حديقة أفكاره وأحاسيسه الخاصة، مهما كانت درجة الصداقة أو القرابة. . صادقاً. . يظهر لمن حوله، بذكاء، أنه يعرف في أمور الدنيا أقل مما يعرفون، وإن كان يفوقهم جميعاً معرفة في نوع العمل الذي اختاره لنفسه، صبوراً. . يحسن التحكم بتقاطيع وجهه. . قادراً على اتخاذ قرارات مصيرية في لمح البرق، قد تكون قاسية في كثير من الأحيان.

● بانتقاله إلى كليفلاند، كانت الأم الحازمة الصارمة ترافقه دوماً. كانت تخدمها فتاة جميلة تدعى مليندا.

ـ جون، ما حقيقة علاقتك بالخادمة مليندا؟

ـ أحسب يا أماه أنني أحبها.

ـ إذن دعنا نرجعها إلى أمها حتى تتزوجا.

ـ وهل ترضى أمها؟ قالت لي مليندا إنه تقدم لها أحد القصابين الشبان، فرفضته أمها معلِّقة: «لن أزوجك إلا لمن يكسب ألفي دولار في العام».. تعرفين يا أماه أنني لا أكسب أكثر من خمسمائة دولار من مرتبي في الشركة وأرباحي من رصيدي في المصرف.

ـ ما دمت تحبها، دع الفتاة تكلم أمها.. وحتى تفعل ذلك فإني أحظر عليك الخروج معها إلى ضفة النهر، أو الاختلاء بها في البيت!

● وسألت مليندا أمها.. وجاءت بالرد إلى السيدة إليزا والدة جون:

ـ لقد رفضت الأم قائلة، «لن أزوج ابنتي من كاتب حسابات فقير».. وعلى هذا، أعدتُ مليندا إلى أمها.. بقاؤها في الدار مع العلاقة بينكما، يشكل خطراً على مستقبلك ومستقبلها!

● لم يبكِ الفتى جون، ولم يجلس ليكتب لواعج قلبه في رسائل إلى المحبوبة.. ولم يقرأ قصص الحب الفاجعة ويتحسر على مصير حبه الصريع.. يقول في مذكراته:

ـ نسيتها فور خروجها من دارنا.. بل حريّ القول أنني أخرجتها تماماً من ذاكرتي.. لكن الحادث على كل حال جعلني أقرر أن أغدو أثرى أثرياء

كليفلاند.. ذهبت إلى رئيس العمل في الشركة وقدمت استقالتي.. بعد مغادرتي المكتب، قال لي زميلي كلارك:

ـ كيف تستقيل من دون أن تتفق على العمل مع شركة أخرى؟

ـ سأبدأ عملاً خاصاً بي.. في حسابي المصرفيّ ألفا دولار.. يمكنني البدء بها.

ـ عندي مشروع.. فدعنا نعمل معاً.

ـ وما مشروعك؟

ـ ننشئ شركة نقل مثل شركة «هويت وتتل».. لقد اكتسبنا خبرة في هذا النوع من العمل.. ولا نحتاج إلا إلى رأسمال معقول.. لنقل خمسة آلاف دولار.

ـ ليس معي سوى ألفين.

ـ معي ألف.. سنحصل على الألفين الباقيين من المصرف بضمان من أسرتي..

● هكذا وُلدت شركة «كلارك وروكفلر للنقل».

أعتقد أننا كنا محظوظين.. بعد شهرين من إنشاء الشركة اندلعت حرب الانفصال.. فاقتحمنا ميدان نقل المؤن والذخائر، كما اقتحمها عشرات المغامرين أمثالنا.. الفرق أننا كنا نفي بتعهداتنا.. لا نجازف أبداً بالدخول في مناطق العمليات.. نعمل في «المضمون» كما يقال.. وجاءت الأرباح من كل نوع.. عام ١٨٦٤ دفعنا للحكومة عشرين ألف دولار ضرائب على الدخل!

● وفي العام نفسه، وباقتراح من أمه ـ دائماً أمه ـ تقدّمَ لخطبة الآنسة سيتي سبلمان.

ـ إنها خير زوجة لك يا جون.. متدينة، مقتصدة، قليلة الكلام.. لست مضطراً لحبها كما كنت تحب الخادمة مليندا..

ـ ملیندا؟ لقد نسيتها تماماً يا أماه.

ـ وستحب سيتي لأنها تستحق كل حب. . سألتها أمس إن كانت تريد خادمة تعاونها في أعمال البيت، أجابت: لن أُدخل خادمة إلى بيتي ما عشت!

● ودام زواجهما السعيد خمسة وستين عاماً. . أنجبت له خمسة أولاد، فضلاً عمّا يتوق إليه رجل الأعمال: النصيحة حين يطلبها، وكلمة العطف حين يحتاج إليها. . إلى أن دخل النفط حياته! . . كتب حول هذا الموضوع:

ـ كان النفط معروفاً في بنسلفانيا. يكفي أن يغمس أي إنسان بطانيته في غدران وجداول تلك الولاية حتى تتبلّل كالإسفنجة بالماء، وبالنفط. . كان الناس يضيئون بيوتهم بالشموع، إلا في بنسلفانيا، حيث كان المواطنون يستخدمون نفط الغدران في إضاءة المصابيح. . لم أصدق هذا إلا حين رُوِيت لي قصة أدوين دريك:

ـ قررت الاستقالة من شركتك يا عزيزي مستر روكفلر لأعمل في استخراج النفط هناك.

ـ تغمس البطانيات في الغدران، ثم تعصرها وتحصل على النفط؟ ستموت جوعاً دون شك!

ـ حتى لو اكتفيت بهذا، لبعتُ الناتج بأكثر من راتبي مدة عشرة أعوام. . ولن أكتفي بهذا. . سأحاول استخراج النفط من باطن الأرض.

ـ وهل حاول هذا أحد من قبلك، ونجح؟

ـ سأكون الأول. اشتريت قطعة أرض في بنسلفانيا، وسأشرع في شراء الحفّارات اللازمة. . أنا واثق بأنني سأستخرج كل ما في باطن الأرض من النفط.

● أربحته البئر الأولى أربعة آلاف ليتر. .

ما إن انتشر النبأ في أنحاء أميركا، حتى هاجر المغامرون جماعات إلى بنسلفانيا. . وتواصلت هجرة الأميركيين الراغبين في الثراء السريع إلى جبال كولورادو بحثاً عن الذهب. . هذه المرة كان الذهب أسود اللون، كريه الرائحة. . يلوث كل شيء يقترب منه. . وهذه المرة أنا من سعيت وراء دريك. . فقال لي:

ـ على الرحب والسعة يا عزيزي. . إشترِ ما شئت من أراضي بنسلفانيا. . وأقم ما شئت من منشآت الحفر. . ولن تندم. .

ـ في رأسي ما هو أهم من استخراج النفط.

ـ ليس ثمة ما هو أهم من استخراجه.

ـ هناك مشكلة النقل. . وأنا أعمل في النقل مذ وعيت. . سأحصل من كل منتجي النفط على حق نقله إلى مراكز البيع.

● ها هي شركة «روكفلر ودريك» لنقل البترول تتأسّس. . ومع ازدياد الطلب على النفط في كل أنحاء العالم، لاستبداله بالشمع في الإضاءة، اتّسع عمل الشركة. . وصارت الناقلة الوحيدة لبراميل النفط إلى كل أنحاء أميركا، بل إلى أوروبا أيضاً. .

ـ هكذا تجمّع لي أول مليون دولار! إنما كنت أنوي جمع مائة مليون دولار [هكذا قال لأمه].

ـ ولكن كيف يا جون؟

ـ لقد سئمت عمليات النقل. . هناك ما هو أهم من النقل. . وأكثر ربحاً!

ـ ما هو؟

ـ عملية تنقية النفط الخام والإفادة من النفايات. . مصانع التكرير المُنشأة حول الآبار بدائية، ومع ذلك، تربح مائة بالمائة من رأس المال. . إذا اشتريت كل هذه الشركات، احتكرتُ تكرير النفط في أميركا بأسرها!

ـ ماذا لو رفض صديقك دريك المساهمة معك في الشركة الجديدة؟

ـ عندها لا مفرّ من تصفية شركة النقل!

● يوم رفض دريك مشروع شركة التكرير، نبّهه روكفلر وهو يوقع عقد فضّ الشركة القديمة:

ـ أعتقد أنك ارتكبت أكبر غلطة في حياتك.

ـ ربما يا عزيزي جون. . إنما أحب رائحة النفط الخام. . لقد وقعت في غرام هذه المادة السوداء اللزجة. . أتمنى لك التوفيق!

● بدأ روكفلر العمل في حقل تكرير البترول. . جمع أول مائة مليون دولار كما تمنّى. . ذات يوم زاره دريك:

ـ عندي مشروع جديد لنقل البترول المكرّر!

ـ لن أدخل فيه. . لقد طلّقت مشاريع النقل إلى الأبد.

ـ مشروعي سيدرّ عليك مئات الملايين!

ـ في هذه الحالة، أستمع إليك بكل ذرة في جسمي. .

ـ النقل بالقطارات بطيء ومكلف. .

ـ لا وسيلة غيرها.

ــ ماذا لو تم النقل في أنابيب تجري من مراكز الإنتاج إلى منافذ التوزيع؟

ــ أنابيب؟ نضع تحت الأرض أنابيب يجري فيها النفط؟

ــ ومضخات تساعده على الانطلاق بسرعات محسوبة.. كيفما كانت، ستسبق أسرع القطارات وأضخمها حمولةً! ما رأيك؟ سأمهلك أسبوعاً لتدرس المشروع!

ــ ولماذا نضيع الوقت؟ دعنا نوقّع عقد شركة أنابيب النفط اليوم!

● وتكدّست الملايين. أمسى روكفلر أثرى رجل في أميركا.. بل في العالم أجمع.

ومع هذا، لم يكن له من هواية رياضية غير الغولف.. كان يكره الأدب والموسيقى، والمسرح على وجه الخصوص.. يقول:

ــ المسرح يبيع ما لا يكون لمن لا يريد أن يكون..

زار ابنَ صديقه دريك ذات يوم معزياً بوفاة والده.. رأى مكتبة الابن الحافلة بروائع الكتب.

ــ هل أنت سعيد حقاً بهذه الكتب يا ولدي؟

ــ جداً يا سيد روكفلر..

ــ أما أنا، فالأمر الوحيد الذي يسعدني هو كشف حسابي في المصرف!

□ □ □

● ها هو روكلفر يطرق التسعينيات.

ــ أعتقد أنني سأبلغ سن المائة.. كافة أسرتي من المعمّرين.. لماذا لا أطعن في سن المائة والعشرين.. يقولون إن جدي لأبي بلغ هذه السن!

في السادس والعشرين من أيار/مايو عام ١٩٣٧، وهو يستعد للنزول إلى ملعب الغولف في قصره، قال لولده جون روكفلر الثاني: أين ولدك جون؟.. لقد وعدت الطفل الظريف بتعليمه كيف يضرب.... ثم .. سكتَ إلى الأبد!

بيكاسو
جنون العبقرية.. وعبقرية الجنون

● وُلد في ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٨٨١ . ولا أنوي إزعاجكم بكتابة اسمه، فهو اسم طويل عريض . . كطول وعرض شهرة صاحبه المدوية . . يبدأ بكلمة بابلو، وينتهي بكلمة رويز، وبينهما ثمانية أسماء في منتهى التعقيد . . أما من أطلق عليه اسمه الذي به عُرف، فبيكاسو يقول:

ــ الكاتبة الأميركية غزترود ستين . . وستين هذه هي أول كاتبة سريالية في العالم. . قالت لي مرة وهي تقف أمامي لأرسمها :

ــ ما هذا الهراء الذي ترسمه يا بابلو، هل أنا بهذا القبح ؟

ــ عجيب، لقد صورتِ جولييت سلحفاةً، وروميو أرنباً، في قصتك آه من الزواج. فكيف تعترضين على ما أرسم ؟

ــ إذاً، لم تفهم قصتي؟

ــ لعلّني الوحيد الذي فهمها . . قصدتِ أن روميو كان يهرب من الزواج بسرعة الأرنب، بينما تهرب منه جولييت ببطء السلحفاة. .

ـ لا . . لم أقصد هذا.

ـ أعتقد أنك لم تقصدي شيئاً على الاطلاق . . إنما هي ألفاظ توجعك في رأسك فأخرجتها على الورق في أي صورة!

ـ إسمع يا بابلو . .فسِّر لي لماذا رسمتني مجرد خطوط متعارضة قبيحة ؟

ـ لأن الألفاظ والمعاني في رأسك متعارضة، ولا تعبّر عمّا في هذه الدنيا من جمال! القبح يا سيدتي ميزة فنك. .

ـ القبح أدعى إلى إظهاره للناس كي ينفروا منه . . خذ اسمك مثلاً: إسم طويل عريض، لا يكاد يُفهم، اسم من هنا، واسم من هناك . . لو جمعنا حروفاً لا تعني في مجموعها شيئاً، لخرجنا باسم قبيح ولكن له مدلول. هذا هو الجمال الذى ترسمه في لوحاتك . .

ـ إختاري لي أقبح اسم!

ـ بابلو مثلاً، نأخذ منه الحرف الأول الباء، ثم من كل اسم يليه نأخذ حرفاً آخر . . وننتهي بِـ «الواو» من اسم رويز . . [ضاحكةً] . . أتعرف ماذا سيكون اسمك ؟

ـ [بعد تفكير] بيكاترو؟

ـ بل بيكاسو. . السين في «سانتيسينماتو» لها رنين خاص، إخترتها بدلاً من «التاء» في «ترينداد ». . لا بأس باسم بيكاسو، إسم قبيح على أي حال ولا معنى له، وسيكون معناه من الآن الرسام المجنون!

ـ لا أعلم أن لكلمة بيكاسو هذا المعنى في أي لغة من لغات الدنيا!

ـ آن لنا يا عزيزي نحن أصحاب مدرسة الفن السريالي والتكعيبي والتجريدي، وقبل هذا وذاك، الانطباعي . . أن تكون لنا لغة خاصة . . أولها كلمة «بيكاسو» . . ولا تنسَ أن توقع على هذه اللوحة باسمك الجديد. .

● ولد بيكاسو من أبوين فقيرين. أمضى سنوات طفولته ومراهقته في برشلونة . . كتب عن تلك المرحلة:

«كان من الحتمي أن أغدو رساماً . . إذ كان أبي مدرّساً للرسم في إحدى المدارس الثانوية، ونحن الإسبان لنا تقاليد صارمة، أولها أن يرث الابن صنعة أبيه . . اصطحبني إلى مدرسة الفنون الجميلة، وقدّمني إلى الأستاذ الذي عُهد إليه بامتحاني كي ألتحق بالمدرسة . . وإذا بالأستاذ يقول:

ـ إذن هو ولدك يا روبيز!

ـ أجل يا أستاذ. .

ـ لا تطمع في أن يغدو فناناً . . ثيابه هذه تقليدية، لا توحي باستعداده للإبداع، وإنتاج أشياء جديدة. [في دهشة] يا إلهي! ماذا تفعل يا فتى؟ لماذا تخلع ثيابك كلها . . ألا تخجل وأمامك في لجنة الامتحان فتيات وسيدات؟

ـ لتعرف يا أستاذ أني لست تقليدياً!

ـ عليك اللعنة، إرتد ثيابك، بسرعة . . لقد أنجبت ولداً مجنوناً يا رويز!

● وقبلوه دون امتحان . . لكن الأستاذ قال له :

ـ إسمع يا بابلو. . أعفيتك من امتحان القبول، ولكن ثمة فترة اختبار إلزامية مدتها عشرة أيام . . سنعطيك حجرة في المدرسة لإقامتك، وبعض الفراشي وأقمشة اللوحات. ينبغي أن ترسم عليها ما تشاء لتقدّمها إلى لجنة الاختبار النهائي. .

عند انتهاء الأيام العشرة، توجه بابلو إلى الأستاذ:

ـ أين لوحاتك أيها الأبله؟

ـ في الغرفة يا أستاذ. .

ـ ألا ينبغي أن تحملها إلينا هنا ؟

ـ لا أستطيع أن أحملها يا أستاذ!

ـ ولماذا ؟

ـ لأنها ثقيلة جداً. .

ـ اصطحب أحد العمال يحملها لك . .

ـ لا أحد يستطيع ذلك . .

ـ أنت مجنون دون ريب . .

ـ إذا كنت لا تصدقني يا أستاذ، فتعال معي إلى الغرفة.

وصعدت اللجنة إلى الغرفة . . كانت اللوحات بيضاء! لكن الأستاذ صاح :

ـ يا إلهي . . ما هذا يا بابلو؟ لقد رسمت لوحاتك على جدران الغرفة! بل على السرير، والدولاب، وزجاج النافذة، وتلك على مصباح السقف! يا إلهي السقف أيضاً!

ـ وإذا رفعت السجادة، فسترى ثلاث لوحات أخرى يا أستاذ!

ـ على أرضية الغرفة ؟ هذه لوحات عجيبة وجديدة أيضاً! هذه، مثلاً، على الباب ماذا سميتها ؟

ـ سميتها الأستاذ أونجانو.

ـ أنا ؟ هذا جواد جامح أو حمار!

ـ بل هو بغل يا أستاذ. .

ـ أنت لا تحسن اختيار ألفاظك يا بابلو، لكنك يا ولدي فنان عظيم. .

● لا تزال تلك الغرفة على حالها. وحوّلتها الحكومة الإسبانية متحفاً من بين متاحف بيكاسو العديدة. .

تقدّم أحد الأثرياء بعرض شراء المدرسة بأكملها، في سبيل هذه اللوحات، لكن الحكومة الاسبانية رفضت: حكومة الملك ألفونسو، وكذلك حكومة فرانكو رفضت هي الأخرى.

● وصار **بيكاسو** أشهر رسام في العالم . . كان مقيماً في باريس حين تطايرت شرارات الحرب الأهلية. . لم يكن يحب فرانكو وما يمثله من مبادئ دكتاتورية . . فانضم إلى صفوف الملك ألفونسو ضد فرانكو . . والعجيب أنه التقى تحت القنابل ودويّ المدافع أقرب أحبائه وأصدقائه، وأبعدهم عمّا يؤمن به من مبادئ في الوقت نفسه، مثل الكاتب الأميركي أرنست همنغواي المحارب في صفوف الثوار.

حدث أن ظروف الحرب ألقت بالرسام بيكاسو في بيت مهجور، يقبع بين أنقاضه قناص يتعذر الاقتراب منه . . ولما نفذت ذخيرته، هجم كالوحش الهائج يريد أن يخنقه بيديه العاريتين. فجأةً تسمّر في مكانه. لماذا؟ لأنه شاهد رسماً كان بيكاسو رسمه على صخرة بسن السونكي، فوقف يتأملها بدهشة وإعجاب . . بعد لحظات، إذا بالعدوين المتقاتلين يتحدثان عن الفن!

يسأل همنغواي بيكاسو :

ـ أتعتقد أن قواتنا ستستولي على القنطرة ؟

ـ ربما!

ـ يا إلهي . . إذن فأنت بيكاسو؟

ـ وأنت همنغواي ؟ كيف لم نتقابل في باريس، ولكل منا فيها غزوات فنية وعاطفية ؟ أليس من العجيب أن نتقابل في هذا المكان؟

ـ هذا أنسب لطبيعتنا [يضحكان] أتعرف؟ كنت أريد أن أخطف منك صديقتك غرو ترد ستين . . إنما انشغلتُ بالأميرة التركية . . أنت أنسب لستين، فهي تحب جنون الفن مثلك . .

ـ يمكنك أن تقتلني لتفوز بها . .إنها فرصتك!

ـ ربما أفعل ذلك، لكن ليس قبل أن توضح لي أسلوبك في الرسم العجيب الذي يسمونه الفن التكعيبي .

ـ أنا الذي سميته هكذا!

ـ ولماذا تكعيبي على وجه الخصوص؟

ـ لأن مهمة الفنان الجديد أن يفقأ عين المجتمع اللاهي بصور البؤس الإنساني . . إذا كانت لوحاتي تحتوي على رموز وتوريات، فإني أردت بها التعبير عن بؤس الدنيا التي نعيش فيها وعن حبنا العميق للإنسانية . . أوتعرف يا أرنست . . أسلوبك في الكتابة هو أقرب ما يكون إلى أسلوبي في الرسم؟

ـ ربما . . أحياناً أعبّر عما أريد بكلمات ليست في القواميس التقليدية . . أشتق ألفاظها من معانيها في الطبيعة، ومن داخل الغابة الغامضة التي نسميها أغوار

النفس البشرية ـ مثلك تماماً يا بيكاسو. فأنت تستخدم في لوحاتك قصاصات ورق الصحف ونتفاً من القماش.

ـ [ضاحكاً] ورملاً وزجاجاً وخشباً، وأحياناً أسكب زجاجة الحبر على مكعب من مكعبات اللوحة .. يقولون إنه جنون لكنهم لا يفهمون!

ـ سيكون لي معك حوار طويل عندما تضع الحرب أوزارها .. بودّي لو أستطيع حمل هذه الصخرة التي استخدمتها لوحةً.. من المؤسف أن أحدنا قد يقتل زميله في أي معركة مقبلة...

ـ أرنست، لديّ اقتراح: لنحارب فترة في سبيل الفن، ونعمل على إنقاذ الأعمال الفنية في منطقة الأندلس قبل أن تتحطم أو تحترق..

ـ بيكاسو، أنت فنان أصيل حقاً!

● للعجائب والغرائب حيّز هائل في حياة هذا الفنان الذي مرّ بالمرحلة الزرقاء، فالتكعيبية، ثم التأثيرية، فالتجريدية، وأيضاً له عدد من اللوحات السريالية .. فلوحات بيكاسو هي الأغلى سعراً والأكثر مبيعاً في أسواق الفن العالمية.

تـورغنييف..
وصراعه بين أمه وعشيقته

● يتقاسم تورغنييف قمة الأدب الروسي مع كل من تولستوي، ودويستوفسكي، وأنطوان تشيخوف، وغوغول، ومكسيم غوركي، وسواهم من رعيل القرن التاسع عشر في روسيا. يتميز بحبه الشديد لوطنه، مؤكداً على خصوصية المجتمع الروسي في معظم كتاباته . . فهو يقول في إحدى لمعاته :

«لا تستطيع أن تدرك كنه طبيعة بلادي إلا إذا عشت فيها منذ ولادتك!لذا يصعب على أي غريب عن روسيا تشكيل ملامحها، أو تكوين صورة واضحة عنها، مهما برع في الكتابة، ومهما وقع تحت يديه من وثائق، لأن عالم روسيا مزيج من الثراء الفاحش، والفقر المدقع، والحياة المليئة بالرفاهية والأناقة في المجتمع المخملي، إلى جانب الخشونة والتوحش . . هو عالم شاسع الأراضي المجهولة والمقفرة، بينما فيه مدن مكتظة بالسكان، حدَّ التزاحم، فضلاً عن درجة التفاوت الإجتماعي والطبقي، حيث القيصر وبطانته، والنبلاء وأتباعهم، والإقطاعيون الذين يملكون أراضي البلاد بما عليها من فلاحين ومواشٍ وأشجار».

ژ! تلك هي روسيا حيث وُلد إيفان تورغنييف لأبٍ من صغار النبلاء، لا يملك سوى قرية واحدة، يعيش فيها ثلاثمائة فلاح.

وصف مؤرخو إيفان تورغنييف كاتب روسيا الشهير:

«إنه دون شك ظاهرة إنسانية فريدة . . عاش طاهراً، نظيفاً، نقي السريرة، وسط عالم مضطرب تحكمه الشهوات والغرائز، لا سيما في سلوك الفنانين من الأدباء والموسيقيين والشعراء والرسامين، ممن تحرروا من القيود الاجتماعية والدينية في القرن التاسع عشر».

كان والده قلقاً قلق صغار النبلاء أمثاله لأن حياتهم مرهونة بمزاج القيصر، إذ قد يصدر أوامره في أي وقت بتجريد أيٍّ منهم من كل ممتلكاته، وسحب ميزانيته، بسبب، أو دون سبب، ربما نتيجة وشاية حاقدة، أو معلومة خاطئة في أذن القيصر، أو القيصرة! أما كبار النبلاء، فكانوا في مأمن تام من ذلك القلق الذي يعيشه صغارهم.

كيما ينفَذ والد تورغنييف من أزمة القلق الذي يلازمه كواحد من صغار النبلاء، تقدم للزواج من فارفارا لوتوفينوف ابنة أحد كبار النبلاء، ضماناً لبقائه في دفء الشمس القيصرية.

ورثت العروس عن أبيها عشرين قرية، متحكمة بأكثر من ٥٠ ألفاً من الفلاحين، يعملون في قراها. وكما كتب عنها تورغنييف فيما بعد، ورثت وحشاً اسمه «الدماء الزرقاء» يسري في عروقها، ويجسّ في كل نبضة من نبضات قلبها. فطالما سمعها تصيح بعصبية:

«إنني أعلم أن زوجي اللعين يخونني مع أحقر الفلاحات، عندما يزعم أنه خارج إلى الصيد. لكنني من الآن فصاعداً لن أرحم أي قرية يفسح أهلها المجال لزوجي الزنديق أن يعيث ببناتهم ونسائهم فساداً».

يضيف تورغنييف في مكان آخر من كتاباته الموزعة بين قصصه القصيرة ورواياته، ويومياته، الحديث عن والدته، فيورد:

«لم تكن قادرة على الوقوف بوجه أبي لتصدّه عن هواياته، خاصة في زياراته الليلية المتكررة إلى القرى التي نمتلكها حيث يمضي معظم أمسياته بين أحضان الفلاحات، ويعود إلى القصر مترنحاً من أثر السكر.. وهكذا دواليك.. لكنها قررت تطبيق قانونها الصارم على أهل القرى المشبوهة التي تُقدِّم نساءها لزوجها! فكانت تصطحب عدداً من حراسها الأشداء وتقتحم القرية، مصدرة أوامرها للحراس.. «هذا الكوخ! أخرجوا كل من فيه من النساء ليدفعن ثمن لياليهن الداعرة التي كنَّ يقضينهن مع زوجي!». ويهجم الحراس على الكوخ، وبعد برهة يعودون مع فلاحين، دونما أي نسوة. يشتد حنق وغضب فارفارا، وتصيح فيهم: «ابحثوا في مخازن الغلال، فأنا أعرف ذوق زوجي الفاسد!». ثم تقتحم الكوخ بنفسها، وما هي إلا لحظات، إذا بالجميع يرتجفون هلعاً من إطلاق الرصاص.. تخرج من مخازن الغلال فتيات ونساء يركضن فزعات، بعد أن شهدن بأعينهن إحدى أجملهن وقد تضرجت بدمائها.. لم أرث أيّاً من التصرفات الرهيبة الصادرة عن والدتي، فليس في عروقي نقطة واحدة من دم أمي: كيف؟ لا أدري. ولكنني ورثت الكثير عن أبي: حبه للجمال، والشعر، والفن.. ضعفه وعدم قدرته على اتخاذ قرار حاسم. إنما لم أرث عنه شغفه بالخمر، أو نزواته العارمة».

□ □ □

● درس تورغنييف القانون في جامعة بطرسبرغ.. لم يُعرف عنه ــ كما عُرف عن سائر الطلاب في ذلك الزمان ــ أنه مرّ ببيت من بيوت المتعة المنتشرة آنذاك.

فمؤرِّخه دولميه يؤكد أنه لم يجد في يوميات تورغنييف، أو في ثنايا قصصه ورواياته، ما يشير إلى علاقة من أي نوع، أقامها مع إمرأة أثناء فترة دراسته في

بطرسبرغ، رغم ذلك الخطاب الذي أرسلته سيدة مجهولة إلى دوستوفسكي كتبت فيه :

«أحتج بشدة على مقالك الأخير الذي تعرّضت فيه للراحل تورغنييف، زاعماً أنه أثناء دراسته في بطرسبرغ كان عربيداً، فاسقاً، وزير نساء. تكذب يا دوستوفسكي، فأنا كنت معجبة بتورغنييف، الذي تعرفت عليه في علاقة بريئة، وقصدت معه أكثر من مرة الحفلات الموسيقية في الأوبرا! ولما دعوته يوماً إلى بيتي، وعلم أنه لن يكون في البيت أحد سوانا، ردّ بكل أدب : يا فتاتي العزيزة، لا أريد أن أكرر أخطاء أبي . . ولن تفهمي ما أعني . . ولكنني عاهدت نفسي على هذا المبدأ . لذا، أطلب من المجلة التي تكتب فيها السماح بنشر رسالتي هذه، رداً على أكاذيبك يا دوستوفسكي».

● حالما أنهى تورغنييف دراسته عاد إلى قريته سباسكويا، حيث استقبلته والدته بأوامرها ونواهيها الصارمة :

«لا تظن يا إيفان أن دراستك القانونية في بطرسبرغ، تساوي عندي قلّامة ظفر! لن أجعل منك محامياً، أو قاضياً، بل سأصنع منك نبيلاً، من كبار ملّاك الأراضي . . وستكون خادماً مخلصاً لصاحب الجلالة القيصر».

وإذ أبدى تورغنييف تحفظه على المصير الذي رسمته له والدته، انهالت عليه غضباً :

«ثق يا إيفان تورغنييف أنني لن أتورع عن جلدك بالسوط إذا علمت بمحاولتك الإتصال بتلك الفلاحة ابنة الحوذي بولستوليو، التي وعدتها بالزواج عندما تنهي تعليمك».

وبحنوّ الأمومة اقتربت منه بعد خفوت لهجتها التهديدية، وفتحت ذراعيها لتحضنه :

«إيفان . . إنك شاب جميل يا بني، ولا أريد أن أحول بينك وبين أي متعة تتوق إليها نفسك! إذا شئت، أضم تلك الفلاحة إلى خدم القصر، فتكون في متناول يدك وقتما تريد . . أما الزواج فألف لا».

كأيّ أمّ تحب ولدها رغم مزاجها الحادّ، وإحساسها بالفوقية على الناس، إلا أن تورغنييف كتب عنها يوماً:

«أحبها حباً جمّاً لإحساسها بالمسؤولية، واعتدادها بنفسها، وقوة شخصيتها، ولعاطفتها الجياشة التي لا تجهر بها، إذ كثيراً ما شهدت دموعها تنهمر من مآقيها وهي تصلي أمام الصليب في الكنيسة . . أحبها رغم حدّة مزاجها العدائيّ، وأُحبها لأنها لم تضع قيوداً على حياتي سوى بغضها الشديد للفلاحات اللواتي كانت تحتقرهن نتيجة معاناتها من خيانات والدي مع بعضهن، فحرصت على الحؤول بيني وبين أي من الفلاحات».

□ □ □

● شرع تورغنييف يكتب شعراً يعبّر فيه عن اشتياقه لمحبوبته الفلاحة الجميلة، التي أمضى باللعب معها أجمل سنواته الخضراء، إلى أن عثرت والدته على إحدى تلك القصائد، فثارت ثائرتها صائحة:

«اللعنة على الشعر والشعراء. ألم تجد يا ولدي ما ترثه عن أبيك غير هذه النزعة التافهة؟ فتتغنى بشعرك بالحرمان من فلاحة حقيرة».

شعرت بقسوتها عليه، إذ تركها وأغلق على نفسه باب غرفته مهموماً . . ظلت تعيش لحظات قلق إلى أن لقيته على مائدة الإفطار في الصباح:

● «افعل ما تريد يا عزيزي إيفان . . عش هادئاً، مثلما يعيش نبلاء روسيا! أتحب الشعر؟. حسناً، أكتب ما تريد، إذا كان ما تكتبه يروِّح عمّا بصدرك من مشاعر . .

أو أخرج للصيد، أو القنص، أو الرحلات . . وإذا أحببت أن تقضي الشتاء في بطرسبرغ حيث تذهب إلى المسارح. ليتك يا ولدي تقسم فصول السنة كما يقسمها النبلاء، الشتاء للمسرح والفنون والرقص، الربيع للتجوال في الريف وتفقد الأراضي، والصيف للرحلات . . أما الخريف، فهو للصيد . . عش حياتك سعيداً يا ولدي مثل جميع نبلاء روسيا!».

□ □ □

● لكن تورغنييف اتجه إلى موسكو، وبدأ يكتب القصة القصيرة، فوقعت إحدى قصصه بين يدي تولستوي الذي علّق عليها :

«من المؤكد أن كاتب هذه القصة ذو موهبة فنية رائعة . . لكنها كالتفاحة الخضراء ينقصها الزمن كي تنضج . . لو أن الكاتب استخدم قلمه بمزيد من الجرأة، لنعمت روسيا بمولد كاتب يعد بمذاق جديد في شكل القصة الروسية».

● الأسطر القليلة التي خطّها يراع تولستوي أعلنت الميلاد الأدبي لتورغنييف، مشرّعة له الأبواب لولوج الأوساط الأدبية، فيدلي بدلوه في المساهمة بتلك الحوارات العنيفة، الداعية إلى الإصلاح الزراعي وتعديل أحوال أرقّاء الأراضي، والمطالبة يتوسيع المساحة لحرية التعبير.

لم تكن التقارير القيصرية التي يكتبها رجال المباحث بمعزل عما كان يقوله الكاتب الشاب إيفان تورغنييف.

● ومن ناحية أخرى، تصدّى تورغنييف لتلك الدعوات المطالبة بالأخذ من الآداب والفنون الأوروبية:

«إنني أقرأ بإعجاب ما تكتبه الفرنسية جورج صاند، وأُعجب كثيراً بشعر الألماني شيللر، كذلك تأسرني كتابات البريطاني تشارلز ديكنز، وإن كنت أعتقد أن ما

يصلح لهم لا يصلح لروسيا. فكل ما هو روسي، مقدس بالنسبة إليّ، لأن الأدب الروسي يتميز عن سواه بالنبل والرفعة».

□ □ □

● كان لا بد لتورغنييف الذي أصبح كاتباً شهيراً، من تلبية دعوات يتلقّاها من خارج بلاده. كانت باريس أولى محطاته. . نعم، في باريس تم اللقاء بين بولين فياردو وإيفان تورغنييف، حيث سجل التاريخ قصة حب فريدة من نوعها . .

● كتب الناقد دولميه، مؤرخ تورغنييف، وصفاً للمغنية بولين فياردو :

«إنها أروع وأعرض صوت صدح، أو سيصدح، في عالم الغناء والموسيقى! فصوتها يبدأ من مقام (فا) الزائد الأسفل إلى مقام (ري) الثالث . . لعلّها معجزة في تكوين الحنجرة والأوتار الصوتية النسائية! صاحبة ذلك الصوت التي عشقها تورغنييف مذ رآها، ورثت حب الشعر عن أبيها مانويل غارسيا أحد أشهر مطربي إسبانيا، وملامح شخصية أمها يواكينا إحدى أبرع راقصات الفلامنغو».

● كيف جرى اللقاء الأول بين تورغنييف وبولين؟ لهذا الأمر حكاية كتبها القاصّ الروسي في مذكراته :

«كنت برفقة صديقي ألفريد دي موسيه في أحد مقاهي باريس حين بادرني بالقول :

ـ سترى الليلة يا تورغنييف أجمل وأروع فنانة إسبانية! بل هي أجمل وأروع فنانة في العالم . . إنها حبيبتي ماليبران فياردو التي تقدم في الأوبرا مسرحية «حلاق إشبيلية». وبالمناسبة، ماليبران شقيقة بولين، ولكنها أجمل من بولين . . ولعلك تروق في عينها».

● ذهب إيفان مع صديقه دي موسيه إلى منزل أسرة مانويل غارسيا. نُسجت في

تلك الليلة الخيوط الأولى لأروع قصة غرام بين بولين فياردو وكاتب روسيا الأشهر. عقب تلك الأمسية دوَّن تورغنييف في يومياته :

«قابلت اليوم أجمل وأروع امرأة في الكون! عاملتني برقة متناهية، دون أن ترفع الكلفة بيننا. إنها تتعامل مع زوجها لويس بكل احترام، وهي عكس أخواتها الثلاث ممن يعبثن بحرية مع مشاهير باريس، أما هي فتنظر إلى تصرفات شقيقاتها بامتعاض. أثارت معهن في تلك الأمسية نقاشاً استتفزهن، وخاصة عندما تحدثت عن مفهومها للحب، والمقاييس التي يبنى عليها، مميّزة بين علاقات الحب العابرة القائمة على الغرائز والشهوات، والحب الصادق، المؤسس على الاحترام. فثارت ثائرة شقيقتها ماليبران، عشيقة صديقي الشاعر دي موسيه».

● مذّاك، لم يتخلف تورغنييف عن مقعده الأمامي في الأوبرا حيث كانت بولين تغني في مسرحية «حلاق إشبيلية». لم يجرؤ على الاقتراب من غرفتها في المسرح كسائر الأدباء والصحافيين والشعراء ممّن ينتظرون تلك اللحظة .. لحظة إسدال الستار، فيتوافدون إلى حجرتها .. كما لم يجرؤ على الذهاب بمفرده إلى بيتها، لكن الشاعر دي موسيه يعنّفه بالقول:

ـ دع هذا الحياء والخجل جانباً! إذا كنت معجباً بها حقاً، فاقتحم غرفتها في المسرح، أو أطرق باب بيتها في أي وقت من الأوقات لتعبّر لها عن إعجابك!

ـ يا عزيزي دي موسيه لقد خُلقت شديد الخجل، ولا أجسر على فعل ما تريده مني ..

وبعد برهة يسود فيها الصمت بينهما، يكسر دي موسيه ذلك الصمت بقوله :

ـ وجدتها!

إزاء دهشة وحيرة تورغنييف، يواصل دي موسيه :

ـ سأقيم حفلاً على شرفها في شقتي، وسأدعو النقاد والأدباء، والكتاب . . كما سأدعو الأسرة كلها، الأم، الأب، بولين، سائر أخواتها، وزوجها أيضاً. . عندها ستتمكن من التعبير لها عن إعجابك!

لم يتحمس تورغنييف للفكرة:

ـ لندع الأمور تأخذ مسارها الطبيعي، ولعلني أتمكن يوماً من جعل بولين تدرك إعجابي بها!

□ □ □

● بدأ تورغنييف يكتب قصصه في المجلات الأدبية الباريسية، بحيث لقيت صدى عميقاً لدى القراء. ركز في إحداها على كاتب يعشق مغنية رغم أنها متزوجة. . لم يخفَ على بولين الذكية، وهي تتابع قراءة قصص تورغنييف بشغف، أنها المعنية بإعجاب وعشق الكاتب الروسي بها. ومع ذلك، لم تكن قد تعلقت به، لكنها قالت لِدي موسيه :

ـ إن ما يكتبه صديقك تورغنييف يعبُق بالعواطف النبيلة، إنما أرجو ألا يداعبه الأمل بأن تكون استجابتي لعواطفه المشبوبة بالسرعة التي يتوقعها! لماذا لا يزورني في غرفتي في المسرح؟ أم تُراه متردد باعتباري سيدة متزوجة ــ كما ذكر في إحدى قصصه؟

نقل دي موسيه الرسالة إلى تورغنييف، وشجعه على عدم التردّد في زيارتها، فهي ترحب به . . وصف تورغنييف تلك الزيارة :

«اعتادت بولين القضاء أكثر من ساعة بعد انتهاء عملها في المسرح، يتوافد عليها المعجبون من الفنانين، والكتّاب، والشعراء، والأدباء . . فكانت تجلس فوق فراء دبّ أبيض عريض . . وتخص أربعة من أصدقائها المقربين لمشاركتها الجلوس

على ذلك الفراء . . لم تشر إليَّ بالجلوس معهم، فظللت واقفاً طيلة مدة الزيارة . . كانوا يقصون عليها النوادر والفكاهات، فتضحك، ويشرق وجهها الجميل بالبهجة! وحينما طلبت إلي أن أحكي ما أحفظ من نوادر، اضطرب لساني، ولم يسعفني خيالي بشيء، فضحك الجميع. قالت بمودّة :

ـ كن مزوّداً إذاً بما لديك من طرائف في الزيارة المقبلة . .

لأسباب لا أعرفها، لم أكرر زيارتي لها في غرفة المسرح، إنما عدنا والتقينا في بيتها بدعوة من زوجها لويس فياردو ـ عرفت في ما بعد أن دعوات زوجها المتكررة لي، كانت بإيعاز من بولين . . عندما كشفتْ لي عن هذه الحقيقة، ضحكت بوقار قائلة:

ـ دعواتي لك لا تعني أنني أحبك كما سيوحي لك عقلك. لكن لنقل إن القصص التي تنشرها قد استحوذت على إعجابي بك، فأصبحت كاتبي المفضل! لم أكن أعرف الكثير عن روسيا قبل أن أقرأ لك. لشد ما تحب بلادك يا تورغنييف! فأرجو ألا تستنتج من هذا الإعجاب بقصصك أكثر من الود.

ثم تفاجئه بالسؤال التالي:

ـ ألا تحب شيئاً غير بلادك يا تورغنييف ؟

نظر إلى عينيها مطويلاً، وأجابها كمن يحدث نفسه:

ـ أجل . . إني أحب! وأحب بعمق. . لكن، ما الفائدة؟ سيبقى حباً عقيماً ما حييت!

صمت، بينما واصل التطلع إلى عينيها! فكسرت بولين تلك المفاجأة الصامتة:

ـ لعله خيال أديب ؟ أو إعجاب بفنانة ؟

ـ أنت بالنسبة إليّ لست فنانة، إنما أنت دنياي بأكملها!

ما إن ران الصمت بينهما حتى اغرورقت عينا بولين بالدموع:

ـ إيفان. . لا أريد أن أخسرك. لعلك تتساءل عن وجودي مع زوج يكبرني بأكثر من عشرين سنة. ليس لأنني أحبه كما يظن البعض . . ولكن قبلت بالحياة معه، لأنني أمقت العلاقات الآثمة والمبتذلة التي تحياها شقيقاتي وسواهن من العابثات بمشاعر الرجال . . أنا على استعداد للمكابرة تفادياً لمقابلتك ما حييت، إذا تطلعتَ إلى علاقة تتجاوز ما بيننا، وما نحن عليه من صداقة وحب وإعجاب، يرتقي بنا فوق الغرائز!

□ □ □

● يجزم مؤرخو تورغنييف أنه فضّل البقاء مع بولين معتبراً إياها ملكة متوجة على عرش العفة! في عالم كان يرى في العفة رذيلة، كما وصف بولين الشاعر دي موسيه في إحدى قصائده.

وحتى الآن لم يستدلّوا على علاقة آثمة بين إيفان تورغنييف ومعشوقته المحبوبة بولين فياردو الذي صار أحب إنسان إليها في الدنيا.

يبالغ عشاق البحث عن المثالب والعيوب، فيلجأون إلى نظرية سيغموند فرويد ليصفوا بولين بالشذوذ! وبأنها كانت على علاقة شاذة بالكاتبة جورج صاند السحاقية، استناداً إلى ما وقع بين أيديهم من الرسائل المتبادلة بين بولين وصاند، وهي رسائل مثيرة للتساؤلات، حيث كتبت بولين إلى جورج صاند في إحداها :

«حبيبتي جورج، ما إن وصلت إلى بروكسل حتى سارعت بالكتابة إليك. . عجباً، لم أفارقك إلا ساعات قليلة. كيف حالك يا عزيزتي؟ أعذريني لعدم الاستمرار في الكتابة، فـزوجي لويس يرمقني بنظرات الشك، كأنه يود أن يعرف ما أكتب.

أحبك يا جورج . . وأعرف أنك تحبينني . . أكتبي إليّ على عنوان مسرح بطرسبرغ . . سيكون يصحبتي إيفان تورغنييف. إلى اللقاء يا جميلتي . . أتركك مع ذكرياتنا الحلوة اللذيذة».

فضلاً عن رسالة جورج صاند لبولين التي وقعت بين أيدي مؤرخي تورغنييف. ما ورد فيها تأكيد على وجود علاقة شاذة بين المرأتين . . لكن الكاتب الروسي يرفض قطعاً ما ذهب إليه أولئك الباحثون، حيث جاء في يومياته:

«إن الكاتبة جورج صاند والمطربة بولين فياردو طفلتان تعيشان لحظات سعيدة من الود والعشق الإنساني العميق . . جريمتهما أنهما تقيمان معبداً للصداقة الحقيقية بين فتاتين، وسط عفن المجتمع الأوروبي في أيامنا هذه».

□ □ □

● التزم تورغنييف بوفائه الذي تركن إليه بولين، ما استثار حفيظة زوجها لويس فقال لتورغنييف يوماً:

ـ لولا يقيني من نبل أخلاقك يا إيفان، لما تركتك لحظة واحدة مع زوجتي. أدرك أنك تحبها حباً جمّاً، كما لم تحب إنساناً قط.

فتتدخل بولين، ناهرة الإثنين عن الاستمرار في هذا الحوار:

ـ هذا النقاش يفسد ما بيننا جميعاً! يا أحبائي . . ليقتنع كل منا بالدور الذي يؤديه في حياة الآخر!

● مما كتبه المحلل دولميه بشأن العلاقة بين تورغنييف ولويس زوج بولين:

«من التعسف القول إن لويس فياردو كان سعيداً بذلك العشق الذي بلغ حدّ الوله بين زوجته وإيفان! والأرجح أن لويس قد تحمّل هذه العلاقة، ليس ثقةً بزوجته،

أو برقيّ أخلاق تورغنييف، وإنما خشية أن يستبد بها العناد فتخونه مع الكاتب المرموق. لذا كان يرتضي لنفسه تجهيز غرفة خاصة لإيفان في الدور الأول من بيته، لينام فيها عندما يتأخر إلى ما بعد منتصف الليل حينما يسهر مع بولين».

□ □ □

● تمرّ السنون، وتنتقل بولين من باريس إلى لندن، فمدريد، وروما، وتورغنييف بصحبتها .. حالما وصلت إلى بطرسبرغ، وتعرضت بولين للهجوم من قبل الصحف الروسية، تصدى لهم إيفان، متهماً إياهم بالجهل، وعدم الفهم لما تؤديه بولين على خشبة المسرح. فتوالت عليه الردود العنيفة، موجّهين أصابع الاتهام إلى بولين كونها تسيء إلى روسيا بمضمون غنائها بلغة غريبة على الشعب الروسي، بل طالب البعض بطردها من روسيا. لقي هذا الطلب استجابة لدى السلطات الروسية، نظراً لارتباط بولين بتورغنييف الذي لا يتمتع بسمعة طيبة لدى السلطات الرسمية.. وغادرت بولين بطرسبرغ شبه مطرودة! فكتب تورغنييف في يومياته :

«إن قرار نفي حبيبتي من بلادي، إنما هو نفي لي .. فلن أعود أبداً إلى روسيا، إلا إذا تلقّيت اعتذاراً من القيصر نفسه».

ولما كانت الاستخبارات القيصرية تحتفظ بملفات قديمة لتورغنييف، ودعواته إلى الديموقراطية، ومطالبته بالعدالة الاجتماعية، والقضاء على الإقطاع في روسيا، أصدر القصر الملكي قراراً جاء فيه :

«يمنع منعاً باتاً نشر أية أعمال أدبية، من مقالات، وقصص، ومسرحيات، في الصحف والمجلات الروسية، لإيفان تورغنييف .. كما يحظر عليه دخول البلاد».

□ □ □

كان الكاتب في لندن حين بلغه ذلك القرار، فسارع يكتب إلى بولين :

«لا أدعي عدم الحزن! فحرماني من دخول بلادي طعنة وجّهها القيصر إلى صميم قلبي. . حبيبتي، أرجو ألا يخامرك الشك في حبي لك . . إنما أريد منك ألا تحزني، فتحمِّلي نفسك مسؤولية سبب صدور القرار، لأن السبب الحقيقي وراءه هو قصصي، وكتاباتي، وعدم الود القديم بيني وبين القيصر . . وما حادثة خروجك من روسيا بأمر رسمي إلا قطرة فاضت بها كأس الغضب القيصري!».

● في باريس، تسلّم تورغنييف رسالة من والدته :

«عد حالاً إلى بطرسبرغ يا إيفان، فأبوك يحتضر، وقد سمح لك القيصر بالعودة. عليك أن تركع أمام القيصر، وتقبل قدميه . . وإلا فبحق كل القديسين سافرت إليك حيث تكون . . وقتلتك بيدي . . فأنت روسي قبل كل شيء، فلا تدع هذه الأفاقة العاهرة بولين تلوّث شرفنا، وتاريخ أجدادنا النقي».

□ □ □

● عاد إيفان تورغنييف إلى بطرسبرغ، ليعيش في قريته سباسكويا، حيث وقع ما كانت تخشاه والدته، فبعد أقل من سنتين من الإقامة فيها، وبعيداً عن رقابة أمه، أنجب طفلة من الفلاحة التي كان قد وعدها بالزواج وهي شريكته في ملاعب صباه، فثارت ثائرتها، حدَّ اتخاذ قرارات صارمة بطرده من القصر وحرمانه من كل الامتيازات، إذا لم يذعن لشروطها.

لم يجد الكاتب الكبير من سبيل، إزاء الحيرة والاضطراب، سوى الكتابة إلى بولين:

«حبيبتي بولين، إنها طفلة جميلة، لكن أمي تنظر إليها باحتقار، وتردد مثلاً شائعاً:

المرء لا يتبع آثار بصقة حقيرة بصقها! لكَم هي قاسية أمي! فماذا أصنع يا حبيبتي بولين!».

تجيبه:

«افعل ما يمليه عليك قلبك، ولا تنسَ أنك ثري. فماذا يمنعك من أن تؤمن للأم وللطفلة ما يضمن لهما مستقبلهما هنا في باريس، حيث أقوم بتربيتها كابنتي تماماً».

وهكذا كان. سافر بالطفلة إلى باريس، وأطلق عليها اسم بولونيت، فعاشت في كنف أسرة فياردو، يعرفها الناس على أنها ابنة بولين من زوجها لويس. وبعضهم قالوا إنها ابنتها من تورغنييف. واتهمه صديقه غوغول يوم قال له:

ـ لماذا تنكر هذا يا تورغنييف؟ الجميع يؤكدون أنها ابنتك من بولين».

فيجيبه تورغنييف:

ـ صدقني يا غوغول، إنني أحب بولين إلى درجة تمنعني من تشويه صورتها أمام التاريخ، والحقيقة هي ما ذكرتها لك.

□ □ □

● ويسطع نجم الكاتب الروسي إيفان تورغنييف، ليغدو واحداً من ألمع الكتاب الروس في العالم . . ويخبو اسم بولين، بعدما اعتزلت كل نشاطها الفني بحكم تراكم السنين وموت زوجها . . فصارت متخصصة بشؤون إدارة أعمال الكاتب الأشهر إيفان تورغنييف، في باريس . . فهي التي تنظم مواعيده مع الكتاب والناشرين، تبرم وتوقع الاتفاقات معهم، وهي التي يملي عليها، وهو على فراش المرض، روايته الشهيرة ديمتري رودين، وهي من حدّث تورغنييف عنها لتولستوي يوماً:

«هذه بولين! ملكة الملكات . . إنها الخير، والنبل، والحق، في صورة امرأة رائعة الجمال».

مثُلت بولين إلى جانب تورغنييف وهو يلفظ أنفاسه، وينطق الكلمات بصعوبة :

ـ بولين . . أيتها الحبيبة، سأنتظرك . . لكن لا تتعجلي القدوم».

وتوقف عن الكلام . . فأغمضت عينيه بأصابعها. وما انفكت أن اعتزلت الحياة العامة تماماً حتى وفاتها. وعندما فُتحت وصيتها، قُرئت العبارة التالية :

ـ «يا حبيب العمر إيفانو! ها أنذا قادمة إليك».

الفصل السادس والعشرون

جون دانلوب..
ما أروع هذه الصدفة

● لولاه لما تحققت للبشرية أعظم متعة من متع حياتنا الحديثة السريعة: متعة التنقل حيث شئنا من مكان إلى مكان بسرعة وراحة وطمأنينة، بالسيارات وبالطائرات، وبالقطارات في بعض بلدان العالم!

● مع أنه لم يكن يقصد سوى تحسين الدراجة العادية، ذات العجلات الثلاث، الخاصة بولده؛ ولم يكن هدفه من ذلك الاختراع تلك النتائج التي بلغتها حركة المواصلات في العالم.

يقول بهذا الصدد:

ـ لم أكن لأفكر في هذا لسبب بسيط جداً.. ففي منتصف القرن التاسع عشر لم يكن للسيارة ذكر.. وحين اخترعته لم يكن أحد يظن أنه سيكون للسيارة هذه الأهمية.. كل ما كنت أفكر فيه هو تحسين الدراجة.. لا أكثر ولا أقل..

أما لماذا فكّرت في الدراجة فقط، ولم أفكّر مثلاً في العربات التي تجرها

الخيول، فأيضاً لسبب بسيط، أن ولدي الصغير جوني كان يملك دراجة، ويريدها أن تسير بسرعة أكبر. . فهو لم يملك عربة تجرها الخيول.

□ □ □

● لطالما اعتبر علماء الاجتماع أن اسكتلندا هي أول بلاد العالم في تصدير الناس . . فبين كل مائة مهاجر إلى بلاد الله الواسعة، تجد عشرة من اسكتلندا. . كان جون بويد دانلوب واحداً من ثمانية إخوة، هاجروا جميعاً إلى بلاد أخرى، في حين أنه لم يغادر بلدته أيرشير في اسكتلندا. يعلل ذلك بقوله:

ـ لأني أملك أكبر مزرعة في أيرشير. . حتى قالوا من باب المبالغة، إن الطريق المرصوف من أيرشير حتى مدينة كيل مارنوك يسير في محاذاة مزرعة جون دانلوب التي يبلغ طولها مئة كيلومتر. . طبعاً كانوا يبالغون في مدى ثرائي. . كنت ثرياً، أجل، إنما ليس إلى الحد الذي زعموه.

● التاريخ يذكر أن جون لم يصنع اختراعه العجيب إلا في مدينة بلفاست. علّق جون:

ـ لأني في نهاية الأمر حننت إلى الترحال كبقية أفراد أسرتي، فهاجرت إلى بلفاست، حوالي عام ١٨٦٧ . . كنت شاباً. . والشاب الاسكتلندي لا يحب الاستقرار أبداً. . صحيح أنه في النهاية، عند سن التقاعد، يفضّل العودة إلى موطنه الأصلي كي يدفن في الأرض التي ولد عليها!

أما متى بدأ اهتمامه باختراع عجلات الدراجة الهوائية، فيقول:

ـ بعدما رزقني الله بولدي الوحيد جوني، اشتريت له دراجة ذات عجلات ثلاث. . كانت آخر صيحة في تلك الأيام. . تعلّق بها الصبيان والبنات، حتى باتت الدراجة اللامعة الأنيقة حلم كل تلميذ وتلميذة. . كانت الهواية المفضّلة

للشبان والشابات التسابُق في مهرجانات شعبية تنظمها القرى والمدن. لم تكن الطرق مرصوفة! لكن الشبّان كانوا يتطوعون لرصف الطريق الذي يسلكه المتسابقون، ليخلو من الحصى، وتتقلّص فيه «المطبّات». .

وقبل إحدى هذه المسابقات، قال لي جوني:

ـ دراجتي بطيئة جداً. . وأخشى الفشل في مسابقة الأسبوع المقبل يا أبي!

ـ إذا أحسنت الإمساك بذراع القيادة، وأجدت تحريك قدميك على الدعَاسة ستسبق منافسيك ومنافساتك. .

ـ أما من وسيلة تجعل دراجتي أسرع مما هي عليه الآن؟

ـ فكرتُ في هذا طويلاً يا جوني. . أتعرف ما السبب الحقيقي في بطء الدراجات عموماً؟

ـ ماذا؟

ـ احتكاك الإطار الحديدي للعجلة بسطح الأرض غير المستوية.

ـ ولكنْ هناك إطار من المطاط حول العجلة.

ـ إطار سميك لا يقل احتكاكاً بالأرض عن الإطار الحديدي تحته. أتعرف ماذا يجول في خاطري الآن؟

ـ ماذا؟

ـ أن أحيط الإطار الحديدي بأنبوب من المطاط المليء بالقطن، فيكون بهذا أخف من المطاط وأقل احتكاكاً بالأرض.

ـ [فرحاً] ماذا تنتظر إذاً يا أبي، أرجوك إصنع لي هذا الإطار القطني.

□ □ □

● وضع جون دانلوب أول أنبوب من المطاط ثم حشاه بالقطن وركّبه كإطار فوق العجلة الحديدية. . لم تنجح التجربة، بل فشلت فشلاً ذريعاً، لأن القطن سرعان ما تراكم فوق بعضه نتيجة احتكاك العجلة بالأرض، وأثر تأثيراً سيئاً ليس في سرعة الدراجة فقط، بل في اتزانها على الأرض أيضاً.

فكفّ عن إجراء تجربة حشو القطن، من دون الوقوف عن محاولات جديدة تجعل من الدراجة الهوائية تسير بسرعة أكبر. . دوّن في مذكراته:

ـ كنت أشتري لعبة لولدي من أحد المتاجر. . فشاهدت صاحب المتجر ينفخ الأنبوب المطاطي الداخلي لكرة القدم ويملأه هواءً بالمنفاخ المعتاد. . فجأة خطر لي أن أملأ الإطار المطاطي الذي صنعته هواءً بدلاً من القطن. . وعلى الفور بدأت في صناعة الأنبوب المطلوب والمناسب لإطار العجلة. . صنعته بنفسي. . اشتريت متراً مربعاً من المطاط، وصنعت بالمواد اللاصقة أنبوباً يدور حول العجلة الحديدية، ثم ركّبته عليها. . وجاء وقت الاختبار ـ التجربة العملية.

ـ جوني، إركب الدراجة الآن، وحاول أن تصعد بها هذا التل. . لن يكون الأمر سهلاً بالطبع. . استخدم كل قوتك. . وسنقيس الوقت منذ بدء الصعود حتى بلوغ قمة التل.

ـ كنت أصعد إلى القمة في ربع ساعة.

ـ حسناً. . لنرَ الفرق. . نحن الآن في الساعة السابعة تماماً. . هيا. . مستعدّ؟

ـ مستعد يا أبي.

ـ حسناً.. سأمشي بجانبك لأراقب الإطارات حتى لا تنفصل عن العجلات.. هيا.. ابدأ..

□ □ □

● قال الرجل إنه سيمشي بجوار دراجة ولده.. لكنه في حقيقة الأمر اضطر إلى العدو كي يظل بجانب الدراجة التي انطلقت بسرعة مذهلة ـ حسب معدلات ذلك الوقت ـ حتى وصلت إلى قمة التل... في ثلاث دقائق. كان ذلك أمراً مذهلاً حقاً.

بالنسبة إلى نتيجة السباق، فقد كان جوني هو الأول بالطبع، بفارق ساعة كاملة.. لكنهم حرموه المكافأة.. علّلت لجنة التحكيم:

«إستخدم الصبي جوني دانلوب وسائل خداع غير مألوفة ولا أمينة، بوضعه أنابيب من المطاط حول إطارات دراجته، ما وفّر لها سرعة شيطانية. لذا قررت لجنة التحكيم حرمانه من الجائزة، ومنعه من دخول أية مسابقات أخرى في المستقبل».

بعد هذه الحادثة، ماذا فعل دانلوب؟

ـ جعلتُ همّي على أي حال تحسين الأنابيب المطاطية بزيادة سماكتها، وحسن تثبيت صمام النفخ، وضبط مكانها حول الإطارات كي لا تنفصل أثناء السير... ثم سجّلت اختراعي، وكتب المسجّل في دفتره ما يلي:

«تقدم لنا اليوم، السابع من آذار/مارس عام ١٨٨٨، السيد جون بويد دانلوب لتسجيل اختراعٍ مواصفاته كالآتي: أنبوب من المطاط أشبه بثعبان البراري، يملأه هواءً بواسطة منفاخ عن طريق صمام كالدودة، ويوضع ذلك الأنبوب ذو الصمام حول العجلة الحديدية للدراجة بهدف زيادة سرعتها على الطريق».

● لم ينتشر الأنبوب المطاطي في دراجات مدينة بلفاست، رغم قيام الصبي جوني

ووالده دانلوب باستعراض الاختراع الجديد في شوارع المدينة.

أخيراً تقدم له أحد رجال الصناعة.

ـ إذا أثبتَّ أن أنبوبك المطاط هذا يستطيع اجتياز خمسة آلاف كيلومتر دون أن ينفجر، ودون أن ينفصل عن الإطار المعدني، فأنا على استعداد للاتفاق معك على تأسيس شركة لإنتاج الأنابيب.. ما رأيك؟

ـ رأيي أنني لست في حاجة إلى الاتفاق مع أحد.. إنني ثري أيها السيد، وأستطيع شراء شركتك وتخصيصها لإنتاج الأنابيب.. لكني لا أريد..

ـ بعد كل ما أنفقت من مال ومن جهد، لا تريد أن تستغلّ اختراعك؟

ـ أجل، فأنا لم أصنع الأنبوب إلا إرضاءً لولدي جوني.. إذا شئتم، ولو دون موافقتي، إنتاج مثل هذه الأنابيب، فلن أعترض..

ـ تعني أنك لن تقاضينا في حال استخدمنا اختراعك على المستوى التجاري؟

ـ ولماذا أقاضيكم؟ لقد حصلت على ما أريد من متعة.. ولا أطمع بأكثر مما أمتلك من أموال.. مع السلامة.

□ □ □

● لكن رجل الصناعة الأمين، أبى أن يستغلّ اختراع دانلوب دون أن يشركه في الأرباح، بل بادر فور إنتاج الكمية الأولى من الإطارات (عددها أربعة آلاف إطار) إلى نشر أول إعلان عن الإطارات المطاطية في العالم كله، جاء فيه:

«اشتروا إطارات دانلوب لدراجاتكم.. «سرعة أكبر»، «أمان أكثر»، «عمر أطول».. مع تحياتِ جون دانلوب».

إضافة إلى ذلك، وضع رسماً لرجل في منتصف العمر، بثياب أنيقة، في يديه

قفازان من القطن الناصع البياض، وقد علّق في ذراعه عصا من الأبنوس اللامع، وفوق عينه اليمنى «مونوكل» بسلسلة ذهبية.

غير أن جون دانلوب ثار ثورة عاصفة:

ـ هذه سخرية لا أحبها، سأقاضيكم.

ـ لماذا بالله يا سيد دانلوب؟ لقد احترمنا حقوق اختراعك، وجعلناك شريكاً بالنصف في مصنع إنتاج الأنابيب.. وعدتَ ألا تقاضينا إذا قمنا بالإنتاج!

ـ لن أقاضيك لهذا السبب.. ولكن لهذا الرسم المبتذل الذي نُشر فوق الإعلان.. سيقول الناس إن الرسم يمثلني شخصياً.. وإليك ما أوافق عليه..

«تؤكد شركة دانلوب للأنابيب المطاطية أن هذه الصورة لا صلة لها من قريب أو من بعيد بالسيد جون بويد دانلوب مخترع أنابيب المطاط للدراجات».

● عندها فقط هدأت ثائرة المخترع الطيب القلب.. الرجل الذي لولا رغبته في إرضاء ولده الصغير جوني، لما قدّم للبشرية الإطارات المطاطية التي جعلت من قيادة السيارات متعة، ومن ركوب الطائرة أمناً ورفاهية، ومن التنقل بين البلاد المختلفة على الطريق المرصوفة الناعمة، إحدى العلامات المميزة للحضارة الإنسانية المعاصرة!

□ □ □

الفصل السابع والعشرون

نوستـرداموس ..
درس الطب واحترف التنبّؤ بالمستقبل

● إنه عام ١٥٢٢. الطاعون يفتك فتكاً ذريعاً بالناس في كل من إيطاليا وفرنسا.. المرض اللعين يدخل كل بيت، لا يميز بين القصور والأكواخ.. بين الأغنياء والفقراء.. الذعر يسود كل القرى والمدن.. البيوت مغلقة على من فيها من الأحياء والأموات على السواء..

حتى القساوسة امتنعوا عن الدخول لأداء الصلوات على الموتى.. لا أحد في الشوارع.. رغم ذلك، هناك شاب في الخامسة والعشرين، وقد ارتدى ثياب طالب طب إيطالي، يقترب من إحدى الدور، ويطرق الباب..

ـ ميشيل، بحق السماء.. ماذا جاء بك إلى أكس في هذه الأوقات التعيسة؟

ـ ماذا؟ ألن تسمح لي بالدخول يا جان؟

ـ ألا تخشى الطاعون؟ إن في البيت ثلاث جثث، من بينها جثة أمك!

ـ أو لم تدفنها يا أخي حتى الآن؟

ـ عمال المدافن، أو من بقي منهم على قيد الحياة، يرفضون دخول البيوت. . لم يعد أحد يدفن موتاه، يا ميشيل. بالله لماذا جئت؟ كنت في إيطاليا بمأمن من هذا الوباء اللعين. .

ـ من قال لك هذا؟ إنه يفتك بالناس في إيطاليا بأبشع مما يفعل هنا. . لهذا لا أرى ما يحدث في فرنسا عجيباً أو غريباً. . المرض يجتاح إيطاليا وفرنسا. . ولسوف ينتشر في العالم كله. .

ـ ولماذا جئت إلى إكس؟ لماذا تركت دراسة الطب في إيطاليا؟

ـ لم آتِك على وجه الخصوص، لكنني أجوب المدن والقرى، محاولاً إرشاد الناس إلى أفضل طرق الوقاية من الطاعون. . لم ألتحق بكلية طب فلورنسا كي أمارس المهنة في غرفة مغلقة ولحساب الأثرياء فقط يا أخي. . مهمتي أكبر من هذا. . أن أنزل إلى الميدان في الوقت الذي يحتاج الجميع إلى خدماتي المجانية.

ـ إنك تهذي. . هذا مرض لا شفاء منه.

ـ يمكن مقاومته بوسائل صحية. أن نحصّن الناس ضد هجماته. .

ـ وكيف؟

ـ إني أدعو الناس أينما حللت إلى اتخاذ إجراءات وقائية معينة. . رش الغرف بالجير، أو مسحوق الكبريت ممزوجاً بالجير، عدم شرب الماء دون غليه مسبقاً، عدم أكل الخضار قبل غسلها جيداً بالماء.

ـ أي هذيان هذا يا ميشيل؟ أهذا ما علّموك في كلية الطب؟

ـ بعض ما علموني. . ويجب أن أعلّمه للناس. . معذرة يا أخي. . ليت الوقت يسمح لي بدفن أمنا. . لكن الأحياء أولى بالرعاية من الأموات. . أنا ذاهب!

● لطالما اعتُبر هذا الطبيب من رواد الطب الوقائي في العالم. .

لكن ميشيل نوستراداموس لا يدّعي الريادة، بل يقول:

ـ هناك الطبيب الفرعوني نون ـ ري الذي خلّف مذكرات في هذا المجال.

ست عشرة ورقة بردي في الطب الوقائي، وبالذات من الطاعون، وبعض الأمراض المستوطنة في مصر على الخصوص، مثل البلهارسيا.

ولا أغفل المخترع العربي الأشهر جابر بن حيّان، ففي كتابيه **المختصر** ومائدة الزمرد أسرار طبية وفلكية، لا أدري كيف تجاهلها العالم، مع أني أشرت إليها في مؤلفاتي.

بيد أن شهرة نوستراداموس طغت بوصفه عالماً فلكياً على شهرته طبيباً. . يقول في هذا الصدد:

ـ استقيت علمي الفلكي من علماء مصر وآسيا الصغرى وفارس وقبائل الكلدان، ومن مؤلفات جابر بن حيّان على وجه التحديد.

بعد فترة عاد إلى مدينته، حيث التقى بأخيه، فدار بينهما الحوار التالي:

ـ إلى أين تتجه الآن؟

ـ إلى فرنسا مرة أخرى. . فالملكة كاترين دي مدسيس أرسلت لاستشارتي.

ـ فلكياً أم طبياً؟

ـ لا أدري.

ـ كيف لا تدري وقد حزت على شهرة مدوية كقارئ للمستقبل في النجوم. . ألست أشهر عالم في الفلك هذه الأيام؟

ـ [في سخرية] يا أخي، لا يعلم الغيب إلا الله.

ـ ولماذا يتهافت عليك العظماء لقراءة ما يكنّه لهم الغيب من أحداث، من خلال تحركات الأفلاك؟

ـ صدّقني يا أخي، أيام شبابي كنت أعتقد أن لتحركات الأفلاك علاقةً وطيدة بالأحداث التي تجري على الأرض، أن لها اتصالاً بحياة الناس. . أما بعد. . فقد آمنت أن الغيب في علم الله وحده ولا أحد غيره عز وجلّ.

ـ إذن لست تدري ماذا تريد منك ملكة فرنسا كاترين دى مدسيس؟

ـ لا أعرف. أغلب الظن أنها تريدني أن أبحث لها عن دواء للعقم. . فهي لم تنجب حتى الآن.

ـ وهل عندك دواء لهذا؟

ـ لكل داء دواء يا أخي. . ولكني لن أصف شيئاً حتى أفحص الملكة طبياً. .

□ □ □

ـ كلا يا نوستراداموس. . لن أسمح لك بفحصي. . أنت تعرف أنني عاقر، لذا عليك أن تسأل الأفلاك سؤالين محددين. . ما هو علاج عقمي؟ وثانياً، هل سيكون لي من زوجي الملك من يرث مُلك فرنسا بعده؟

ـ يا مولاتي، لقد خطر في ذهني قبل أن أقابلك أنك ستطلبين الأمرين معاً. . لذلك سألت النجوم وأجابتني عن السؤالين معاً. .

ـ ماذا تنتظر بحق السماء؟ ماذا أفعل كي أهب زوجي الملك ولياً للعهد؟

ـ عندي الدواء يا مولاتي.

ـ وما هو؟

ـ خليط من دم أرنب برّي، وبول خروف أحمر اللون، وقطع من كتف أوزة ليس فيها أي علامة، تُنقع جميعها في كمية من الخل.

ـ هذا مقزز يا نوستراداموس.

ـ على أن تشربي من هذا المزيج ملعقة كبيرة ثلاث مرات يومياً لمدة ثلاثة شهر..

ـ ويزول عقمي؟

ـ لقد قالت النجوم إنك ستلدين عشرة من الذكور يا مولاتي.

□ □ □

● أعجب ما في الأمر أنه على مدى ثلاثة عشر عاماً، أنجبت الملكة ماري مدسيس عشرة من الأبناء الذكور.. صحيح أن سبعة منهم ماتوا، لكن «وصفة» نوستراداموس أتت أكلها دون ريب.. كما صدقت معه النجوم في عدد مَن أنجبتهم الملكة.. لهذا السبب استدعته إلى القصر مرة أخرى.. تردّ على من يسألها:

ـ ولم لا؟ الملكات والملوك والأمراء يتهافتون على تنبؤات نوستراداموس.. حتى البابا سكسمه الخامس يستضيفه في الفاتيكان ليقرأ له طالعه. ثم.. إنه صدق معي. والملك مريض ولسوف يموت قريباً.. الخلاف مستعر بين مستشاري الملك حول ولي العهد.. أيكون أحد أبنائي الثلاثة؟ أم سيوصي الملك قبل موته بالتاج إلى اللعين أمير ناربون؟ هذا ما أريد أن أعرفه من نوستراداموس.

● ويعتزل نوستراداموس الناس في برج القلعة الذي أعدته له الملكة، وجهزته بكل

جديد من أجهزة رصد الكواكب والأفلاك. . عندما يزوره أحد يقول له:

ـ أهلاً بك، إنما لا تحاول سؤالي عن أسرار ذلك العلم. . إسألني عن أي أمر آخر إلا هذا. .

ـ يا داموس، شهرتك كلها في هذا المضمار. فكيف أسألك في غيره؟ ومع ذلك، دعنا نبتعد عن التفاصيل ونقتصر على ذكر النتائج.

ـ مثل ماذا؟

ـ هل حدث أن تنبأت بشيء ووقع تماماً كما تنبأت؟

ـ إقرأ كتابي علم القرون، ففيه تنبأت بأشياء كثيرة.

● وفعلاً، صدق الرجل في معظم النبوءات التي حدثت بعد وفاته، وقد تضمنها كتابه الذي أصبح أحد أشهر الكتب في عالم التنبوء بالمستقبل، منها مثلاً:

ـ اندلاع الثورة الفرنسية، بعد وفاته بمائتي عام.

ـ موت لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت. . وبالأسماء.

ـ الحرب العالمية الأولى.

ـ الحرب العالمية الثانية.

ـ وقبل ذلك أشار إلى الكثير من حروب نابليون.

ـ وذكر أسماء كثيرة مطابقة أو شبه مطابقة ، مثل هتلر.

ـ كما تنبأ بكثير غير قابل للتصديق، ولكن بشكل أو بآخر حدث الكثير منه.

● أما في الحقبة التي عاش فيها، فقد حدثت أشياء عجيبة، مثلاً، سأله أمير نابولي عن الظروف التي ستودي بحياته، فقال له:

ـ ستموت من كثرة الشراب.

ـ أتريد بذلك يا نوستراداموس أن تحرمني من شرابي المفضل، النبيذ؟ أبداً لن أدع الخمر. . إبحث لك عن لعبة أخرى تغريني بها لترك الشراب. . هيه؟ إقرأ الطالع مرة أخرى يا نوستراداموس. .

ـ مولاي، قالت النجوم أكثر من مرة إنك ستموت من كثرة الشراب. . سيمتلىء بطنك وتموت في أقل من ثلاث دقائق. .

ـ هل أنت واثق يا نوستراداموس؟

ـ مولاي، لم تكذبني الأفلاك مرة واحدة. .

ـ إذن، فلن أقرب الشراب بعد اليوم. . أبداً. .

● وصدق ما توقع. . ورغم أن الأمير أقلع تماماً عن الخمرة منذ تلك اللحظة، فهو أثناء عبور أحد الأنهار في قارب صغير، سقط في الماء، ولم يتقن السباحة، فغاص إلى القاع وامتلأ بطنه بالماء. . ومات.

داموس لم يحدد نوع الشراب في النبوءة!

أما كيف تنبأ بيوم وفاته هو، فيقول:

ـ كنت أعرف أنني سأقابل الملكة غداً لأخبرها أن أولادها الثلاثة سيحكمون فرنسا الواحد بعد الآخر. . أكبرهم سيحكم عاماً. . والثاني، ثلاثة أعوام. . والصغير، ستة أعوام. . وفي النهاية سيتولى أمير ناربون، الذي تكرهه الملكة، العرش. . أثناء اللقاء قالت لي:

ـ سيكون أولادي في حاجة إلى حكمتك يا نوستراداموس. . لذا أمرت بأن تكون مستشاراً للعرش بعد وفاة الملك. .

ـ لن يتحقق ذلك يا مولاتي. .

ـ عجباً! ترفض هذا الشرف يا نوستراداموس؟

ـ لست أرفضه يا مولاتي، ولكنه لن يتحقق. . قالت النجوم إنني سأموت في خلال أسبوع من هذا العرض الكريم. .

وفعلاً، مات ميشيل نوستراداموس، أشهر من اشتغل بالفلك والتنجيم، بعد أسبوع واحد من مقابلة الملكة. .

□ □ □

طاغـور..
وقداسـة الأمومـة

أثناء تسلمه جائزة نوبل، كان عليه إلقاء كلمة، فلما وقف خلف المنصة، قال أمام الحفل الأكاديمي الكبير :

«أُمي هي من صنعت مني هذا الإنسان الذي تكرمونه، ولا أتصور أن يعيش رجل على أرض البنغال الذهبية، وتكون له مثل أمي، ولا يشبّ شاعراً أو روائياً. فمنذ أن تفتحت عيناي على وجهها الذكي، كان كل شيء في متناول يدي .. النجوم، والأقمار، والأشجار .. بل كنت أُعانق من خلالها كل مخلوقات الله الجميلة .. كانت أمي مصدري الأول في الطعام الذي يغذي بدني، كما كانت مصدري الأول في الإلهام الروحي .. لأن كل أم في هذا الكون هي شاعرة، وإن أعوزتها ــ أحياناً ــ الكلمات. ليراقب أي إنسان وجهها، وهي تحتضن وليدها في حجرها، فيجد أن كل خلجة في هذا الوجه، اكتست بمشاعر الرحمة والرأفة والحب. هذا هو الشعر. ولو أرهفنا السمع لما تهمس به للحبيب الصغير من كلمات، بل أحياناً مجرد حروف، نجدها حافلة بالرحمة والرأفة والحب» ..

● كتب الشاعر طاغور أجمل الأشعار التي تتغنى بالأمومة، لكنه لم ينس والده الذي علمه الرحمة. فكما كتب عن أبيه أنه مصدر السلطة . . ومصدر خوف الأبناء . . فكيف يكون المرء مصدر الخوف، ومأمنك في الوقت نفسه؟ أو إذا كانت السلطة الحاكمة هي ملجأك في حال أحزنك أمر ما؟ ظل على رأيه في الحكومة الرشيدة التي يمثلها والده ويعتبرها مصدر الرحمة، وهو لا يتصور حكومة بغير هذا المفهوم . .

يروي طاغور حكاية أحد أصدقاء والده الذي استغرب تخلّف طاغور عن الذهاب إلى المدرسة، فأجاب الأب:

«لا أحب أن أُكرهه على ما لا يريد. فكلما اصطحبته إلى المدرسة كان يبكي، كأنني أسوقه إلى المذبح. أعتقد أن ولدي رابندرانات طراز آخر لن يفيد من شيء يُجبر عليه بالقوة».

فقال الصديق : إنك تدلله!

أجابه الأب : إنني أرحمه . .

□ □ □

● وفاءً منه، لم يتنكّر طاغور لمن علمه حرفاً، فنراه يسطّر ملاحم من التقدير والاحترام لأساتذته. وحينما عاد من أوروبا، حائزاً درجة الدكتوراه في الآداب، وجائزة نوبل، ذهب إلى قبر معلمه، ووضع الجائزتين على تراب القبر، كأنما علقهما وسامين على صدر ذلك المعلم، الذي عبّر عنه قائلاً :

«كان يحبِّب إليَّ ما يريد أن يعلّمني، قبل أن يعلّمني إياه، فإذا طلبته بنفسي أقبلت عليه بشغف وحماسة. كان أستاذي هذا حكيماً».

● طاغور شاعر لم يلقِ كلمة واحدة في أية مناسبة. وإذا لم يشعر بنبضات قلبه تتفاعل مع ما يختلجه، عجز عن بيت واحد من الشعر.

● كان يلتقي مع غاندي حول احترام الأديان، وهو لا يعزو ذلك إلى كونه صديقاً لغاندي، بل إلى والده، الذي كان يصطحبه طوال أعوام إلى حنايا جبال الهملايا، حيث بنى بيتاً على مشارف الغابة المحاطة بمعابد الأديان جميعها، مطلقاً على ذلك البيت اسم «بيت السلام».

يؤمن طاغور بأن الأديان كلها تشترك في حب الجمال، وتبحث عن طمأنينة النفس. ويؤكد مؤرخو طاغور أن قصيدته الأولى ولدت وترعرعت بين أحضان تلك الطبيعة، يوم قال:

أيتها الطبيعة

من كنوزك اللانهائية

أقتبس الألحان لهذا الناي الحزين

من فمك تغني الطيور، وترتعش الأنغام سعادة

على صدر الجداول،

وبين ذرات مساقط المياه

تولد السعادة . . وترحل الأحزان . .

□ □ □

● عندما نشر طاغور ديوانه الأول «أغاني المساء»، تُرجم إلى اللغة الإنكليزية،

فتلقّفته الصحف في إنكلترا، وغيرها من البلدان الناطقة بالإنكليزية، بحيث نشرت مقتطفات منه. ثم أخذت دواوينه الأخرى تغزو الأسواق العالمية، ليغدو بعدها طاغور واحداً من أصدق شعراء العالم والمعهم.

واجه طاغور نقداً عنيفاً من داخل الهند، بسبب عدم فاعليته للمساهمة في تحرير الهند من الاستعمار . . يبرر ذلك بما يلي:

«لم أكن أؤمن بالعنف الذي بدأت به محاولات التحرير الأولى . . كما لم أكن أؤمن بالرأي القائل إنه أولى بالهند أن تعيش على مجدها الغابر من أن تكتسب شيئاً من الحضارة الحديثة . . فأنا أكره الاندفاع دون التروي . . وأذكر حينما جاءني بعض الثائرين الهنود، أنني قلت لهم : أنظروا أمامكم إلى الحضارات الجديدة، وحاولوا أن تنهلوا منها ما يناسب الهند من دون خجل. ولما قال لي أحدهم : إن كابليك، الذي يمثل العقل الأوروبي يدّعي بأن الشرق شرق، والغرب غرب، قلت لهم إن كابليك لا يهمني، فالعلم هو العلم . . والآلة هي الآلة، وهذا هو سر الصراع . . فإذا أصر الشرق على رفض العلم، ورفض الآلة، فلن يلتقي مع الغرب . . العلم والآلة هما المدنية الحديثة التي تحقق الرفاهية للإنسان».

□ □ □

● لطاغور أسلوب رائد في التعليم، لأنه استنبط تجربة غير مسبوقة، معتبراً أن التعليم من خلال الطبيعة مدرسة دون أسوار . . ودون مقاعد خشبية . . في الغابة بين الأشجار، التلاميذ أحرار في غدواتهم وروحاتهم. . فليتخذوا غصون الشجر مقاعد إذا شاؤوا . . وليستمعوا إلى الموسيقى إذا لم يستهوهم درس الرياضيات، واللوحة الكبيرة المعلقة وسط الحرش يُكتب عليها:

يُعبد الله الواحد الذي لا يُرى . .

فمن شروط هذه المدرسة محبة الله، ورفض أي جدل يكرس الكراهية، ويلحق الضرر بالنفوس . . وقد عبّر شعراً عن مدرسته هذه :

«حيث العلم حر لا قيد عليه . .

حيث تجمعت أشلاء الدنيا . .

التي مزقتها الشعوبية الضيقة . .

حيث ينطلق العقل من إسار الخوف . .

يرتفع رأس الإنسان عالياً».

● وإلى جانب الشعر والقصة، كان طاغور رساماً ذا أسلوب متميز، يتحدث لغة متمايزة عن لغته الشعرية، إذ يرسم البدائية، أي الرسم البدائي العفوي.

● فضلاً عن ذلك، يُعتبر طاغور المجدد في الموسيقى الهندية، إذ نظم أكثر من ألفي أغنية، أسبغ عليها نوعاً متميزاً من النظام اللحني، يحمل طابع طاغور. فطاغور الشاعر والقاص والرسام والموسيقي، مُذهل في مداه . . ومُذهل في كميته، وفي نوعيته . . فله اثنتا عشرة رواية، وإحدى عشرة مسرحية شعرية، أو موسيقية، وثلاث مسرحيات راقصة، وأربع مسرحيات هجائية أو ساخرة. . وبضعة كتب تشتمل على قصص قصيرة، إضافة إلى عدد من كتب الذكريات والأسفار لقد كتب طاغور في شتى الموضوعات : في الأدب واللغة والتاريخ والدين والفلسفة والتربية، على أن معظم إنتاجاته تمحورت حول قيمة واحدة هي: الحب . .

«لقد جاء الحب . . وذهب

ترك الباب مفتوحاً . .

ولكنه قال إنه لن يعود

لم أعد أنتظر إلا ضيفاً واحداً

أنتظره في سكون

سيأتي هذا الضيف يوماً . .

ليطفئ المصباح الباقي . .

ويأخذه في عربته المطّهمة . .

بعيداً . . بعيداً . .

في طريق لا بيوت فيه ولا أكواخ».

كانت آخر كلماته قبل الموت، **«أمامك أيها البحّار ⁘ أمامك محيط السلام . .**

أدخل بقاربك . . أدخل وأرفع شعار الذهاب نحو السلام».

صدق الجاحظ بقوله: **«الشعر لا يُستطاع أن يترجم . . ولا يجوز عليه النقل من لغة إلى أخرى».**

□ □ □

في واقع الأمر، إن ما تم نقله من شعر طاغور إلى اللغة العربية لا يشكّل إلا جزءاً ضئيلاً أنجزه عدد من الأدباء في مناطق متفرقة من الوطن العربي، منهم الدكتور عبد الواحد لؤلؤة، والشاعر خليفة التلسي، وصلاح صلاح، وغيرهم.

وبعد نيل طاغور جائزة نوبل، قامت دار ماكملان للنشر عام ١٩١٣ بترجمة مبتسرة لبعض أشعاره، تبيَّن للنقاد في ما بعد أنها ترجمة رديئة للغاية.

□ □ □

«السماء ملأى بالنجوم والشمس . .

وهذي الأرض تنبض بالحياة . .

وبين كل هذا . . أنا أيضاً لقيت مكاناً لي . .

من هذا البهاء، تولد أغنيتي

نابضة بالحب . . لكل الناس».

□ □ □

هيوارد هيوز ..
اللغز الغامض

صحافيان أصدرا كتاباً يُسلط الضوء على بعض ملامح هيوارد هيوز المتحدّر من ولاية أوتاه . . كانا قد التقياه عدة مرات رغم صعوبة اللقاء . . في أحد هذه اللقاءات، سأله أحدهما عن الشخصية التي تأثر بها.

ـ إنه أبي. كنت أحبه وأسير على نهجه . . وأذكر لكم حادثة وقعت له وأنا معه في أحد مصانعه البعيدة في جوف صحراء نيفادا . . مصنع تكرير النفط. . اصطحبني في سيارته. . واقتربنا من البوابة، حيث تصدّى لنا رئيس جهاز الامن.

ـ ممنوع الدخول . . هل معك تصريح ؟

ـ لستُ في حاجة إلى تصاريح . . إفتح أيها الغبي . .

ـ إلزم حدودك أيها الرجل . . أنا مدير جهاز الأمن . .

ـ هل تعرف أن بمقدوري تحطيم وجهك بقبضة يدي ؟

ـ [ساخراً] أتحب أن ألقي القبض عليك ؟

ـ عندها ستجوع أنت وأولادك وزوجتك . . ألا تعرف أيها الغبي أنني جون هيوز مالك هذا المصنع ؟

ـ [ساخراً وضاحكاً] وأنا أيضاً جوزف ستالين . . لم يبقَ الا أن يدعي أمثالك شخصية جون هيوز العظيم!

ترجّل أبي من السيارة متَّجهاً إلى ضابط الأمن، فأشبعه لكماً وضرباً، والرجل يرد الضربات بقدر استطاعته . . فقد كان أبي ضخم البنية . . تجمهر العمال يصيحون بالضابط المشتبك مع المليونير الأشهر . .

ـ [في مذلة] آسف يا سيد هيوز! لا أدري كيف أعتذر منك. كنت أقوم بواجبي على أي حال لخدمتك. .

ـ سأكافئك على تلك الخدمات . . أنت مفصول. .

ـ ألا ترى أن أباك كان قاسياً ؟

ـ ولكنه عمليّ. لم يسمح لأحد بمخالفة أمره تحت أي ظرف . .

ـ ورثت هذه الصفة أيضاً من أبيك؟

ـ أنا صورة طبق الأصل عن أبي . . كنت أحبه، فقلّدته في كل شيء . .

● كان هيوارد هيوز يحيط حياته بالغموض والسرية . . شرعْنا نتابعه يغادر مدينة أوتاه، في طريقه إلى لاس فيغاس، ونراقب ونتابع تلك الإجراءات الغريبة التي أُعدت لسفرته في قطار سري. . لدى وصوله إلى محطة قطار لاس فيغاس، تقترب سيارة إسعاف من قطار العربة الأنيقة وتحمله مغطى بالملاءات البيضاء،

لتنطلق به نحو عمارة كبيرة أنيقة في وسط المدينة. وحالما يدخلون الحمالة التي تنقله، يغلقون الأبواب دونه.

في ذلك الطابق، ثمة أكثر من عشرين شقة . . كلها لرجل واحد. ما إن استقر، حتى أذن لسكرتيره بإدخالنا.

ـ [يضحك] كنت أعلم أن لا مفر لي من تطفلكم . . ماذا تريدان أن تعرفا لتكتباه لقرائكما عني ؟

ـ لماذا هذه السرية في دخولك العمارة؟

ـ لقد وعدتماني بألاّ تنشرا كتابكما عني إلا بعد ثلاثة عقود . . لذا، سأفتح قلبي وأتحدث إليكما. . أنا في هذه اللحظة النزيل الخفي الذي لن يراه أحد.

ـ لماذا ؟

ـ من حقي أن أتصرف بحياتي كيفما أشاء . . لقد نلت على مدى خمسة وستين عاماً كل ما يتوق إليه إنسان . . وكل ما تهيئه الثروة لصاحبها من متع . .

ـ متع حسية ؟

ـ من قال ذلك؟ الصراع الدائم من أجل مزيد من الثراء مع جبابرة المال متعة نفسية رائعة! في قصوري جمعت أجمل اللوحات لأشهر الرسامين . . هذه متعة نفسية لا تعادلها متعة! هل تعرفان مثلاً أنني أخرجت أربعة أفلام شهيرة؟ صحيح أن أحد كبار المخرجين وضع اسمه عليها، لكنه لم يُخرج في الحقيقة مشهداً واحداً . . أنا من قمت بالعمل كله . .واكتفى هو بوضع اسمه في الإعلانات وفي مقدمة الأفلام . . حتى النقاد الذين أثنوا على تلك الأفلام ومخرجها الوهمي قبضوا الثمن بسخاء. . ولا شك في أنكما تعرفان بطلة الأفلام الأربعة.

ـ نعرف على الأقل علاقتك الحميمة بالممثلة جين راسل. .

ـ تماماً، هي جين راسل التي كانت، في أوج شبابها، صديقتي المحبوبة، وقد كسبت بفضلها الملايين.

ـ تعني جرّاء أفلامها الأربعة التي أخرجتها لها ؟

ـ [ضاحكاً] بل جرّاء الثياب التي كانت ترتديها في الأفلام . . هي من تصميمي، صُنعت على طرز مختلفة في مصانع الثياب التي أنشأتها، لتصبح صيحة العصر. تخاطفتها النساء والمراهقات والصبايا، بل حتى العجائز . .

ـ سيد هيوز، إلى متى تبقى متخفياً ؟

ـ الى الأبد!

ـ وكيف تدير شركاتك العديدة . . شركات النفط . . شركات الطيران . . شركات الخطوط الحديدية ؟

ـ ترسل مجالس إدارات هذه الشركات إليّ تقاريرها، وأنا أُرسل إليها تعليماتي المكتوبة، عن طريق المحامي الوحيد الذي يقابلني . . والويل لمن يخالف تعليماتي!

ـ من هو ذلك المحامي ؟

ـ هو أيضاً رجل خفيّ، لا يراه غير سكرتيري، الذي ينسق معكما مسألة اللقاء بي . . أوتعرفان اسم سكرتيري هذا؟ إنه السيد «أهلاً وسهلاً».

ـ إسمه «أهلاً وسهلاً» ؟

ـ [ضاحكاً] أنا من أطلقت عليه هذا الاسم، وهناك غيره ممن ألتقيهم، ويقومون على خدمتي . . أطلقت عليهم أسماء مثل «السيد خارج على القانون» . . و«السيد

حثالة». . و«السيد الوقح». . دعوني أناد لكم «أهلاً وسهلاً» ليحدثكم عن إجراءات التواري التي أتخذها . . يا «أهلاً وسهلاً». .

ـ أنا في خدمتك سيد هيوز. .

ـ حتى صدور أوامر أخرى، أنت الآن في خدمة هذين الصحافيين. أجب عن أسئلتهما في حدود تعليماتي إليك. .

● جلسنا إلى السيد «أهلاً وسهلاً» والرشاش لا يفارق يده. هو رجل مرح، قدّم نفسه على أنه من طائفة المورمان . . لا يقربون الخمر . . ولا موائد القمار . . ويعتبرون الكذب خطيئة كبيرة . . ومع هذا، اختارهم هيوارد هيوز ليكونوا في خدمته في لاس فيغاس. .

ـ ما هذا التناقض؟. . المورمان أناس مسالمون وأنت تحمل الرشاش؟

ـ لا تناقض على الإطلاق . . الرشاش خالٍ من الرصاص.

ـ فلماذا تحمله إذاً؟

ـ مراقبة الحراس الذين تغص بهم العمارة . . ما يهمنا ألا يرى أحد السيد هيوارد هيوز . . إذ قال لنا : سأتوارى عن عيون الناس جميعاً، إلا عن عيونكم أنتم الخمسة وعين المحامي . . مهمتنا الإشراف على جهاز الحماية.

ـ ألا يلتقي السيد هيوز أحداً سواكم؟

ـ [مرحاً] السيد هيوارد هيوز من محبي الجمال. يلتقي العديد من النساء يومياً، إنما بطريقة لا تفضح ملامح شخصيته!

ـ ومن يأتي له بأولئك النساء؟

ـ إننا نخدمه بإخلاص. . ومحاميه كذلك، يجوب العالم ينتقي له أجمل النساء وأصباهنَّ. .

ـ أليست له عائلة ؟

ـ له نساء كثيرات يتزوجهنَّ في المساء، ثم يُطلقهنَّ بأسلوبه الخاص في الصباح، مع المكافآت المجزية.

ـ ما حجم هيوز المالي ؟

ـ سيدي، يستطيع في لحظة أو بمكالمة تلفونية أن يُفلس عدداً من الشركات الكبيرة يفوق عدد أصابع عشرة رجال! إنه أغنى رجل في العالم . .

● هذا الملياردير الخفي هيوارد هيوز. . الرجل الذي اختفى عن عيون الناس في الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٦٦ لا يعرف أحد شيئاً عنه إلا من خلال القنوات الضيقة التي جئنا على نتف منها. .

ومنذ سنوات قليلة أُعلنت وفاته. لسنا ندري ما إذا كان الإعلان حقيقةً أم كذبة من مبتدعات ألاعيبه! هل لا يزال هيوارد هيوز قابعاً في وكره في لاس فيغاس في أرذل العمر؟ . . أم صحيح ما ورد في تقرير وفاته الصادر من أحد مستشفياته: **لقد وضعنا جثة هيوارد هيوز في ثلاجة على درجة حرارة تحفظ لجسمه البقاء حتى يُكتشف علاج لبثّ الحياة ثانيةً في جسمه؟**

وقد رُصد الجزء الأكبر من أمواله للبحوث، سعياً إلى اكتشاف السر الذي عجز عنه الكثيرون من قبله. .

ديلسبس.. هندسَ قناة السويس.. وأخفق في قناة بانما

● كتب إليه ابنه: «فيمَ ذهابك إلى بانما يا أبي؟ عمّ تبحث هناك؟ عن المال؟ عندك ما يكفيك ويكفينا، بعد أن حققت نجاحاً تاريخياً في قناة السويس. لقد بلغتَ القمة يا أبي، حتى غدوت أشهر فرنسي في العالم كله، عضواً في البرلمان، ولو طلبت رئاسة الوزارة لسعت إليك! . . مشروع بانما ضخم وعظيم، لكنه لن يترك لك ساعة واحدة من الهدوء والراحة. . وأنت يا والدي في سنّ تحتاج فيها إلى الراحة. . ثم هل تضمن ألا يتخلّى عنك الحظ في بانما، خلافاً لما تبسّم لك في السويس؟

أبي. . إذا قررت العمل في هذا المشروع الخيالي وأردت مني مرافقتك، فثق بأنني سأتبعك مهما حدث وأنا راضي النفس. فكل ما أملكه في حياتي، هو ما أعطيتنيه. . ومن حقك أن تسترده عندما أعوضك بالسهر على راحتك».

● ذلك ما كتبه شارل ديلسبس لأبيه فرديناند ديلسبس، مهندس شق قناة السويس، ليثني والده عن شق قناة أخرى تربط المحيطين الهادئ والأطلسي. . لكن أباه

رفض نصيحته، ولم يملك الابن سوى الرحيل مع أبيه من باريس إلى بانما، ومن بانما إلى السجن.

● كان فرديناند ديلسبس في الثامنة والسبعين من عمره، يتفاوض مع شركة أميركية تسعى إلى مدّ خط حديدي يصل بين ميناء كولون على البحر الكاريبي، ومدينة بانما على المحيط الأطلسي. إنتخبته تلك الشركة رئيساً تنفيذياً مطلَقاً لمشروع حفر قناة تربط بين المحيطين في منطقة بانما.. لم يكن اختيارهم هذا اعتباطياً، فمجرد ذكر اسم فرديناند ديلسبس رئيساً للمشروع، يعطي دفعة من الحماسة للمساهمين نظراً إلى نجاحه المدوي في شركة قناة السويس.

قبِل فرديناند العرض، رغم تحذيرات خبراء باستحالة تنفيذ المشروع.. لكن ديلسبس كتب في دفتر مذكراته:

«إذا كانت الشركة الأميركية قد نجحت في مدّ الخطوط الحديدية بين الأحراش، وشقّت لها الطريق بين الجبال، وبنت لها الجسور فوق المستنقعات.. رغم الهوام والحشرات والثعابين السامة والتماسيح الفتّاكة،. ورغم الأمراض الغامضة المتفشية في المنطقة.. فما الذي يعيق نجاحي في حفر القناة التي هي حلم كل ربابنة السفن منذ ماجلّان وكولومبوس وفاسكو دي غاما؟».

أرسل ديلسبس أحد مساعديه، الكابتن وايز، ليمكث عدة شهور يرسم خرائطه عن طبيعة المنطقة في بانما. فعاد يطفح وجهه بالتفاؤل، ليقول لِديلسبس:

ــ المشروع ممكن التنفيذ.. هناك عقبات بالطبع، ولكن يسهل التغلب عليها جميعاً، إلا عقبة واحدة.. وحتى هذه، عندي لها الحل الأمثل..

ــ وما تلك العقبة يا وايز؟

ــ انظر إليها على الخريطة يا أستاذي.. هنا على البحر الكاريبي ميناء كولون،

حيث سنبدأ الحفر. . وهنا بلباو، حيث سننتهي. تبرز المشكلة من ميناء كولون إذ بلباو، حيث يرتفع المستوى إلى أكثر من ٨٧ متراً. . مستوى المحيط الهادئ أعلى بهذا القدر من مستوى الأطلسي. .

ـ هذه مشكلة هندسية لم أواجَه بمثلها عند حفر قناة السويس. . ما الحل الذي تقترحه؟

ـ هناك الأهوسة ـ أي السدود الصغيرة. سنقيم على طول القناة، بعد حفرها، ثلاثة أهوسة كبيرة، فلا مناص أمامنا سوى هذا. .

ـ لا، بل سأحفرها دون الحاجة إلى سدود أو أهوسة. . قد يكلفنا هذا أموالاً طائلة، وربما تضاعفت النفقات، بيد أنني واثق من النجاح.

● بدأت الشركة بطرح أسهم المشروع الجديد في أسواق المال بعدما سبقته دعاية مدوية. . كان المتوقع أن تبلغ قيمة الأسهم ٤٠٠ مليون فرنك، لكن المساهمين لم يدفعوا أكثر من ثلاثين مليوناً.

فيقول الابن لأبيه:

ـ انفض يدك من هذا المشروع الذي لا يبشّر بخير. .

ـ سنبدأ بما جمعناه، يا شارل. . وكن على ثقة بأن المساهمين سيدفعون أضعاف ما طلبنا. .

● ووصل ديلسبس وولده إلى مدينة كولون في أميركا الوسطى، حيث استُقبِل استقبالاً أعاد إلى ذاكرته احتفالات افتتاح قناة السويس. أصدر المهندس الشهير أول بياناته لأهالي المنطقة حيث سيجري الحفر. . جاء فيه:

«من حقكم أن تحاطوا علماً بكل صغيرة وكبيرة عن المشروع الذي سيجلب الخير

لبلادكم وللعالم أجمع. . ستنفق الشركة أكثر من ٢٠٠٠ مليون فرنك على العمليات الخاصة بالحفر والتشغيل، وسيذهب نصف هذا المبلغ إلى جيوب العمال المحليين. . سترفع الشركة ما لا يقل عن ٤٥٠ مليون متر مكعب من الصخور، من المجرى المقترح. . وسيبلغ العمق في بعض الأماكن أكثر من ثمانين متراً. . سنقيم مساكن متنقلة للعمال والمهندسين، وسيصلنا من فرنسا أربعون جراراً بحرياً، ومئات من القوارب والحفارات الآلية، ومضخات المياه. . إضافة إلى القاطرات والعربات والخطوط الحديدية التي ستمد جنباً إلى جنب مع خطوط الحفر».

للأسف لم يكن ديلسبس ملمّاً بطبيعة الأرض، ولم تكن الدراسات التي أجراها معاونوه كافية. فمنذ بدء العمل، انتشرت بين العمال الحمّى الصفراء والملاريا، ما أذهل حتى الأهالي أنفسهم، رغم اعتيادهم على مقاومة تلك الأمراض المستوطنة. .

كتب ديلسبس في مذكراته:

«كان علينا اختراق غابات تسعى فيها الهوام، وتعبث فيها الحمّيات فساداً. . بعد أيام قليلة من بدء الحفر، مات عشرون مهندساً من أصل أربعين، جاؤوا من فرنسا. . المدير التنفيذي للمشروع وزوجته وابنه وابنته وصهره سقطوا مرضاً. . أسرة بأكملها أبادتها الحمّى الصفراء. . أما العمال فتهاووا بالمئات، وأصبح دفنهم مشكلة المشاكل. . ولن أنسى ما حييت، هذا الإعلان الذي نشرته إحدى الصحف المحلية: يشرّفنا أن نعلن لقرائنا الأعزاء أننا افتتحنا في أقرب مكان لعمليات الحفر، فرعاً لمحلاتنا. . حيث تجدون توابيت الدفن من كل الأحجام والأسعار. . أسعارنا تبدأ من فرنك إلى مئة».

● ورغم الصعوبات، تقدّم الحفر خطوة إثر خطوة، على أشلاء العمال والمهندسين، وتبخّر رأس المال، وأوفدت الشركة من يتكلم باسمها مع المهندس

ديلسبس. طرح عليه الموفد سؤالاً عمّا يمتلك من إجراءات لإصلاح الموقف. . قال:

«سأسافر إلى فرنسا سعياً لطرح مجموعة أخرى من الأسهم، ولا تعنيني تلك الحملات الصحافية التي تشنّ عليّ في باريس! فحين يعلم الناس الحقيقة كاملة وصريحة وصادقة، لن يتخلوا عن المشروع».

● في باريس، نُصح بذكر الإيجابيات وحسب في تقريره. بل دفعه بعض الانتهازيين إلى الخداع والتمويه. . فقدّم للبرلمان مشروعاً يطرح فيه عدّة ملايين من الأسهم ذات الجوائز لإغراء المساهمين. . لكن المشروع تعثّر في البرلمان. .

مرّة أخرى نصحه المغامرون بإيجاد صيغة تدفع بالبرلمان إلى الموافقة على المشروع. . . وهكذا كان. . . فقد حصل وزير الأشغال على شيك بمبلغ ٣٠٠ ألف فرنك موقّع من ديلسبس، باعتباره المدير المسؤول عن شركة قناة بانما. . كما دفعت شيكات تجاوزت ملايين الفرنكات لـ ١٢٠ عضواً في المجلس، ما دفعهم إلى الموافقة على مشروع الأسهم ذات الجوائز. .

حين أثارها أحد الشرفاء، زكمت الفضيحة أنوف الفرنسيين جميعاً، وبدأ التحقيق على الفور مع المتهميْن الأوليْن، وهما من وقّعا على شيكات رشوة أعضاء البرلمان: فرديناند ديلسبس، وولده شارل. . غداة مثول ديلسبس أمام المحقق، سأله:

ـ لماذا أعطيت السيد بهيو هذا الشيك؟

ـ هذه الـ ٣٠٠ ألف فرنك تمثّل الدفعة الأولى من أصل مليون فرنك مقدمة إليه، بوصفه وزيراً للأشغال، نظير توقيعه على تقرير يمكّن شركة بانما من الحفر لتنهي مشروعها خلال عامين. .

ـ ساعة أعطيته الشيك، هل أدركت أنك ترتكب جريمة الرشوة؟

ـ لا . . هذه ليست رشوة. . كنت في وضع أشبه بمن يهاجمه قاطع طريق في الغابة، ويضع السكين على رقبته ثم يصيح به: مالك أو حياتك. لقد أعطيته الشيك، أجل. . لكن تحت التهديد!

ـ لماذا لم تلجأ إلى الشرطة حينما هددوك بتخريب المشروع في المجلس؟

ـ سيدي، تريد مني اللجوء إلى الشرطة؟ والشرطة هي التي توسّطت بيني وبينهم.

● رُفعت الحصانة البرلمانية عن النواب الذين قبضوا أموالاً من ديلسبس، ثم أحيلوا جميعاً إلى محكمة جنايات باريس في كانون الثاني/يناير عام ١٨٩٣، وصدرت الأحكام بعد شهر.

ـ فرديناند ديلسبس: خمس سنوات.

ـ شارل ديلسبس: خمس سنوات.

ـ أندريه بهيو: السجن خمس سنوات، وغرامة قدرها ٧٥٠ ألف فرنك.

وأحكام أخرى بالسجن تراوحت بين عام وثلاثة أشهر بحقّ آخرين. .

● فماذا حلّ لاحقاً بشركة قناة بانما؟ ماذا عن معداتها، ومخازنها، وقواربها، ومكاتبها في مكان الحفر؟

ظلّت مدّة خمس سنوات في مهب عواصف منطقة بانما، وتحت وابل أمطارها الغزيرة إلى أن تلفت، ودُفنت تحت الانهيارات الجبلية. فاشترتها الحكومة الأميركية عام ١٨٩٨، بعد حصولها من حكومة بانما المستقلة حديثاً على امتياز حفر القناة.

وبانقضاء ستة عشر عاماً من العمل الدؤوب، افتتحت الملاحة لأول مرة في التاريخ عبر قناة بانما. . دخلت السفينة ساراتوغا في خليج ليمون عند الساعة العاشرة صباحاً، لتمخر القناة على طول ٨٤ كيلومتراً، ولتخرج من خليج بلباو على المحيط الهادي عند السادسة من مساء اليوم نفسه عام ١٩١٤ .

القسم الرابع

عشـق ومـآسٍ

الفصل الواحد والثلاثون

امرأة لا تعشق غيـر المشاهيـر

● مؤتمر الفلاسفة وعلماء النفس، ٢١ أيلول/ سبتمبر ١٩١١ في فيمار، النمسا.

لم يتخلّف عالم أو فيلسوف. . الأسماء اللامعة في علم التحليل النفسي الوليد، حاضرة. فرويد. . وقد دخل في العمر مليّاً، يتوكأ على ذراع تلميذه أدلر. وابن الشاعر الفيلسوف ريلكه، يحضر المؤتمر مع أنه يتهم فرويد في كل مناسبة بتلويث كلّ شريف ونبيل في تاريخ البشرية، بنظرياته عن العقل الباطن. . يجلس وحده بعيداً. . لا ينظر إلى أحد مجتراً آلامه أو أفكاره أو الاثنين معاً!

□ □ □

● وتنتهي أول جلسة. . ويتفرقون في قاعة الشاي. . وتُقبل نحو فرويد سيدة في ثياب الفنانات المتحررات، تتوثب نشاطاً وخفة وحيوية. تقول شهادة ميلادها إنها في الخمسين. . لكن وجهها الجميل الخالي من أية علامة على مرور السنين على قسماته، يقول إنها لم تتعدّ الثلاثين.

ـ اسمح لي يا دكتور فرويد أن أقدم لك السيدة لو أندرياس. . تريد أن. .

ـ [مقاطعةً] أن أبدي كل ما في قواميس اللغة من إعجاب، ثم أرجو منك أن

تدرّسني علم التحليل النفسي، وأنا على استعداد لتكريس حياتي لذلك. . كل لحظة من حياتي.

ـ سيدتي! ليس في استطاعة أحد، حتى ولو كان عبقرياً، أن يقتحم غابات العقل الباطن الغامضة في أيام! لن تستطيعي ذلك يا سيدتي. .

ـ معك أستطيع كل شيء. . إقبلني تلميذة لك طيلة عمري. . سأتخطى كل العقبات، وسأدرس وسألتِهم كل كلمة من كلماتك، وكل رأي من آرائك. .

ـ يا سيدتي العزيزة. . لا يسمح وقتي بذلك. . ما أكثر الأمور التي يجب أن تتعلميها. . لا وقت لذلك لسوء الحظ. . معذرة.

ـ لا تطردني بهذه السهولة يا دكتور فرويد. . أرجوك. . لست مبتدئة في هذا العلم. . استمع إلي أرجوك!

□ □ □

أثارت بجرأة مرح العالِم الكبير. . أخذته من يده إلى أقرب مقعد. . وجلسا. . تكلمت لو أندرياس! تكلمت وأذهلت فرويد بما في جعبتها من محصول ثقافي رائع، وعلى الخصوص في الفلسفة وعلم النفس. . استمع إليها لحظة وتأمل وجهها الجميل معظم الوقت. . تحركت في صدره رغباتٌ خشي على شيخوخته من عُنفها، فانتفض فجأة في شيء من الجفاء ودخل غرفة الاجتماع. . مال على تلميذه أدلر. .

ـ مذهلة هذه السيدة. . لم أسمع منك اسمها جيداً. .

ـ لو أندرياس!

ـ الاسم ليس غريباً على أذني. . أليست هي من. . أعني، ألم تكن صديقة الفيلسوف نيتشه؟

ـ أجل يا دكتور فرويد.. نيتشه، والشاعر رينيه ماريا ريلكه.. وبول ري.. كما أنها اتصلت زمناً بفاغنر و تولستوي.. القائمة طويلة يا دكتور!

ـ أجل.. الآن تذكّرت.. إنها امرأة خطيرة حقاً.. لعلّها تفكّر في ضمّي إلى القائمة.. لا تدعها تقتحم علي حياتي أبداً.. [يضحك].. ولا أشك في أنها ستحاول اقتحام حياتك وحياة زميلك يونغ أيضاً!

ـ إنها على ما يبدو مغرمة بالفلاسفة وعلماء النفس.. هي امرأة خطيرة.. ولم لا.. وهي في اعتقادي التي أودت بحياة نيتشه، كما انتحر في سبيلها الشاعر ريلكه.. وربما من أجلها أيضاً هجر تولستوي زوجته، ليموت في محطة قطار نائية.. إنها الطاعون الأنيق المثير يا دكتور فرويد..

□ □ □

● من هي لو أندرياس؟ وماذا كانت؟ ملهمة العلماء والفلاسفة؟ صديقتهم؟ قاتِلتهم؟

أغلب الظن أنها كانت لهم هذا كله.. أو لبعضهم على الأقل.. وللفيلسوف الألماني نيتشه على الخصوص.. الفيلسوف الثائر.. ذي الأفكار الفجة.. صاحب فكرة الرجل المتفوّق «سوبرمان».. أما كيف عرفته؟

فقد أحبّها الفيلسوف الشاب بول ري وهي بعد شابة في العشرين.. طلب يدها فوافقت.. كانت تحبّه آنذاك، لكنّ عمّتها رفضت الأمر، وباعدت بين الحبيبين.. فرأى الفيلسوف الصغير رأياً وأخبرها به:

ـ اسمعي يا لو.. إن عمّتك تحب الفلسفة، فماذا لو اقترحتُ عليها أن ندرس الفلسفة في جامعة بال في سويسرا على يد الدكتور نيتشه.. إنها دائماً تذكره بالإعجاب في أحاديثها.. عندها سأتبعك إلى هناك.. وسنطلب إلى الدكتور نيتشه، بعد أن نكسب ثقته، أن يتوسط لنا عند عمّتك.. وحتى ذلك الوقت

سنقضي أيامنا كلها معاً، إما في قاعة الدرس أو في المكتبة أو على ضفّة النهر.

وسافرت إلى سويسرا، وتبعها بول ري.. إلتحقا بفصل نيتشه الذي ما إن رآها حتى غادر مقعده واتجه نحوها..

ـ [في اضطراب] أي نجم مسعود هذا الذي جمعك بي في هذا الفصل يا آنسة؟

● وقع الرجل في حبّها على الفور.. أمسى ـ كما قالت له ـ حبها الأول والأخير.. أخذت طوال المحاضرة الأولى ترمقه وتتأمل هذا الوجه الذي لا يشي بأصل عريق، رغم ما بينه وبين الألماني العظيم بسمارك من شبه.. لا سيّما الشارب البسماركي الكثّ...

كان نيتشه آنذاك في أواخر الثلاثينات من عمره.. ألحّ عليه المرض قبل سنوات وأرهقه، مهدّداً مستقبله الباهر في دنيا الفلسفة.. امتلأ قلبها عليه عطفاً وحباً، وهي تراه يوماً بعد يوم يحاضر في موضوعه المفضّل عن «الرجل المتفوّق»، ويناقش طلابه، وتختنق الأنفاس في صدره، فيمدّ يده إلى حقيبة جلدية صغيرة لا تفارقه، يُفرغ في حلقه بعض ما فيها من عقاقير. .لم يكن غافلاً عن نظراتها.. ولقد اعترف فيما بعد أنه أحبها من النظرة الأولى.. ولما لم يدرِ بموقف تلميذه بول ري منها، أكثَر من زيارتهما.. ذات يوم انفرد بالنزهة معها في تلال «مونت ساكرو» الساحرة.. تكلم طويلاً عن نفسه على غير عادته.

ـ لا شيء يعذّبني سوى مرضي.. الصداع الذي لا يرحم ليلاً نهاراً.. الأرق.. الإحساس الدائم بالخور.. [ساخراً] وأنا من يحاضر عن «الرجل المتفوق»! المفروض أن يتفوق جسدياً أيضاً.. يا لي من رجل مسكين حقاً.. كما ترين، حقيبة العقاقير لا تفارق يدي.. ماذا يمكن أن يحدث لي لو نسيتها مثلاً وجئت إلى مكان كهذا؟

● كانت تستمع بعطف المُحبّة.. كانت لها تلك الموهبة التي يتلمسها الرجال العظماء دائماً في المحبوبة.. القدرة على الاستماع بعطف..

ـ ليس المرض وحده مشكلتي.. أختي إليزابيث أيضاً هي المشكلة الثانية المستعصية.. إنها اليد الحديدية التي تحكم البيت.. تخنقني فيما تخنق! هي تحبني، وليس في حياتها سواي.. إنها على استعداد لفعل أي شيء كي تهيّىء لي ساعة من السعادة، أو تستبدل رأسي برأس لا يصيبه الصداع.. بيْد أنه حب خانق يكسر الأجنحة ويقتل الموهبة.. إنني في حاجة إلى زوجة.. زوجة بصحة جيدة.. صحة كاملة.. وحبّ حقيقي كحبّ أختي إليزابيث لي.

□ □ □

● ترى هل فهمَت ما كان يبتغيه؟ لقد أدركت أنه يريدها زوجة.. لكنها لم تكن تريد الزواج.. تريد الحب الحرّ.. بلا قيود وحدود وقوانين.. ولم يدرك الفيلسوف الكبير ذلك .. ما أغبى العباقرة أمام المرأة.. لدى عودته، كان أول ما قاله لتلميذه بول ري:

ـ بول.. لعل إعجابي بِلو أندرياس لم يخف عليك.. لنقل إنها عاطفة أقوى بكثير من الإعجاب.. بول، لو تقدّر رأيك وتحترمك.. أرجوك، اخطبها لي!

ـ [ذاهلاً] ماذا؟ تريد أن تتزوج من الآنسة لو أندرياس؟

ـ أجل، وما المشكلة؟

ـ أهي تحبّك؟

ـ كنا أمس في تلال مونت ساكرو وتكلمنا طويلاً.. لم تقل بالطبع إنها تحبّني، إنما أحسست من كلماتها القصيرة أنها لن ترفض..

ـ هل طلبت إليها الزواج؟

ـ كلا.. أترك هذا لحكمتك.. حدّثها عني.. لست ثرياً.. ولكنني لست فقيراً إلى الحد الذي أعجز معه عن إعالتها.. هل تكلّمها في هذا يا بول؟

□ □ □

● لا أحد يدري لماذا لم يخبره بول ري بأنه مَنْ سيتزوجها.. وأنه ما جاء بها إلى سويسرا إلا أملاً في أن يتوسطه عند عمّتها في أمر زواجه منها.. إتّهمه نيتشه في ما بعد بإخفاء ذلك عنه كي لا يعارض ترشيحه لإحدى وظائف التدريس في الكلية.. لا أحد يعرف الحقيقة.. إنما الأكيد أن حبّ بول ري للو أندرياس كان أصدق وأعمق وأعنف من حبّ كل مَن عرفَتهم.

● دعاها نيتشه ذات مساء إلى بيته ليقدّمها إلى أخته إليزابيث.. من اللحظة الأولى، اشتعل العداء المرير الصامت بين المرأتين.. تركتهما الأخت بعد العشاء واعتكفت في غرفتها.

ـ لو.. أنا واثق من أنك ستكونين عند إليزابيث بمنزلتي عندها، حين نتزوج!

ـ فردريك.. لقد توقعت هذا السؤال منك.. كل يوم أتساءل: متى يقولها؟ لماذا لا يتكلّم؟

ـ ألم يُحدّثك بول عن رغبتي تلك؟ لقد طلبت إليه أن يكلمك في الأمر.

ـ بول؟ يخطبني لك؟ لم نأتِ معاً إلى سويسرا إلا لنتزوج!

ـ ماذا؟ لتتزوجي بول؟ لماذا أخفى عني ذلك؟ بالله تكلمي يا لو.. أنا أم هو؟

ـ فردريك، أحبك، إنما لن أتزوجك.. أحبك أكثر مما أحب بول.. كنت أريد الزواج منه قبل مجيئنا هنا.. لكني عزمت على عدم الزواج أبداً!

ـ لكنك تقولين إنك تحبينني! لست أفهم.

ـ لأني أحبك، لا أريد أن أقيّدك بالزواج وتقيّدني! القيود تقلب الحب بغضاء وكراهية.. وأنا لا أريدك أبداً أن تكرهني..

ـ إنني يا لو..

ـ أرجوك يا فردريك! لن أعدل عن رأيي.. الآن، حدثني عن كتابك الذي تعكف عليه مذ عرفتني ـ كما تقول.

□ □ □

● رغم إلحاحه، تشبثت بالرفض.. وقسّمت حبها بأنصبة متساوية بين نيتشه وتلميذه ري.. كانت تعجب بما في ري من هدوء نفس وسماحة في تقبُّل نزواتها.. ويُبهرها في نيتشه عنف آرائه ودفاعه عن تلك الآراء في كل مكان، بصخب واستماتة المقاتل.. لكنه كان يخيفها أيضاً..

لا شك في أن حياة نيتشه قد انقلبت رأساً على عقب بعد أن عرفها وأحبّها.. ما عاد يقبل الجدل بسهولة.. أصبح كثير الثورات.. لا يتردد في إلقاء ما بيده في وجه من يعارض آراءه أو يحاول الحطّ من قدرها..

ذهب يوماً إلى دار تلميذه بول ري وقد استبدّت به الغيرة..

ـ لا مخرج لنا من هذا الموقف المعقّد إلا بأن يقتل أحدنا الآخر.

ـ أستاذ نيتشه.. أي فكرة هذه؟

ـ هل أنت جبان إلى هذا الحد؟

ـ كلا.. ولكن.. يا إلهي.. أنت مضطرب الأعصاب إلى حدّ خطير.

ـ أيها الجبان.. ألا تفهم أنني أحبّها، وأنك العقبة أمامي.. إني أدعوك إلى المبارزة.. فلْيفز بها من يقتل صاحبه!

ـ آسف. . أنا أيضاً أحبُ لو. . لكنني لست قاتلاً يا سيدي!

● في إجازة الصيف، تركتهما لو أندرياس مسافِرةً إلى بيروث لحضور العرض الأول لأوبرا «بارسيفال» لفاغنر. . هناك قضت مع الموسيقار الكبير ليالي صاخبة، تكلّمت عنها الصحف بإسهاب. . ثم غادرت بيروث لتلحق بتولستوي في وارسو! وجنّ جنون نيتشه، ولم يعد ينام غير لحظات. . كل يومه وليله أمام المكتب، يريد أن ينهي كتابه العظيم الذي أوحت به إليه الحبيبة القاسية، **هكذا تكلّم زرادشت**. . كان كمن يطعنها مع كل فكرة. . مع كل كلمة. . مع كل حرف. . مما قاله:

«لَمن الأرحم أن تقع في يد قاتل سفّاح من أن تقع بين براثن امرأة تعذّبك بأنوثتها».

«المرأة غير قادرة على فهم معنى الصداقة أو الحب».

● «النساء قطط ذوات مخالب مسمومة، أو طيور جارحة، أو وحوش غابة. . ليس في استطاعة الرجل ترويضها مهما بلغ من الذكاء والحكمة».

«إذا ذهبت لتقابل امرأة. . فلا تنسَ أن تأخذ معك سوطاً».

● هكذا قال زرداشت. . أو هكذا قال نيتشه الذي لم يشفَ أبداً من حب لو أندرياس حتى أصيب بالجنون. . لفّ الظلام عقله العبقري بغلالة سوداء رهيبة!

أما بول ري، فقد بلغ به اليأس من حبّها حدّاً دفعه إلى إلقاء نفسه من أعلى الجبل. . وكانت في مقدمة المشيّعين في جنازته!

□ □ □

الخيــزران ..
وحكم الخلافة الإسلامية

لم تكن من بنات الملوك، أو السادة المترفين، بيدَ أن جمالها الفتّان، وشبابها الغض، وروعة عودها، وضعها يوماً في طريق الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، الذي ما إن رآها حتى قال:

«ما أحسبها إلا من بنات الأمراء».

فقيل له: بل هي ليلى الجَرَشية، التي قال فيها بشار بن برد:

قـد جـعـل الأعـداء يـنـتـقـصـونـنـا　　وتـطـمـع فـيـنـا ألـسـنٌ وعـيـون

ألا إنـمـا لـيـلـى عـصـا خـيـزرانـةٍ　　إذا غـمـزوهـا بـالأكـفِّ تـلـيـنُ

فقال أبو جعفر:

«لم أر مثل حُسنها، وجمال تكوينها مع حسن الزينة، وعُجب المشية. أمثل هذه الجارية تغدو صاحبة لبشار».

فأجابوه:

«لا والله يا أمير المؤمنين. . إنه ليتصدى لها كلما خرجت، وكانت تزجره حتى توعّده أبوها بالقتل، إن هو تعرّض لها».

لكن بشاراً لم يهتم، بل تابع غزله فيها:

ودعجاء المحاجرِ عن كسلٍ كأن حديثها ثمر الجنانِ

إذا قامت لمشيتها تثنّت كأن عظامها من خيزرانِ

فقال أبو جعفر المنصور:

«ما أجدر بمثلها أن تكون زوجة ملك».

ثم تساءل:

«بنت من هي».

فقيل له:

«أبوها العطار اليمني، تاجر عطور في شوارع بغداد».

ففكر أبو جعفر المنصور، ثم أخذ يخاطب من حوله:

«لا أظن أباها يضنّ بها على أمير المؤمنين لو طلبها زوجةً لولده المهدي».

□ □ □

الخيزران هو الاسم الجديد الذي اختاره أبو جعفر المنصور لليلى بنت العطار، التي دخلت قصر الخلافة زوجةً لولي العهد المهدي. .

وبدأ التاريخ يفتح في سجله صفحةً فيها على كل سطر بصمة **الخيزران**.

وفي الوقت الذي كان يتلهى زوجها ولي العهد، شغلت هي عقلها بأبي جعفر. .

لم يكن ثمة حدّ لإعجابها بالخليفة العظيم، وأسلوبه في سياسة الدولة الواسعة.. فعلى يديه تلقت أصول الحكم، وسارت على منهاجه في ممارسة القوة والسلطان، وأُعجب الخليفة بدوره بتلك المرأة الذكية: سرعة بديهتها، ورأيها السديد، وعينها النافذة.. فكان لا يجد راحته إلا في بيت ولده، حيث كان يستشيرها في العديد من الأمور.

كأنما أبو جعفر المنصور كان يعهد إليها، وليس إلى ولده المهدي..

لم تنس **الخيزران** ذلك اليوم أبداً، حينما توفي المنصور، فأحسّت كأن المُلك قد انتقل إليها، لا إلى زوجها الخليفة، حتى بات واضحاً للناس أن مقادير الحكم تتحدد في مخدع **الخيزران**، فصار كل شيء بيدها، وتهامس الحاقدون على ملك العباسيين الواسع، إذ أصبح في يد بنت ذلك العطّار.

لكنها لم تعبأ، فزوجها يحبها إلى درجة الجنون، وكثيراً ما كان يردد:

«لا أدري ماذا كنت لأفعل لولا الخيزران».

كانت تؤثر ولدها موسى على ولدها الآخر هارون، إيماناً منها بأنه سيغدو كالخاتم في يدها، مثلما كان أبوه..

ثم يموت الخاتم الكبير (الأب)، ويفضي الأمر إلى الخاتم الصغير (الابن).. إلى موسى الهادي.

□ □ □

في الأشهر الأولى لحكم ولدها الهادي، بالغت الخيزران في الاستبداد بالأمر دونه، كأنما تريد أن تُحجّم دوره، وتثبت له أهميتها في إدارة دفة الأمور.. إستكان الخاتم في إصبع أمه سبعة أشهر، ثم ضاق بالأمر فجأة، فتململ في موضعه من الإصبع الطموح..

● دخلت عليه يوماً في موكبها، مزهوة، معجبة بسلطانها على ولدها، وتحدثت إليه بلهجة الآمرة:

«طلبت منك أكثر من مرة أن تجعل أخي الغطريف والياً لك على اليمن، فما وصلني منك ما يعزز أمر خالك، ويكيد أعداءه!».

فأجابها:

«يا أمي، لا يصلح خالي الغطريف لولاية اليمن».

فاحتدّت على ابنها، قائلة:

«بئس ما تقول في خالك! ماذا لو سمع الناس ما تقول عن أخي، وأنا من أنا في ملكك! إني أعرف بالرجال منك، فانظر في أمره، ولا يكونَنَّ قرارك إلا بما فيه رضاي، ورضا خالك».

وانصرفت!

● بعد أيام يرسل أمير المؤمنين إلى والدته من يبلغها أنه سيولّي الغطريف على اليمن، شرط أن يطلق زوجته، ويتنازل عن كل أمواله، ولا يدخل بغداد بعدها أبداً!

فاشتدّ غضب **الخيزران**، إذ لم تكن تتصور أن أمير المؤمنين يرسل إليها من يبلغها بهذا الأمر. . فأقسمت قائلة:

«لا والله لا يكون هذا أبداً، وأنا الخيزران. . سأذهب إليه بنفسي إذا كان قد تمرد على البطن التي حملته».

● ولما ذهبت إليه، أعرض عنها، ولم يجبها إلى طلبها. . لكن أخاها الغطريف

الطامع في خيرات اليمن، وجد نفسه مضطراً إلى طلاق زوجته، والتنازل عن ماله، والسفر إلى اليمن..

لم تستفد الخيزران من الدرس، وحاولت مرة أخرى أن تختبر ما تبقى لها من نفوذ في دولة كانت كلمتها فيها هي العليا.. فقصدت إلى أمير المؤمنين ولدها، حيث بادرته بالقول:

«يا موسى».

فردّ عليها بجفاء:

«بل قولي: يا أمير المؤمنين».

صاحت به:

«ويح البطن التي حملتك».

فأجابها باقتضاب:

«ما رجاؤك هذه المرة؟».

قالت:

«عبد الله بن مالك كان يتولى الشرطة لأبيك، ولك من بعده، فماذا دفعك إلى عزله؟».

أجابها:

«عزلته لاستعمالي إياه في بعض شؤون المملكة».

خرجت، تكاد الأرض تميد بها من هول ما سمعت.

• وفي صباح اليوم التالي جمع موسى الهادي كل قادته، وخاصته، وكبار رجال دولته، وطرح عليهم سؤالاً:

«أيها الناس، أيما خيرٌ؟ أنا، أو أنتم؟».

فقال له الفضل بن الربيع:

«بل أنت يا أمير المؤمنين».

فطرح سؤالاً آخر:

«فأيما خير؟ أمي أو أمهاتكم؟».

فأجابه الجميع:

«بل أمك يا أمير المؤمنين».

ثم سألهم:

«فأيكم يحبّ أن يتحدث الرجال بخبر أمه، فيقولوا: فعلت أم فلان، وصنعت أم فلان، وقالت أم فلان».

فأجابوه:

«ما أحد منا يحبّ ذلك يا أمير المؤمنين!».

فردّ عليهم بعصبية وحدّة:

«فما بال الرجال يأتون أمي، فيتحدثون بحديثها، ويتقدمون إليها بشكواهم؟ أقسم بالله لو فعلتم ذلك بعد الساعة، لوطئت أعلاكم بقدمي».

□ □ □

إنهارت آمال الأم الطموح تماماً.. وغلبت عليها طبيعة المرأة، فآثرت الانزواء في أحد قصورها، بعيداً عن الحياة العامة..

ويتناقل المؤرخون ذكر محاولة الأم التخلص من ابنها، ومحاولة الابن القضاء على أمه.. كما يتحدّثون عن أرزّ مسموم أرسل به موسى الهادي إلى أمه.. وعن دجاجة مسمومة أرسلتها الأم إلى ولدها..

● كيفما كانت حقيقة هذه المحاولات البشعة، فقد مات الهادي بعد أشهر من صدامه العنيف مع أمه، وعاشت الخيزران لتشهد ابنها الثاني هارون الرشيد يبلغ أقصى ما وصل إليه خليفة من نفوذ وسلطان. لم تجد الخيزران ما يحفّزها على التدخل في شؤون إدارة الخلافة، فهارون كان نمطاً آخر من الخلفاء، حيث جعلها تكتفي بالفخر والاعتزاز بكونها أماً له..

● وظلت تعيش على ذكرى أمجادها السابقة، حتى رقدت رقدتها الأخيرة، يرن في سمعها ما كانت تطرب له وهي في أوج مجدها: قول شاعر كان ينافقها في قصيدة طويلة مطلعها:

يا خيزران هَناكِ ثم هَناكِ   إن العباد يسوسُهم إبناك

رغم صراعها الطويل مع ابنها موسى الهادي، فهي لم تُذكر به، مثلما يذكرها المؤرخون باسم أم الرشيد.. وبعضهم ينعت الرشيد بلقب ابن الخيزران..

□ □ □

هل سمعتم بالعاشق الثائر ميخائيل الصيـرفـي؟

● «بلاد الشام» مصطلح جغرافي يطلق على منطقة تضم سورية ولبنان والأردن وفلسطين. . أبناء هذه المناطق من أوائل المهاجرين إلى الأميركيتين. . وبات مألوفاً أن نقرأ أن رئيس الأرجنتين هو من أصول سورية أو لبنانية، أو أن وزراء في مختلف القطاعات، في البرازيل أو نيكاراغوا أو بيرو، وحتى المكسيك وغيرها من دول أميركا اللاتينية، هم من أصول عربية من بلاد الشام. .

□ □ □

● أما الشخصية التي نحن بصددها، فتختلف عن هؤلاء في أسباب هجرتها. فلْنتصفّح القصة من بدايتها. .

● ثلاثة شوارع ضخمة تحمل هذا الاسم «ميخائيل ـ آل ـ سيرفيه»، أكبرها في مدينة كاراكاس في فنزويللا، والثاني في قرطاجنة في كولومبيا، والثالث في غرناطة الجديدة في نيكاراغوا. .

مسافات شاسعة تفصل هذه المدن الثلاث في أميركا اللاتينية. ترى من هو ميخائيل ـ آل ـ سيرفيه؟

• في مكتبة بلدية كاراكاس، ومع تقليب الصفحات الأولى من كتاب يروي حركة استقلال دول أميركا اللاتينية، كانت المفاجأة.. فميخائيلو ـ آل ـ سيرفيه عربي من لبنان، واسمه الحقيقي ميخائيل الصيرفي..

كان يعمل كاتباً للحسابات في الشركة التي يديرها البارون الألماني فوت تين، والتي أنيطت بها مهمة إنشاء خط حديدي يربط بين حلب والبصرة.

وميخائيل شاب نشط دؤوب، عظيم الإخلاص لسيده وسيدته البارونة ستيفاني، وهي شابة رقيقة جميلة، عذبة الحديث، بينما كان البارون عجوزاً شرساً. إقتضت ضرورة العمل أن يسافر فوت تين إلى برلين، فخيّر زوجته بين البقاء في جونيه. لبنان، أو مرافقته إلى برلين. ففضلت ستيفاني البقاء مع الشاب اللبناني الوسيم، وبدأت قصة الحب تنسج خيوطها بين ميخائيل وستيفاني. طالت غيبة الزوج، ومع كل يوم يمر، كانت الشابة تشعر أن ميخائيل قد غدا أقرب إليها من أنفاسها، وأن حديقة حياتها كانت مقفرة مع ذلك البارون الهرم. لكنها أينعت، وأورقت، وأزهرت، وتعطرت أرجاؤها بأريج الحب العارم المسحور.. لكن ستيفاني أصابها الغم عندما تُسلمت رسالة يقول زوجها فيها:

«سأعود بعد شهر.. أرجو أن أراك بخير، وعسى ألا يكون ميخائيل الصيرفي قد ترك خدمتنا.. سأخصه بهدية مناسبة إن كنت راضية عنه».

□ □ □

• أسرعت كالمجنونة إلى ميخائيل:

«سيعود بعد شهر! ماذا نفعل يا ميخائيل؟».

فيجيبها وهو مرتبك:

«تعالي نذهب إلى بيروت لاستشارة أحد أطبائها».

فتجيبه فزعة:

«لا.. لا يا ميخائيل، سيشيع السر ويطرق مسامع زوجي! سأقتل نفسي.. أنا لا أحتمل الفضيحة!».

«إذاً ليس أمامنا سوى الهروب يا ستيفاني!».

ترددت البارونة الشابة، بادئ الأمر.. ثم قارنت بين موتها وموت حبيبها في جونيه، والحياة مع حبيب القلب في أي بقعة من بقاع الأرض! اختارت الحياة..

□ □ □

● انطلق الحبيبان على ظهر سفينة صغيرة إلى برشلونة في إسبانيا، وبينما كان ميخائيل مستنداً إلى سور السفينة، سمع أحدهم يقول له:

ـ مساء الخير، يا سيد ألفريدو.. إسمح لي أن أقدم لك نفسي.. أنا الجنرال ميراندو، مُطارد مثلك، ولكنني لست خائفاً.. أغلب الظن أنك مطارد مثلي.. لا أعرف لماذا.. ولا أريد أن أعرف.. لكن الخائفين يجدون شيئاً من الأمن والطمأنينة عندما يتبادلون الحديث!

ـ ولماذا أنت مطارد يا سيدي الجنرال؟ هذا إذا كنت جنرالاً حقاً؟

ـ لم أكن جنرالاً حين هجرت الجيش الإسباني.. كنت مجرد ضابط برتبة كابتن في الجيش الإسباني الذي يمثل بلادي..

ـ ما هو بلدك؟

ـ كل أميركا الجنوبية!

ـ ولكنك قلت إنك ضابط في الجيش الإسباني. . ألست إسبانياً؟

ـ رغم أنفي يا سيدي، فكل أهالي أميركا الجنوبية إسبان بحكم الاحتلال! لكنني هجرت الجيش الإسباني، وانضممت إلى الوطنيين المطالبين باستقلال منطقة فنزويللا، ومنذ ذلك الوقت وأنا مطارد. . فمن يتصدّ للعمل الوطني، لن يعيش حراً مستقراً. . إننا في فنزويللا بحاجة إلى أسلحة . . وإلى مال. . وإلى تأييد الدول. . لهذا أجول طلباً لكل هذه الحاجات من أجل خدمة بلادي. .

ـ ولماذا تخصّني بهذه الأسرار وأنت ذاهب إلى برشلونة الإسبانية. . ألا تخشى أن أشي بك؟

ـ بالعكس. . أنت ستساعدني، فإذا ما نزلنا في برشلونة، سأكون في صحبتك وصحبة السيدة زوجتك بصفتي والدها. . وبهذا لا تفطن السلطات إلى أمري، وكذلك لا يعرف أحد عن أمر فرارك مع زوجة البارون، فهي بصحبة أبيها وزوجها!

□ □ □

● ونزل الثلاثة في مسكن واحد في برشلونة. . كان الجنرال ميراندو يغيب أسبوعاً أو أسبوعين في مهام سرية، ثم يعود إلى ميخائيل وستيفاني، وقد نشأت بين الثلاثة علاقة مفعمة بالمودة والوفاء. . قرر الجنرال يوماً أن يغادر برشلونة، فقال لصديقيه:

ـ الوداع يا عزيزي ميخائيل. . الوداع يا ابنتي ستيفاني. . قد لا أراكما بعد اليوم، حيث آن أوان الكفاح المسلح في فنزويللا. .

□ □ □

● لكن ميخائيل وستيفاني قررا مرافقته، وربط مصيرهما بمصيره. . سافرا مع

الجنرال ميراندو إلى فنزويللا، فأقاما في مدينة كاراكاس، حيث وضعت ستيفاني طفلها ميخائيل الصغير..

● في كاراكاس، كان الجنرال ميراندو يعدّ العدة لهجوم على الحامية الإسبانية، لكن الطبيعة تدفّقت بالأمطار والبرق والرعد والعواصف، ثم اكتملت بالزلازل التي هزّت كاراكاس عام ١٨٠٩ فارتجّت المدينة، إذ لم يصمد فيها بيت على قواعده، وانتشر الخراب وعمّت الفوضى..

وفرّ رجال ميراندو إلى الجبال، تاركين الأسلحة التي جمعها الجنرال من أوروبا خلال الأعوام الماضية، وفشل الهجوم، وفشلت الحركة.

● كان ميخائيل الصيرفي وستيفاني وطفلهما ضمن الفارين من وجه الموت الذي فغر فاه لِيلتهم الناس.. استقروا في مدينة قرطاجنة في كولومبيا، إلى أن أشعل سيمون بوليفار ثورته الكبرى، فانخرط ميخائيل في جيش التحرير، وأظهر شجاعة فائقة، واستبسالاً منقطع النظير في القتال.

● وبينما هو في أحد المواقع، تقدم منه أحد القادة، ليقرأ عليه رسالة فحواها:

● «كابتن ميخائيلو ـ آل ـ سيرفيه، إنه يسرّني الاعتراف بأنه لولا شجاعتك الأسطورية، وثباتك البطولي مع قواتك في تلال بوغوتا، لما أمكن الاستيلاء على هذه المدينة وتحريرها، فتقرّرت ترقيتك إلى رتبة ميجور جنرال.. التوقيع: سيمون بوليفار».

● ويواصل الميجور جنرال ميخائيلو ـ آل ـ سيرفيه انتصاراته، فيلتقيه سيمون بوليفار قائد الثورة، ليعلن له أمام حشد من الثوار:

ــ يسعدني أن أعيّنك قائداً أعلى لقوات التحرير في نيكاراغوا، وسيكون مقرّ قيادتك في ميناء غرناطة الجديدة، وعليك تأمين الطريق البحري الذي تصلنا عبره سفن الأسلحة من فرنسا وبريطانيا. .

● استطاع ميخائيل فتح الطريق لإمداد جيوش سيمون بوليفار بالأسلحة اللازمة في صراعه الأسطوري مع جيش الاحتلال الإسباني.

□ □ □

● وفي يوم ١٥ كانون الثاني/يناير عام ١٨١٢، وصلت إلى ميخائيلو رسالتان، فضّ الأولى وقرأ الآتي:

«يسعدني في هذا اليوم التاريخي أن أهنئك بالترقية إلى رتبة جنرال. . صديقك المخلص: سيمون بوليفار ــ رئيس الجمهورية».

ثم فضّ الرسالة الثانية ليقرأ فيها:

«يؤسفني إبلاغكم بمزيد من الحزن وفاة السيدة زوجتكم وولدكم ميخائيل الصغير، هلاكاً بمرض الطاعون الذي أصاب مدينة قرطاجنة».

● بعدما تأكد من الأمر، كتب إلى سيمون بوليفار:

«يا صاحب الفخامة، إن موت زوجتي وولدي قد شلّ حركتي تماماً عن العمل. . وإني لأطمع في أن تتكرم بإعفائي من عملي، مع تمنياتي للجمهورية الجديدة في ظل حكمكم بالتوفيق والسداد».

● أقطعه الجنرال سيمون بوليفار مزرعة صغيرة على شاطىء نهر الأورينوك، حيث كان يعيش وحيداً على الذكريات. وبعد سنوات من عزلته الحزينة، طرق بعضهم باب مزرعته. وما إن فتح الباب، حتى وجد نفسه محاطاً بمجموعة من قطّاع

الطرق.. قبل أن يمد يده إلى سلاحه، انقضّوا عليه، وسحبوه إلى الخارج.. قيّدوه إلى أحد الجياد، وعادوا إلى الدار يسلبون وينهبون. ورغم صياح الخادمة الفنزويلية، لم يعبأوا بها، بل أضرموا النار في كل شيء، ووُجدت جثة الجنرال ميخائيلو ـ آل ـ سيرفيه طافيةً على نهر الأورينوك، وفيها أكثر من عشرين طعنة!

□ □ □

حزن الشعب اللاتيني لمقتل البطل الذي قاد جيوشهم إلى النصر، مع سيمون بوليفار وميراندو ودياز..

أُقيم له تمثال كبير في ساحة مدينة كاراكاس، وخُلّد اسمه على ثلاثة من أكبر شوارع مدن كاراكاس، وقرطاجنة، وغرناطة الجديدة.. جميعها تحمل لافتة كُتب عليها:

شارع الجنرال ميخائيلو ـ آل ـ سيرفيه.

مواطن عربي من مدينة جونيه، لبنان، لم يسمع به أحد في وطنه العربي!

الفصل الرابع والثلاثون

مارلين مونرو:
هل انتحرت حقاً؟ أم قُتلت؟

في لمعة من لمعات الكاتب الفرنسي بلزاك، كتب يقول:

«إن أسرار الاكتشافات العلمية سببها محاولة الرّد على علامة استفهام في آخر جملة معينة.. وحكمة الكون كلها تكمن في كلمة «لماذا؟»».

وإذا كانت مارلين **مونرو** قد انتحرت، فلماذا؟ وإذا كانت قد قُتلت، فمن قتلها، ولماذا؟

● جان ماكريلي صحافي مختص في علم الجريمة، يجزم بعدم تصديق قصة انتحار **مارلين!**

تُرى ما هي الملابسات التي اكتنفت موت تلك الممثلة الشهيرة؟

الإجابة الرسمية عن السؤال تقول إن **مارلين مونر** انتحرت يوم الخامس من آب/أغسطس عام ١٩٦٢. هذه المقولة تحيطها ظلال من الشك من كل جوانبها. فمارلين كما يُجمع معظم معارفها، لم يحدث أن تكلمت عن رغبتها في

الانتحار.. ولم يكن في تصرفاتها ما يوحي بتلك النهاية. يذكر ماكريلي:

«يوم رافقتها في أكابولكو، كانت في إجازة، جلَست على حافة حوض السباحة وأدلت بقدميها في المياه الزرقاء، وأخذت تهزهما بمرح وسعادة، وهي تقول: أريد أن أنسى الماضي تماماً.. أريد أن أعيش حياتي الخاصة، لا تلك الحياة التي ترغمني عليها شركات السينما ومكاتب الدعاية.. أريد أن أعيش حياتي أنا، بأسلوبي أنا، وأن أحقق ذاتي! أليس هذا من حقي؟!».

جرى هذا قبل وفاتها بشهر.. انصبّ حديثها على المستقبل، كأنها أخيراً وجدت طريقها إلى ما يحقق أهداف حياتها.. وفي حديثها إلى إحدى صديقاتها، على الهاتف، قالت:

«عندما أعود من إجازتي، ستجدينني مارلين مونرو جديدة.. نعم.. سألعب الدور الذي أريده، وليس ما يرسمه لي الآخرون».

إضافة إلى ذلك، كتب الصحافي وولتر وينشيل، وهو من أصدقاء مارلين:

«أنا واثق بأن مارلين لم تنتحر، فمن المستحيل جداً أن تنتحر».

.. لكن تقرير الشرطة يقول: إنه حادث انتحار، وأنها ابتلعت ٤٧ قرصاً من أقراص النومبتال..

إنما ثمة أكثر من طعن موجّه إلى تقرير الشرطة، كما إلى تقرير الطبيب الشرعي، حيث كتبت إحدى صديقاتها:

«كنت أزورها في دارها في منطقة برنتوود، وهي عائدة لتوها من تصوير مشاهد لأحد أفلامها، فقالت لي: أنا متعبة جداً يا جين، وأحس بصداع شديد في رأسي.

فنصحتُها بتناول قرص مهدّئ، لكنها رفضت: لا أحب أن أتعاطى المهدئات أبداً، رغم أن طبيبي نصحني باستخدامها. إلا أنني لم ألتزم بتعليماته لسبب بسيط هو أنني أجد صعوبة في بلعها. ثم أخذت تبحث عن أقراص الأسبيرين، وعادت إلى الصالون ومعها قرصان منه، وإذا بها فعلاً تجد صعوبة بالغة في ابتلاع القرصين، لدرجة أنها شربت كوبين كاملين من الماء كي يسهل عليها ابتلاعهما. ورأيتها تضحك: لو أنني أشرب الخمر لابتلاع قرصي أسبيرين لترنحت من فرط ما أشرب.

● لا ريب في أن تقرير الشرطة الذي يشير إلى ابتلاع مارلين مونرو ٤٧ قرصاً من أقراص النومبتال، مثير للعجب. والأغرب منه أنهم لم يجدوا قرب فراشها أي إناء للماء، ولا دورق، ولا كوب! فمارلين التي احتست كوبَي ماء لابتلاع قرصين من الأسبيرين، كم تحتاج من الماء لابتلاع ٤٧ قرصاً؟

● نُشر في ذلك اليوم أنه عند الساعة ٤:٣٠ من صباح ٥ آب/أغسطس، اتصل الدكتور غرينسون بإدارة شرطة لوس أنجلوس، وأبلغ الملازم كليمنز أن مارلين مونرو قد انتحرت، ويرجوهم الحضور بسرعة إلى (٣٠٥) شارع هيلينا درايف في منطقة برنتوود. . بعد معاينة الجثة، استمع الملازم كليمنز إلى مسز موري ــ خادمة مارلين ــ التي قالت: **قرابة منتصف الليل، لمحت النور من تحت باب غرفة نوم مارلين. . أردت أن أسألها عن سبب أرقها، لكنني وجدت الباب مغلقاً بالمفتاح من الداخل، فاستبدّ بي القلق، واتصلت بالدكتور غرينسون الذي حضر مع زميله أنجلبرغ.**

● كتب الملازم كليمنز ملاحظات في تقريره، مؤكداً أن وضع الجثة على الفراش ينمّ عن نقلها من المكان الذي حدثت فيه الوفاة. وثمة معطى آخر أثار شكوكه، يتعلق بالتوقيت. فالخادمة قالت إنها اتصلت بالدكتور غرينسون في منتصف الليل. فإذا افترضنا أنه وصل بعد المكالمة بنصف ساعة، لماذا لم يتصل بمركز الشرطة

إلا عند الساعة ٤:٣٠؟ تُرى ماذا حدث خلال الساعات الأربع بين وصوله والاتصال بمركز الشرطة؟ ومما قاله الملازم كليمنز أيضاً:

«أعددت طائفة من الأسئلة كنت سأتوجه بها إلى الدكتور في مركز الشرطة.. لكن مدير المركز السيد باركر لم يلبث، أن انتحى بي جانباً وقال: المطلوب منك أن تكتب تقريراً عما رأيت وسمعت! أما التحقيق فهو من اختصاصي أنا شخصياً.. وهذا أمر! وامتثلت للأوامر، وقدمت التقرير الذي اختفى مدة يومين، ثم ظهر بحروف طباعة غير تلك التي كنت قد طبعته بها، وقرأت فيه كلاماً مخالفاً لما كتبت.. فهذه الجملة: (وجدت مارلين مونرو ميتة في فراشها يوم ١٩٦٢/٨/٥، ومن المحتمل أن تكون الوفاة قضاءً وقدراً بسبب تناول جرعة قاتلة من أقراص النومبتال)، لم أكتبها في تقريري الأصلي، إذ استبعدت حدوث الانتحار لعدم وجود أكواب أو دورق قرب الفراش. كما أشرت في تقريري إلى تخشّب الجثة، ما يدل على وقوع الوفاة قبل أربع ساعات من استدعائي!».

● ثمة ما هو أهم من هذا وذاك، إذ تبيّن أن زجاجة النومبتال تستوعب ٢٥ قرصاً فقط، بينما تقرير مدير الشرطة السيد باركر، وتقرير الطبيب الشرعي، يؤكدان أنها تعاطت ٤٧ قرصاً، فأين الزجاجة الثانية؟

ومما جاء في تقرير طبيبها الخاص غرينسون أن مارلين مونرو حاولت الانتحار عدة مرات، وكانت تفشل. على ما يبدو أنها نجحت في محاولتها الأخيرة في ٥ آب/ أغسطس.

● إزاء هذا الكمّ من التناقضات والملابسات التي اكتنفت موت مارلين مونرو، كتب الصحافي جان ماكريلي:

«أنا واثق بأن مارلين مونرو قد قُتلت! أما من يقف وراء تلك الجريمة البشعة فلا يمكنني تحديد ملامحه!».

طُرح أكثر من سؤال حول عدم إجراء تشريح لجثة مارلين لإثبات وجود مادة النومبتال فيها، ما داموا قد أجمعوا على أنها ابتلعت ٤٧ قرصاً عن طريق الفم. لكن هذا لم يحدث!

● إذاً، فمن قتل مارلين مونرو؟ ولماذا؟

يكاد العديد من المؤلفات التي كُتبت عنها، يشكِّك في عملية انتحارها، وقد ربط البعض بين أسباب موتها وعلاقات كانت تجمعها بسياسيين نافذين. إنما ثمة إجماع في كل ما كتب عن **مارلين مونرو** أنها قد توقفت وهي في قمة مجدها، والبعض يرى في الأمر تخليداً لذكراها.. لكن السؤال ما زال مطروحاً:

من قتل مارلين مونرو؟ ولماذا؟ بعد أكثر من خمسة عقود على موتها!

الفصل الخامس والثلاثون

كارثة مأساوية
على زوجة رئيس أميركي..

● يكتشف المتابع لحمّى معارك انتخابات الرئاسة الأميركية، أنها صراع تُستخدم فيه كافة أنواع الأسلحة المعنوية والمادية، وأحياناً القانونية. .

تستوقفنا لمحات من تاريخ الرئيس الأميركي السابع آندرو جاكسون، لنسلّط بصيصاً من الضوء على معاناته، عندما تعرضت زوجته المحبوبة لحملة تشويه يوم وجِّهت إليها تهمة الخيانة، وارتكاب الإثم. كأن أعداء جاكسون استثمروا المقولة الشهيرة: «**إذا أردت أن تنال من خصمك، فهاجمه في زوجته**».

هي مقولة طبقتها حروب النذالة على امتداد التاريخ، وبكل أسف، كثيراً ما تأتي ثمارها الكريهة أكلها!

□ □ □

● كان آندرو جاكسون أحد ضحايا تلك المقولة، التي ظلّت آثارها ملازمة له حتى آخر يوم في حياته. اتضح ذلك من كلماته الأخيرة قبل أن يسلم الروح إلى بارئها:

«باستطاعتي أن أغفر لكل من أخطأ في حقي، إنما أحتاج إلى عون كبير من الله ليهبني القدرة على العفو عمّن ألحقوا الأذى بسمعة زوجتي».

● الحرب بين الولايات المتحدة والاستعمار البريطاني على أشدّها، والمطالبون باستقلالهم يستميتون في مقاومة قوة وشراسة المحتلين.. في إحدى هذه المواجهات والمعارك الطاحنة، وقع الفتى آندرو جاكسون أسيراً في أيدي البريطانيين. حققوا معه بقسوة كيما يدلّهم على موقع قائده توماس جيفرسون. وتحت التعذيب، أذعن على أن يصحبهم إلى بيت القائد.. لكنه استخفّ بهم، بعد أن طوّحهم في العراء في خديعة منه، كي يطيل المسافة أولاً، ويكونوا في العراء المكشوف، فترمقهم عيون جيفرسون، فيفرّ من دربهم.

لما أدرك الإنكليز الخديعة، أخذوا آندرو جاكسون إلى سجن كامدن، حيث اختبر أهوالاً ملأت قلبه حقداً على المستعمر، بعدما رأى النساء يلقين حتفهنّ من الجوع والإهمال، وأطفالاً يولدون اليوم ليموتوا غداً، ناهيك عن تفشّي الأمراض، فالجدري كان يقضي على المساجين، بل حتى الحرّاس كانوا يموتون من الجوع الواحد تلو الآخر.

□ □ □

● وغداة تحقيق جورج واشنطن حلم الانتصار، بعدما ألحق بالإنكليز الهزيمة تلو الهزيمة، فحرر بلاده ليغدو أول رئيس منتخب لها، خرج آندرو جاكسون من سجن كامدن ليعيش في مدينة ساليسبري. تخصّص في القانون، واشتغل في المحاماة، وحمل البندقية من جديد، ليتوجه إلى مدينة كمبرلاند، حيث الفرنسيون ينوون أن يحلّوا محلّ الإنكليز، فجوبهوا بمواجهة عنيفة، اضطرتهم إلى بيع الأماكن التي احتلوها. وبعد أن قبضوا الثمن، أعطوا كل ما لديهم من أسلحة وعتاد إلى الهنود الحمر، لكي يكيدوا للجمهورية الوليدة بإثارة الهنود عليها من خلال شنّ غارات يستخدمون فيها الأسلحة التي تركها الفرنسيون.

في مدينة كمبرلاند، أقام جاكسون في دار لرجل عُرف عنه حبّه الجمّ لجمع المال. كان يتعامل مع الفرنسيين، كما يتعامل الآن مع الهنود الحمر.. لذا غالباً ما نراه يحذّر آندرو جاكسون بعدم استخدام سكنه لعقد اجتماعات تُكرّس لاتخاذ قرارات وخطط لمهاجمة الهنود الحمر..

ثم حدثت في مدينة كمبرلاند مناوشات ومعارك بين الهنود والمقاومين الذين يرأسهم توماس جيفرسون. وذات يوم، وبينما هو نائم، إذا بزوجة ذلك الرجل توقظه من النوم قائلة:

«أرجو أن تكون قد نلت قسطاً من الراحة، لأنك قاتلت يومين وليلتين متواصلتين من دون راحة ودون طعام».

ثم قدمت له الطعام.. ملقية على عاتقها مهمة السهر على راحته وشؤونه، ما جعلها تحوز الاحترام والتقدير في نفسه، لكنه جاهد ليخفي مشاعره تلك عن الجميع.. إنما اضطر للتدخل مرة، مانعاً عنها أذى زوجها السكير العصبي المزاج. صاح فيه الزوج:

«لست أقبل منك أيها الضابط آندرو أن تتدخل بيني وبين زوجتي! إنك تستأجر مكاناً للإقامة في هذا المنزل، ولك حق استعمال غرفة الطعام، لكن ليس لك ما هو أكثر من هذا! أسمعت؟ أنت كبقية المغرورين ممّن يعتقدون أن في استطاعتهم تجربة سحر شبابهم مع زوجتي! إني أُحذّرك! لو رأيتك تبتسم لزوجتي مرة أخرى، أو تتحدث إليها على انفراد، فسوف».

بأدب، تدخل آندرو جاكسون مقاطعاً:

«سيدي، أكرر لك اعتذاري، لكنني أرجوك ألا تسيء فهم مقاصدي»..

فيجيبه الزوج: **أعرف مقاصدك.. إنها قذرة كوجهك!**

استبدّ الغضب بآندرو جاكسون، خصوصاً أن الرجل أخذ يوجه إليه سيل الاتهامات أمام حشد من النزلاء. وبعد أن تمالك أعصابه، وجّه جاكسون كلامه إليه:

«إذا كنت رجلاً شريفاً كما تدّعي، عليك أن تكفّر عن زلة لسانك هذه، وأن تحدد الزمان والمكان لمبارزة بيني وبينك، ومن حقك أن تختار السلاح الذي تحسن استخدامه!».

فتدخلت الزوجة وقالت لآندرو جاكسون:

«إنه لا يحسن سوى التكالب على جمع النقود، واحتساء الخمر.. فأرجوك بحق السماء، أن تقبل اعتذاري عن الإهانة التي وجهها إليك».

.. فما كان من زوجها روبار الكريه إلا أن صفعها، وأمرها بالرحيل إلى أهلها في مدينة ناشفيل. هناك عاشت أكثر من عامين منتظرة أوراق طلاقها. وفي خلال هذه الفترة، لم تنقطع زيارات آندرو جاكسون لها، حيث تولد من التقدير والاحترام الحب بين قلبيهما.

حالما تلقت أوراق طلاقها، سألها آندرو ما إذا كانت ترغب بالزواج منه، لأنه يجدها المرأة المناسبة له.. فأجابته:

«تعرف يا آندرو إجابتي على سؤالك، لكني لا أريد الحؤول بينك وبين مستقبلك المشرق. زواجي منك سيقضي على كل آمالك، فزوجي السابق، روبار، أعطى مبرراً لطلاقي منه، بأنني هربت معك إلى ناشفيل، فشرعَ الناس يتهمونني بالخيانة الزوجية، وقد جلبت العار لسمعة عائلتي، وغدوت طريدة المجتمع.. حتى أنت أيها الرجل النبيل، قد ورد اسمك في ما نُشِر عنّي بغمزات لا تخلو من إهانة».

قال لها:

«علينا مواجهة هذه العقبات. أنا على ثقة بأنها ستتضاءل أمام صِدقنا . . وحُبّنا».

● وتزوجا. . وفي غمرة سعادتهما، يدق ناقوس الحرب مرة أخرى، إذ حاولت إنكلترا احتلال الولايات المتحدة مجدّداً، فهاجمتها من الجنوب بأسطولها البحري. . تولى آندرو جاكسون قيادة قوات الدفاع البرية والبحرية. . . وعندما وقف خطيباً أمام الجنود، قال:

«أيها المواطنون، لا يمكننا العودة ثانية إلى حياة العبودية تحت نير الاستعمار البريطاني، لهذا سنواجه البريطانيين بزئيركم، وسندافع عن جمهورية الولايات المتحدة الأميركية إلى آخر قطرة من دمنا».

● انتصر آندرو جاكسون بإغراق الأسطول البريطاني في خليج المكسيك. ولدى انتهاء الحرب، تحققت له أسمى طموحاته: حاز رتبة جنرال. .

□ □ □

● ويعيش الزوجان في أنعم وأرغد حياة يحلم بها إثنان. أما عندما رُشّح آندرو جاكسون لرئاسة الجمهورية، فقد أخذت صحف الحزب الجمهوري تهاجمه بعنف لاذع، كما طالب الزوج السابق لزوجة جاكسون بعودتها ثانية إلى عصمته، زاعما أنها ما زالت زوجته، لكن المرشّح الجديد للرئاسة الأميركية يهدئ روع زوجته:

«لا عليك يا حبيبتي، سنحاربه في المحاكم إلى آخر يوم في حياتنا».

فضلاً عن ذلك، أوردت إحدى صحف الحزب الجمهوري كلاماً جارحاً، نجتزىء سطوراً منه:

«على الأميركيين التفكير ملياً قبل أن يصلوا إلى صناديق الانتخاب، ولْيسألوا

أنفسهم هذا السؤال: لمصلحة من نضع في البيت، على رأس المجتمع النسائي في أميركا بأسرها، امرأة من طراز راكيل روبار، التي لم تُطلَّق من زوجها، ومع هذا فهي تعيش دون زواج مع من يريد أن يتربّع على البيت الأبيض؟!.. كيف نبرر هذا لأنفسنا، وللأجيال المقبلة؟».

□ □ □

● تداعت الزوجة المسكينة تحت الضربات القاسية.. فحيثما تذهب، تسمع الهمسات القاسية والمتجنية.. لاحقها الاتهام بالخيانة والإثم في كل الولايات المتحدة.

● وروبار الخبيث اكتنزت جيوبه بآلاف الدولارات التي أخذ يغدق بها عليه خصوم جاكسون السياسيون. وما انفكّ يؤلف بأسلوب درامي قصصاً مخترعة ملفّقة، عن محاولات آندرو جاكسون التخطيط لاختطاف زوجته منه.

● قبل أن يصدر الحكم بتبرئة الزوجة المسكينة من تهمة الحياة الآثمة والخيانة الزوجية، كان الموت لها بالمرصاد.

أكمل آندرو جاكسون حياته الحزينة، رغم انتخابه رئيساً لبلاده دورتين متتاليتين.

وبعد أحد عشر عاماً على وفاتها، لم يُشاهَد في مكتبه، وفي غرفة نومه، سوى صورة كبيرة لها.. وإذ اقتربت ساعته، أشار إلى تلك الصورة بعينيه موصياً:

«ادفنوني إلى جانبها».

عاصم.. وإيزابيلا..
ماتا في سبيل الحب

● في الطريق بين سراقوسطا وبلنسيا، تقع مدينة توريل الناعمة الرابضة على رافد نهر هادىء. . مدينة لا تزال شوارعها تحمل الطابع العربي، وبرجها الذي كان يسمى برج المنصور، بات الآن يحمل اسم برج سلفادور. هو لا يزال قائماً، مشرفاً على المدينة المحاطة بالبساتين من كل جانب. . شهد هذا البرج أحداث حكاية العشق الحزينة التي وقعت عام ١١١٢م.

□ □ □

كانا من عائلتين نبيلتين متجاورتين، عائلة دون سيغيوار الكاثوليكية، وعائلة عنان بن زمرك المسلمة. كان ابن زمرك هذا وزيراً عند ملك بلنسيا المنصور الصغير، ثم أعفي من منصبه بسبب وشاية تعرّض لها، فاستقرّ في هذه المدينة الصغيرة. .

كان للجيرة حقوقها آنذاك: لا ضغائن، ولا أحقاد، فالعرب والإسبان يعيشون بمحبة وسلام.

سرعان ما أدرك الأمير المنصور الصغير، بعد موت ابن زمرك وولده عنان، أنهما

كانا ضحية وشاية، فقطع على نفسه عهداً بأن يعوّض لوريثهما الصغير عاصم، بحيث يرسل إليه سنوياً مبلغاً من المال يؤمن له ولوالدته العيش بسلام.. كما وعد بضمه إلى حاشيته في قصره في بلنسيا عندما يكبر..

لم يكن عاصم يتجاوز السابعة من عمره حين مات أبوه، وقد لمس الصبي وأمه من الدون سيغيوار، جارهما، ومن زوجته، في محنتهما ما اعتادا من ذلك الود القديم، والمحبة التي تميّز أهل الحيّ الواحد.. وكان من الطبيعي أن يلازم الصبي الصغير **عاصم** الطفلة **إيزابيلا**، وأن ينشأ بينهما شعور بالحبّ. فما أكثر ما كانت تنتهي تلك الصداقات البريئة بزيجات ناجحة موفقة.. ومن يتجوّل في منطقة آرغون، يرَ بوضوح تلك التقاطيع العربية مختلطة بالملامح الإسبانية..

● ومع تلازم العشرة واللعب والمرح في حدائق قصر سيغيوار تسلل الحب، ليربط بين القلبين اليافعين **عاصم وإيزابيلا**. فمرّت السنوات، واجتاز الشاب والشابة مرحلة المراهقة، وكان لا بدّ من بداية جديدة لعلاقة جديدة، دفعت بِدون سيغيوار أن يقول لزوجته:

«ألا ترين أنه آن الأوان لتنبيه الفتى عاصم إلى أن زياراته المتكررة لابنتنا قد تثير الأقاويل؟ فهما لم يعودا طفلين صغيرين، ومن حقي أن أحمي سمعة ابنتي من الشائعات».

فتجيبه زوجته:

«إنك تعرف عفة ابنتنا وتربية عاصم. هو عندي بمنزلة ولدي، لو كان لي ولد!!».

فيستدرك الأب:

«أعرف.. هذا كلام عاطفي. وإذا سألنا أم عاصم، لقالت هي الأخرى عن ابنتنا إيزابيلا إنها عندها بمنزلة ابنتها.. لو كانت لها بنت..! لكن إلى ماذا يؤدي كل

هذا. . ؟ الزواج؟ تدرين أن عاصم يحب إيزابيلا، فما لم نضع حداً لهذه العلاقة، وهذه الزيارات المتكررة، وهذه الأمسيات التي يقضيانها معاً في حديقة القصر، فلسوف نواجَه بعهدٍ قد قطعه كلاهما على نفسه بالزواج! بل عندما ذكرتُ أحوال عاصم أمام إيزابيلا، أيقنتُ أن ابنتنا تحب الفتى حباً غامراً، فهي غرّة وعاشقة! فكيف ستعالجين الأمر. . أريد مساعدتك!».

تجيبه الزوجة:

«لم تتجاوز إيزابيلا الخامسة عشرة من عمرها، وعاصم في مثل سنها. هي سنّ غير ناضجة للزواج».

يردّ عليها الأب:

«ومن أوحى إليك بأنني أوافق على زواجهما؟».

تسأله زوجته:

«ألأنه مسلم. . ؟».

فيجيبها:

«هذا أحد الأسباب، وليس كلّها، فالفتى صغير السن، كما لا يحمل مستقبله علامات واضحة».

إنما تحاول الزوجة إقناعه بأن جدّ عاصم كان وزيراً للملك المنصور الذي تعهد برعاية عاصم، واعداً بإلحاقه في خدمة القصر في بلنسيا. .

يضيق صدر الأب، ويعلو صوته بحزم:

«كيفما كان الأمر، فلست مقتنعاً! يجب أن نتصرف لإبعاد الفتى عن إيزابيلا،

وهذه مهمتك. كلمي ابنتكِ بشيء من الحزم، وأطفئي شرر النار قبل أن تحرق الجميع».

رغم التعاطف الواضح البادر من الأم تجاه العاشقين الصغيرين، كانت مضطرة أن تنقل إلى ابنتها رأي أبيها في هذا الحب.

.. بكت إيزابيلا طويلاً، وارتمت في حضن أمها منتحبةً.. ولكنها في النهاية وعدت أمها بألاّ تقابل عاصماً إذا جاءها زائراً.. ولكن.. متى ثبت المحبّ على وعد كهذا؟

غلب الحب العاشقة إيزابيلا حينما جاءها الفتى ذات مساء في الحديقة ــ موئل اللقاء.. وعلم منها وهي تشرح له، والدموع تنهمر من عينيها، بقرار الأُسرة..

كان الفتى شريفاً، وأبيّاً، فشقّ طريقه في اليوم التالي إلى حيث والد إيزابيلا، وقد استقبله برفق حازم قائلاً:

«يا ولدي، يا ابن صديقي، أنت، كما قالت زوجتي، بمنزلة ولدنا، لو كان لنا ولد .. لكن ثمة عقبات هائلة تحول بينك وبين إيزابيلا».

انفطر قلب الفتى.. وقال وهو يعتصر ألماً:

«يا عمّاه، إذا كان ديني هو العقبة الوحيدة، فلا مفرّ من خروجي الآن لألقي بنفسي في نهر الفومبر».

فيجيبه الأب:

«ليس فارق الدين هو العقبة الوحيدة في حالتك، لكنني لا أستطيع تزويجك ابنتي. فأنا لا أعرف لك مستقبلاً واضحاً بعد».

وتتدفق الكلمات مسرعة من الفتى:

«لقد وعدني الملك المنصور بعمل مشابه لعمل جدّي حينما كان في قصره».

فيقول الأب:

«إنك مهيأ للعمل الآن، فلماذا لا تذهب إلى المنصور، ليُلحقك بقصره؟».

بحيوية واندفاع، تخرج الكلمات من حنجرة الفتى:

«إذا كان هذا شرطك الوحيد يا عمّاه، فأعدك بألا أتقدم إليك طالباً يد إيزابيلا، قبل أن أتبوّأ منصباً في حاشية الملك المنصور».

بعدما أدرك الفتى أن لهجة الأب لا تتضمن رفضاً لمبدأ اقترانه **بإيزابيلا**، أجابه بحماسة ملؤهما الفتوة:

«سأسافر إلى بلنسيا، وإني واثق بأن الملك المنصور سيفي بوعده ويلحقني بالعمل عنده! لكن بالله عليك يا عمّاه، عدني بألا تزوّج إيزابيلا من سواي. أمهلني عاماً واحداً فقط، وستراني جديراً بالزواج من كريمتك إيزابيلا». .

● أمضى **عاصم** ليلة الوداع مع حبيبته في حديقة القصر، وتواعدا، وتعاهدا. أقسم لها على تحقيق ما وعد به، أو بالموت دون ذلك. وأقسمت **إيزابيلا** على انتظار عودته مهما طالت. .

سافر **عاصم** في الصباح. . ومرت الأيام بطيئة حزينة، تهبط **إيزابيلا** إلى حديقة الذكريات، تتحسس بيدٍ حانية ملاعبها القديمة مع الحبيب الغائب، وتُهامسها كلماته العذبة مع نسمات الليل المسحورة! وتعدّت الأيام شهوراً . . ثم عاماً كاملاً. . لا شيء يصل من **عاصم**. . لا رسالة. . ولا خبر. .

كان العام الأول أشق الأعوام على الصغيرة العاشقة، ثم مرّ عام ثان، فثالث. أخذ

الحزن يكسو وجهها الجميل رزانة، لم يألفها أهلها منها. . لمعة العين المندفعة إلى الحياة كالجواد الجامح، أصبحت الآن مذعورة ومنطوية. . السكون، والبكاء، والكآبة قد جللت حياتها. . **فإيزابيلا** البشوش لم تعد تبتسم. .

□ □ □

● أمام هذه التغيّرات كان لا بد لأبيها من تدارس الأمر مع أمها بعدما تأكد أن عاصم ليس في بلنسيا، إذ طرده المنصور. وبلغه أن الفتى طرق أبواب ملك غرناطة، لكن المعتضد ــ هو الآخر ــ لم يأتمن لفتىً من نسل بني زمرك، بالتالي يرى والد إيزابيلا نفسه في حلٍّ من وعده لعاصم، خصوصاً أن الدون لونزو دي أزاغرا تقدم لخطبتها، وليس من سبيل أمام المحبة، سوى الرضوخ لقدرها، فلا مبرر لانتظار ما لا يكون كما قال لها أبوها!

● قاومت **إيزابيلا** ما استطاعت. . خمس سنوات وهي تهمل خطيبها الجديد وتتفاداه. . ولما يئست من عودة الحبيب، رضيت بأن تزف إلى دون لونزو دي أزاغرا. . بدت كالمسحورة الذاهلة في حفل الزفاف. . وحينما تم العقد، هوت إلى الأرض مغشياً عليها، وظلت ليومين لا تقوى على الكلام، عازفة عن الشراب والطعام. .

● في مساء اليوم الثالث يعود **عاصم**!

يعود **عاصم** على جواد مطهم، مرتدياً حلةً قشيبة أنيقة، موشاة بالذهب. . يرجع من شمال أفريقيا، حيث كان يعمل لدى الملك يوسف بن تاشفين، الذي أكرم وفادته، وبوّأه مركزاً مهمّاً في مملكته. .

امتزجت فرحة أمه بالحزن العميق، وهي تخبره بما حلَّ بإيزابيلا. . فما إن سمع ذلك، حتى انتابته نوبة هلع، فتوجه من فوره نحو قصرها، متسوّراً الجدران إلى

غرفتها.. فوجئت إيزابيلا بعاصم يقف أمامها.. وفجأة تتوهج نيران العاطفة كما يتفجر البركان الخامد..

«لقد انتظرتك يا حبيبي.. خمس سنوات، كنت أموت في كل دقيقة منها اشتياقاً إليك.. لماذا.. لماذا يا عاصم؟!.. لم ترسل إليّ كلمة واحدة تنبئني فيها بأنك باقٍ على عهدك.. كلمة واحدة كانت تكفيني أيها الحبيب.. لماذا.. لماذا فعلت كل هذا بي يا عاصم؟!»..

وبينما الدموع تنهمر من العيون، كانت الكلمات تخرج مصطبغة بعواطف كل منهما الجياشة، لكن عاصم الذي تظاهر بالتماسك والتغلب على دموعه، يقول لحبيبته:

«لنخرج من هنا يا إيزابيلا.. لم يفت الوقت بعد».

لكن إيزابيلا تفلت يدها من قبضته، وتصرخ فيه:

«بل فات! فات الأوان يا عاصم.. أنا الآن زوجة دون لونزو دي أزاغرا».

فيجيبها بصوت مخنوق:

«أنت تحكمين علي بالموت يا إيزابيلا».

فتجيبه:

«أرجوك يا عاصم أن تعيش ولا بد من أن تعيش.. ستجد هناك من تسعدك، أما أنا فقد كُتبت عليّ التعاسة بالزواج من رجل لا أحبه، فأنا بالنسبة إليه جسد بلا روح..! وهو يعرف ذلك.. وداعاً يا عاصم.. أستحلفك بحبنا القديم ألا تؤذي نفسك!»..

يفلت عاصم يده من يدها، ويتراجع بخطواته إلى الوراء ناظراً إليها والعبرات تتحشرج في خلجات صوته:

«القديم..؟ أضحى حبنا قديماً.. ذلك الحب الذي ظننته لا يذبل أبداً! وداعاً يا إيزابيلا! وداعاً».

□ □ □

ژ! مع انبلاج الصباح، مرت جنازة عاصم من تحت شرفة قصر إيزابيلا وخلفها جموع الأهالي من مدينة توريل.. مات الفتى حزناً، وتوقف قلبه عن الخفقان من أثر الصدمة.. مات عاصم وهو يردد:

«إيزابيلا! إيزابيلا!».

● وفي منتصف تلك الليلة، شاهد حارس المقبرة فتاة في ثياب بيضاء، تبحث بين القبور.. فأسرع خلفها.. وإذا بها قد هوت على القبر الجديد، قبر عاصم بن عنان بن زمرك، تحتضنه بكلتا ذراعيها. وإذ حاول الحارس مساعدتها على النهوض، وجدها جثة هامدة.. ماتت إيزابيلا فوق قبر عاصم!

□ □ □

● وتخليداً لذكرى العاشقين، نُصبت تلك اللوحة المرمرية عند مدخل برج سلفادور، نُقشت عليها العبارة التالية:

[ذكرى حبّ عاصم وإيزابيلا، اللذين ماتا في سبيل الحب..]

□ □ □

قليل من كثير عن رابعة العدوية..

أحبك حبين، حبَّ الهوى وحباً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حبّ الهوى فشغلي بذكرك عَمّن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

□ □ □

مذهلٌ أمر هذه السيدة . . رابعة بنت إسماعيل العدوية، التي دخلت تاريخ التصوف الإسلامي بمنهاج عبادة لم يسبقها إليه أحد . .

لن نشغل أنفسنا بالتفسير الفلسفي لنهجها التعبّدي، فثمة من المتخصصين مَن رأوا فيه آراء شتى . . لكننا سنتتبع بعض ملامح تاريخها مما دونته المصادر المختلفة، لنجد أنها صبية في بيت أبيها إسماعيل الزاهد الذي لم يمنعه زهده وفقره من الاستمتاع بطيبات ما أحل الله لعباده . .

● كان والد رابعة فقيراً، إنما عفيف النفس، شاكر نعم الله.. يشغل نهاره لتأمين قوت زوجة وبنات ثلاث.. فلما ولدت الابنة الرابعة، لم يحزن، بل أطلق عليها اسم رابعة.

شبّت البنت الرابعة عن الطوق، معتمدةً لنفسها أسلوباً في الحياة تميزت به على أقرانها.. فهي لا تُقبل بلهف على الملذات والطعام، لدرجة أنها تفطر بعد الصيام على الماء فقط. سألها أبوها يوماً:

ـ لم تفعلين هذا بنفسك يا رابعة؟ لم لا تأكلين من نعم الله؟

ـ لا أدري إذا كان هذا الطعام حلالاً أو حراماً!

فيرتاع الأب قائلاً:

ـ ما لك يا رابعة.. أوتظنين بوالدك هذه الظنون؟ تُرى، ما لم نجد حلالاً نأكله، فهل نقدم ساعتها على أكل الحرام؟

فتجيبه الصبية ذات السنوات العشر:

ـ كلا يا أبتي.. أعلم أنك لا تقرب الحرام، بل إنني أصبر في الدنيا على الجوع، فهذا أهون عندي من النار يوم القيامة!

فيحتضنها الأب وهو ساهم، ويقول لها:

ـ صدقتِ يا ابنتي.. صدقتِ.. كُلي يا رابعة، الطعام حلال.. ومن كدٍّ حلال..

● تشغل حالة رابعة بال أمها وأبيها، فليس ثمة صبية في مثل سنّها تهمل شبابها، وتقضي ليلها في العبادة، ما جعلها تعزف عن الزواج! فقد رافقت عائلتها يوماً

لزيارة دار أهل عتيك. فرآها أحد فتيانهم: شاب وسيم وأنيق، عُرف بالصلاح والتقوى. اقترب منها، وأخذا يتدارسان القرآن. لاحظت أم رابعة أن الفتى يرمق ابنتها بإعجاب، وما هي إلا أيام على تلك الزيارة حتى أبدى ابن عتيك رغبته بالزواج منها..

وقد فرح الأب بهذه الرغبة، فآل عتيك من أشراف البصرة وأثريائها.. لكن إجابة رابعة كانت مخيبة لآمال عائلتها... فما إن حدثوها بأمر الزواج، حتى اكفهرّ وجهها وازورّت عن الجميع، ثم التفتت إلى أبيها، وقد اغرورقت عيناها بالدموع متوسلة إليه:

ـ ناشدتك بالله يا أبتي، لا تحدثني في الزواج، فقد وهبت حياتي كلها.. ونذرتها لمخافة الله...

تدور السنوات بسرعة، وتتعرض مدينة البصرة لأحداث جسام، فالتاريخ يحدثنا أن الوباء الفتّاك الذي نزل بساحتها أهلك الكثير من أهلها، فانتشرت المجاعة وضربت الفوضى أطنابها، وسادت ظاهرة سرقة الفتيات والفتيان وبيعهم رقيقاً في أسواق النخاسة... كانت رابعة من بين الضحايا، إذ بيعت لتاجر في ضواحي البصرة، لم يتورع عن لطمها عندما سألها: ماذا تجيدين أيتها الجارية؟

فأجابته: **أحفظ القرآن بأكمله، كما أحفظ أحاديث رسول الله (ص).**

فصاح فيها: ما سألتك عن العبادة، فمثلك يجب أن تكون مطيعة في خدمة سيدها ورعايته مثل باقي الجواري. ثم أمر بتغيير ملابسها.. ما إن رآها بالحلة القشيبة الجديدة، حتى قال لها: تعطّري يا رابعة، فمن لها مثل جمالك لتكوننّ أمتع للعين وللأنف إذا تزينت وتعطرت لسيدها..

ولما لم تلقَ إجاباتها عن الأسئلة الموجّهة إليها، هوى في نفس سيدها، صرخ فيها:

ـ والله إن عدتِ إلى مجابهتي بمثل هذا الكلام، هيأت لكِ سوطاً أذيقك به العذاب ليلاً ونهاراً. . إذهبي أيتها التعيسة وافعلي ما أمرتك به. .

● تمر الأيام على رابعة في بيت سيدها ساوى بن عثمان، بحيث تقوم على خدمته كأفضل ما تقوم به الجارية على خدمة سيدها الذي لم يتورع عن ضربها بالسوط حين تلتزم بالحفاظ على عفّتها!

وفي إحدى الأمسيات، عجز ساوى بن عثمان عن النوم، فرابعة قد سببت له الأرق بعدم استسلامها لرغباته. نهض من سريره متجهاً إلى مكان نومها، فاستوقفه صوتها وهي تبتهل:

● «إلهي. . أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك، ونور عيني في عتبتك. . ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظةً عن خدمتك. . لكنني الآن تحت قبضة مخلوق قاسٍ تحكمه شهواته ونزقه وجبروته. . إنه قد تملكني بماله! يا إلهي، أنارت النجوم، ونامت العيون، وأغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك. . وعزّتك وجلالك، لا أنام عن خدمتك في ليل أو نهار، حتى ألقى وجهك الكريم».

عاد ساوى بن عثمان إلى فراشه والخوف الطاغي يسربله، والتساؤلات تتسارع حول علاقته برابعة.

فإذا كان الصباح، أرسل إليها، وحالما مثلت بين يديه، قال لها:

ـ يا رابعة، سمعتك البارحة تشكينني إلى من يقدر على الناس جميعاً ولا يقدر عليه أحد. . يا رابعة، لقد عرّيتني أمام نفسي عندما وصفتِ تلك القسوة والغلظة التي كنت أعاملك بها. . يا رابعة أنت حرة لوجه الله تعالى. .

□ □ □

● اختارت رابعة العدوية كوخاً في الجانب الغربي من البصرة تنام فيه على حصير من وبر، اتخذته مضجعاً ومصلّى، وكوزاً تشرب به من ماء النهر المحاذي لكوخها.

ومع أن رابعة لم تقترف ما يغضب الله، فهي غالباً ما تردد في دعواتها وابتهالاتها:

- إلهي.. اقبل عذري، واجبر كسري، واغفر لي ذنبي..

يا سروري ومنيتي وعمادي وأنيسي وعدّتي ومرادي

أنت روح الفؤاد أنت رجائي أنت لي مؤنس وشوقك زادي

حبك الآن بغيتي ونعيمي وجلاء لعين قلبي الصادي

إن تكن راضياً عليّ فإني يا منى القلب قد بدا إسعادي

□ □ □

● اختلف المؤرخون في تدوين حقب لم يُسلَّط عليها الضوء في حياة رابعة العدوية، فقبيل مغادرتها دار ساوى بن عثمان، واتخاذها ذلك الكوخ سكناً، أطلق المؤرخون العنان لتصوراتهم وتحليلاتهم.. فمن قائلٍ إنها عُرفت بالتحرر من القيم، إلى آخر يزعم أنها عاشت ليالي عطرة زاهرة، فإلى قائل إن رابعة العدوية نشأت بعد انعتاقها من سيدها نشأة زهد وخشونة وتعفف..

كذلك، كتب البعض واصفاً جمالها وشبابها ونداء الطبيعة البشرية الداعية إلى الغواية والانحراف. بل ثمة من المؤرخين مَن فسّر عزوفها عن الزواج تفسيرات شتى.

ولم يتوصّل أي من مؤرّخي حياة رابعة العدوية إلى إجابات واضحة على

التساؤلات المحيِّرة. بل حلّل بعضهم منهاجها في العبادة، ذاكراً محاوراتها مع زهّاد ذلك العصر، أمثال سفيان الثوري الذي قال لها يوماً:

«يا رابعة، أراك تجهدين في العبادة بما يثقل كاهل الرجال، فما بالك وأنت امرأة؟».

فتجيبه: **«يا متكلم، تكلم عن نفسك.. والله لو متَّ ما تبعت جنازتك، لأنك كثير الكلام على الخلق، تتقرب إليهم، وتجلس مجالسهم. ما شبّهتك إلا بصبيّ عَلِمَ أن يحفظ بالعشا، فإذا بكّر في بيت أمه نسي ما حفظ، حتى يحتاج المعلم إلى ضربه.. اذهب يا سفيان، اضرب نفسك بدرّة الأدب وتزوّد زاد القناعة، واجعل حظك مما أنت فيه، الكلام على نفسك، ثم تكلم بعدها عن الخلق إن استطعت»**.

بهذه الحدة، كانت رابعة تخاطب سفيان الثوري كما ذكر المؤرخون.

وعندما خطبها الزاهد عبد الواحد بن زيد لتكون زوجةً له، رفضت، قائلة:

«يا عابد المتعة، أطلب متعتك عند غيري.. أي شيء رأيته في هذا الذي ترغبه؟».

فيجيبها:

«يا رابعة.. إني مثلك زاهد في الدنيا، راغبٌ في الآخرة، لكن الزواج شرع الله وسنّته في خلقه».

فيأتي ردّها:

«إذا أراد الله بعبد خيراً في الدنيا، لم يشغله بأهل ولا بولد».

لكن الزاهد يحاججها بالقول:

«وماذا بشأن الصحابة الذين شغلوا بالأهل والولد، ولم يؤخّرهم ذلك عن عبادة الله؟».

فتشترط عليه شروطاً ثلاثة إذا خلّصها منها، تقبل الزواج منه.. أولها: إذا متُّ هل أستطيع أن أتقدم بإيماني طاهراً؟ والثاني: إذا كنت سأعطى كتابي بيميني يوم القيامة؟ والثالث: إذا جاء يوم البعث وأخذ أصحاب الميمنة إلى الجنة، وأصحاب المشأمة إلى السعير، فمن أي الفريقين سأكون؟

فيدهش الزاهد عبد الواحد بن زيد من شروطها، ويقول:

«لا أعرف شيئاً عما سألتِ، فشروطك الثلاثة علمها عند ربي».

فتجيب:

«إذا كان الأمر كذلك وأنا في قلق من هذه الأشياء، فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له؟ هل أدلّك على خير من ذلك؟».

فيجيبها، **«بعلمك ننتفع يا سيدة الزاهدات»**.

تقول له:

ـ هيئ لميعادك، وكن وصيّ نفسك، ولا تجعل النساء ولا الرجال أوصياءك، وصُم الدهر، واجعل فطرك الموت.. أما أنا، فحتى لو أحد أمثالك وما حاز أغنى الأغنياء، تهيأ لي، سرني أن أتزوجه وأُشغَل به طرفة عين عن عبادة الله!».

● أما رياح بن عمرو، المعروف بالبكّاء، فكان لا يُرى إلا والهاً حزيناً، باكياً، فإذا سُئل، يقول:

«يحق لأهل الخطايا أن يبكوا». حين أنجب هذا الزاهد طفلاً، حمله إلى كوخ رابعة، ففاجأته بالقول:

«ما كنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غير محبة الله تبارك اسمه!». فبكى رباح وقال: **وأي مأثم قد ارتكبت على حدب طفل صغير؟**

فتجيب رابعة: **يا رباح، أفق لنفسك والثمْ دموع الندم، واستفق على نفسك من: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾**.

لكن رباح الذي استمر دمعه الهتون متدفقاً من عينيه، يقول لها:

«على رسلك يا رابعة، رحمك الله.. فذلك الذي ترين فرط حب لمخلوق من مخلوقات الله، أمرنا جلّ وعلا بحبها، وتلك رحمة منه تعالى بالإنسان ألقاها في القلوب لتعطف على الصغير، وإن هذا الحب وتلك الرحمة هي زاد للطفل في الدنيا».

كأنما كلمة الدنيا هذه قد استفزت رابعة، فتجيبه والدموع تترقرق من عينيها هي الأخرى، **«الدنيا! آه.. لا بدّ أنك تحب هذه الدنيا؟ فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره فما فاز في حبه»**.

● يروى أن الحسن البصري جادلها في عزوفها عن الزواج، بالقول:

«ألم يقل خير البشر لعبد الله بن عمرو بن العاص: إنك تصوم النهار، وتقوم الليل. فلا تفعل. صُم، وأفطر، وقم، ونم.. فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن ذلك صيام الدهر كله وقد تزوج خير البشر وصاحب أعظم رسالة».

فتجيب:

«وما نحن ورسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ما نحن الخطائين بجانب خير الناس؟».

● وإذ جلس زهّاد البصرة حول فراشها أثناء مرضها الأخير، قالت لهم:

«يا أحبتي، غادروا مكاني، دعوا الطريق مفتوحة أمامي. . قد دنت الساعة التي طال إليها شوقي».

ثم أخذت تردد في نفسها:

«ليس للمحب وحبيبه بين

إنما هو نطق عن شوق. .

ووصف عن ذوق. .

فمن ذاق عرف. .

ومن وصف اتصف. .

الهيبة تخرس اللسان عن الإخبار. .

والحيرة توقف الجنان عن الإظهار. .

فما ثمة غير دهشة دائمة. . وحيرة لازمة. . وقلوب هائمة».

□ □ □

الفصل الثامن والثلاثون

«أنا الدولة، والدولة أنا» ... وخرَّ صريع الغرام

حكم فرنسا حكماً مطلقاً حوالى نصف قرن، فنهض بها من دولة متخلفة في أوروبا، إلى قمة النفوذ في السياسة والأدب والفن في العالم بأسره، حتى أطلقوا عليه لقب الملك الشمس. . إنه لويس الرابع عشر.

□ □ □

● لقد أغمض الفرنسيون عيونهم عن الكثير من أفعاله. . أغمضوها عن يده الحديدية التي حكم بها البلاد، من دون برلمان، كما كان يحكم بوزارة شكلية لا ترد له رغبة، بل تتخذ كل قراراتها تعزيزاً لنفوذه.

وسكت الفرنسيون عن علاقاته النسائية، التي فاحت روائحها في أنحاء فرنسا، كما سكتوا عن زيجاته الكثيرة، العلنية والسرية، ومخالفاته شريعتهم الرسمية وتقاليد ملوكهم الموروثة.

فإذا تجاسرت منطقة من مناطق فرنسا على المطالبة بدولة عصرية على غرار الدولة البريطانية، أطلق مقولته المشهورة، «أنا الدولة، والدولة أنا».

□ □ □

● شاء القدر أن تقتحم حياته امرأة، فتتسبّب له بفضيحة مدوية كادت أن تهز عرشه. فضيحة لا يزال صداها يتردد في صفحات التاريخ، ولا يزال المؤرخون حائرين في تفسيرها حتى اليوم.

هذه المرأة هي **لويز دي لا فاليير**، قدمتها له شقيقة زوجته الآنسة هنرييت.

احتار المؤرخون: **كيف تقوم شقيقة زوجة الملك بتقديم فتاة جميلة، وأنيقة، في عمر الزهور، إلى زوج شقيقتها، ليضمها إلى قائمة عشيقاته، ثم لتغدو أحب النساء إليه، بعدما أصابه الجنون بحبها والتعلق بها؟**

● كتبت هنرييت في مذكراتها، أن دوافعها ذات شقّين:

يتمثل الشق الأول يتمثل في إخراج أختها من دائرة بُغض الملك لويس الرابع عشر، إذ كان يكرهها، فلا يدع فرصةً تمرّ دون أن يسخر منها، وغالباً ما صبّ عليها جام غضبه لأتفه الأسباب، ناهيك عن توجيه الإهانات لها أمام الناس، مع أنها كانت كالزهرة الرقيقة، شديدة التدين، مخلصة لزوجها كل الإخلاص.. ببساطة، كان يبغضها.

أما الشق الثاني فيتعلق بإنقاذ نفسها من براثنه.. فلويس ذو مزاج غريب.. وعندما جاءت هنرييت مع أختها لحضور حفلات الزفاف، لم يكن في نيتها البقاء في فرنسا. فبانقضاء شهر الاحتفالات، قررت العودة إلى لندن، لكن سفير إنكلترا طلب إليها المكوث في باريس مع أختها الملكة، لاتّضاح ملامح فشل الزواج منذ البداية.

□ □ □

● فالملك لا يزور زوجته إلا في المناسبات الرسمية.. وإذا دخل جناحها فلا

يمكث فيه غير ساعة أو بعضها. أما إذا طال بقاؤه، فلكي يطيل عذابها بكلماته القارصة، وألفاظه الجارحة. فارتأى السفير أن تبقى هنرييت مع شقيقتها لتخفف عنها ما تكابده.

وإذ أظهر الملك **لويس الرابع عشر** عدم رغبته بعودة شقيقة زوجته إلى بلادها، لجأت هنرييت إلى الحيل التي تتقنها المرأة بالغريزة، فأخذت تتملّقه، وترضي غروره بالمديح والإطراء..

● كان **لويس** شاباً جميلاً، بل يكاد أن يكون أجمل ملوك أوروبا. ولا تنكر هنرييت في مذكراتها **أنها حاولت إيقاعه في غرامها، فتمتلك نفوذاً عليه تستخدمه لمصلحة شقيقتها**.. فكأنها بذلك تقاوم الرذيلة بأسوأ منها.

ومع هذا، فلم تفلح في إيقاع لويس في غرامها، غير أنه أمسى يطمئن إليها، ويأتمن جانبها.. فإذا بلغ به الضيق، لجأ إليها بهمومه لتسرّي عنه وتخفف من اضطرابه. لم يكن بينهما علاقة غرامية بالمعنى الحقيقي للغرام. فهو قد يقبلها، ويطيل القبلة، إنما كان بينهما نوع من التفاهم. هي تلتمس الأعذار: فمن ناحية، ثمة سنه ووسامته وفتوّته، وتهافت الحسان من كل حدب وصوب عليه، إلى جانب انهماك رجال الدولة للعمل على تحقيق رغباته. ومن ناحية أخرى، هو يمتلك السلطة التي تدير الرؤوس. بالنظر إلى هذه العوامل، تعاملت هنرييت معه بحذر شديد، وسايرته، حتى أصبحت الصديقة الأثيرة لديه..

● إلا أن علاقته بها، لم تحل دون وقوعها في غرام شاب فرنسي، سعت إلى الزواج منه بسرعة، رغم اعتراضات لويس التي تعاملت معها بذكاء وحنكة.. وحالما تزوجت، حدث تغيير عجيب في مزاج الملك الفرنسي، فشرع يتودّد إلى شقيقة زوجته المتزوجة حديثاً، ويلاحقها بغرامه إلى الحد الذي عرض فيه استعداده لتطليق شقيقتها والزواج منها، بعد أن يرسل زوجها إلى معركة لا يعود منها.

لكن هنرييت أقنعته بأن زواجاً كهذا سيجرّ عليه وعليها ويلات لا حدّ لها، فهو سيثير غضب البابا لخرقه نواميس الكنيسة، في موضوع زواج الأختين؛ كما سيثير غضب إنكلترا بسبب طلاق أميرة تنتمي إلى الأسرة المالكة.

ورغم عدوله عن مشروع الزواج منها، بعدما أحسنت إقناعه، ظل يطاردها بحبه وأشعاره العاطفية، التي كانت الأفواه تتناقلها سراً في صالونات باريس.

□ □ □

● لعل زمام النفوذ الجديد يكمن في قبضة شقيقة الملكة، لكنها كانت تحب زوجها، حتى لم تجد حيلة من إلحاح الملك إلا أن تُلقي في طريقه بمن تنسيه هيامه بها. . فوقع اختيارها على الآنسة **لويز دي لا فاليير**، عندما كانت في زيارة خارج باريس، إلى قصر والد لويز، أحد أشراف فرنسا. فشاهدتها في الحديقة مع فتى جميل، وسرعان ما اختلت إلى أمها، وحدّثتها بما يجول في خاطرها. لكن الأم تساءلت:

ـ إبنتي تذهب إلى باريس؟ وماذا تعرف هذه الفتاة الرقيقة عن أمور البلاط الملكي، وأصول التصرف في هذا المجتمع الذي تشرق فيه شمس مولانا الملك؟

. . لكن هنرييت تعهدت للأم بأن تجعل من ابنتها وصيفة لها، بحيث تشرف بنفسها على تعليمها. . فقالت الأم:

ـ لكن ابنتي على وشك الزواج من ذلك الفتى الذي ترينه معها في الحديقة. هو نجل الفيكونت دي براغلون. .

فقالت هنرييت:

ـ ما أحسب الفتى يعارض أن تكون خطيبته وصيفة لشقيقة ملكة فرنسا!

فاستسلمت الأم قائلة:

ـ لا أملك أن أردّ رغبة لك يا صاحبة السمو! لكنني أستحلفك بالله يا سيدتي، أن تصونيها مما قد تتعرض له فتاة غرّة، ووديعة، وجميلة مثلها من إغراءات في بلاط الملك..

تعهدت لها هنرييت بالقول:

ـ ستكون كابنتي.. وسأحميها مما أحمي منه طفلتي الصغيرة.

□ □ □

بيدَ أن هنرييت أضمرت عكس ما تعهدت به تماماً، إذ جعلت من لويز وصيفتها الخاصة المقرّبة منها، على أمل أن يراها الملك إذا قصد قصرها ليبثها غرامه كالعادة.. فيقع نظره على الشابة خارقة الجمال، فيخرّ ساجداً أمام سحر روعتها.

لكن **لويس الرابع عشر** قال لهنرييت حينما رأى الفتاة للمرة الأولى:

ـ بحق السماء.. لقد أسأت اختيار وصيفتك يا صاحبة السمو!

أجابته ممازحة:

ـ لم لا تقول، يا صاحب الجلالة، إنها أجمل فتاة في فرنسا كلها!

فيردّ:

ـ لا أنكر أنها رائعة.. إنما يجب أن تتعلم أموراً كثيرة..

وبالفعل بدأت لويز دروسها الأولى في الرقص. كان **لويس** يفاجئها بحضوره أثناء التدريب. تكررت زياراته، وإذا بكيوبيد يلعب لعبته المعهودة، فترسل لويز سهام جمالها الرائع، ليخرّ **لويس الرابع عشر** صريع غرامها..

وبما أن الفتاة قاومت ملاحقته إياها، وتودّده المستمر، بحياء وخفر الفتاة الريفية، متذرّعة للملك بأنها تحب فتاها، استدعى الملكُ الفتى، وجعل منه مرافقاً خاصاً له، بهدف إسقاطها من عين حبيبها.

وما انفكّ يكتب لها قصائد عاطفية مثيرة، والفتاة الريفية تتأثر بتلك القصائد، وتظنها منابع صدق تبثها خلجات الملك العاشق، المغرم بجمالها والمحب لها إلى درجة الجنون. كانت تقف مشدوهةً أمام ما يمطرها به من أشعار، من دون أن تدري كيف ترد عليه.. أعربت مرة عن قلقها لهنرييت، التي وعدتها بإيجاد مخرج، وإنقاذها من حيرتها..

لجأت هنرييت إلى الشاعر الماركيز دان جو، طالبة منه خدمة، فأجابها دون تردد:

ـ من أجلك يا صاحبة السمو أفعل أي شيء!

وإذ أوشك لويس الرابع عشر على التخلص من زوجته، فوجىء بأن في أحشائها منه طفله المرتقب.. وليّ العهد.. الذي غدا في ما بعد لويس الخامس عشر. فعدل على الفور عن فكرة تطليقها، أو قتلها بالسم!

حين سألته معشوقته الأثيرة لويز عن وعده لها، قال:

ـ الآن لا أستطيع فعل شيء، يا حبيبتي! لنضع مصالح الدولة فوق عواطفنا الخاصة!

● فانهارت الصبية تماماً، وأصيبت بنوبة من الهذيان والجنون، فرّت على أثرها من القصر، إلى المكان الوحيد الذي ظنته بعيداً عن سيطرة الملك لويس الرابع عشر. مكثت في الدير، بينما رجال الملك يبحثون عنها في كل مكان، ويسومون العذاب كل من حامت حوله الشبهات في المساعدة على فرارها. كما لقي خطيبها السابق المسكين أبشع أنواع المهانة والعذاب..

وفي النهاية عُثر عليها بعدما اقتحم رجال الملك الدير، وأخرجوا لويز بالقوة والعنف، رغم أن تعاليم الكنيسة تحرّم ذلك. فأعادوها إلى القصر، **لأن لويس الرابع** عشر أصابته لوثة جنون، كادت أن تهزّ عرشه، بعدما تفشت أخبار القصر إلى الناس، فاستثارت حفيظة الشعب ضد الملك الذي أحب لويز دي لا فاليير حباً احتل رأس قائمة تاريخ العشاق في العالم، لكنه انتهى بمأساة رهيبة، يعرفها المؤرخون باسم مأساة «**الرجل المقنع**».

مصرع العشق في إسبانيا..

● كثيراً ما تحمل الشوارع والميادين والأزقة والسدود أسماء تدل على ما وقع فيها أو قربها من أحداث تاريخية..

في مدينة مَلَقَة على الشاطئ الجنوبي لإسبانيا، شارع كبير يحمل اسم **«شارع الحسناء والتلميذ»**. إنه يحمل هذه المرة قصة تدخل في باب تاريخ عاطفي صغير.. قصة اختلط فيها الحب بالقانون والكهنوت، وكاد هذا الخلط أن يؤدي إلى حرب بين البابا ألكسندر الثاني، والملك فيليب الأول، عاهل إسبانيا.

● يروي المحامي حكاية الحسناء ماريا:

«إنها دون جدال أجمل فتاة في ملقة، بل لست أبالغ إذا قلت إنها أجمل فتاة في أيبيريا كلها. لا تليق إلا بأمير. لها من الجمال ما يعوّض عدم انتسابها إلى عائلات متحدّرة من شجرات الحسب والنسب.. وما من فتى إلا ويتمنى أن تكون ماريا كوربيلا زوجة له.. إلى أن ظهر ذلك التعس اللعين رينانو بينافانتي ــ تلميذ حاول غواية موكلتي».

● قد لا تكون وجهة نظر محامي ماريا حيادية في تقييم التلميذ.. لكن الحقائق

تشير إلى أن التلميذ جاء من مدريد إلى ملقة، حين أمر الملك بإغلاق المدارس في مدريد إثر اندلاع ثورة ضد الحكومة. فرأى والد رينانو أن يبعث به ليعيش مع إحدى خالاته في ملقة.

وببساطة، رأى ماريا فشغف بحبها، وتقدم للزواج منها، لكن أباها رفض طلبه قائلاً: **«على رسلك يا فتى! لا تتعجل الأحداث!»**.

امتلك الأب أسباباً كثيرة لرفضه زواج التلميذ من ابنته، لأن العاشق الصغير كان قاصراً، في السادسة عشرة من عمره، أي أكبر من ماريا بعام واحد.. وكان من المحتمل جداً أن ينتهي العام الدراسي، فيعود إلى مدريد، وينسى ملقة وأهلها.. لكن والدة ماريا كان لها رأي آخر، بعدما اكتشفت أن ابنتها الصغيرة الجميلة ستهبها في ستة أشهر حفيداً أو حفيدة... إذ علم الأب بالكارثة التي حلّت به، صاح ثائراً بزوجته:

ـ اسمعي يا بيانكا! إما أن يتزوجها، أو أقتله!

ـ إهدأ يا ألفونسو.. هذه المصيبة التي حلّت بنا يجب ألا تفقدنا التفكير المتزن والسليم!

ـ تفكير متزن يا بيانكا؟ أرأيت ماذا حلّ بنا بسبب تهاونك في تربية ابنتك؟

ـ كف عن سخافاتك يا ألفونسو كوربيلا.. ودعني أعالج الموقف بتعقّل!

ـ الزواج.. لا بدّ من أن يتزوجها في الحال..

ـ أصغ إلي يا أهوج.. الفتى يحبّها، ولا يمنعه من الزواج منها غير القانون.. إنه قاصر..

ـ يا للعار.. هل ننتظر عامين أو ثلاثة أعوام نربي حفيداً لنا بغير زواج! لأن والده لم يبلغ السن القانونية؟ يا للفضيحة! وبعد ذلك تقولين ساخرة، دعني أعالج الموقف بتعقّل؟ سأقتله..

ـ أيها المتهوّر الأحمق.. تقتل فتى من أسرة بينافانتي؟!.. أتظنهم يدعونك تمشي بين الناس وقد قتلت ولدهم؟

ـ إذاً، ما الحل أيتها الفيلسوفة؟

ـ الحل أن نسافر جميعاً إلى إشبيلية، ونترك ماريا وحدها في البيت!

لكن الأسرة لم تغادر ملقة، كانت مجرد خدعة. ففي الليلة التي يفترض أن الأسرة قد سافرت وفيها تركت ماريا بمفردها، أرسلت ماريا ــ بإيعاز من أمها ــ الرسالة التالية:

«رينانو.. لقد سافرت الأسرة كلها إلى إشبيلية.. ولا أحد معي في القصر غير خادمتي المخلصة خوانيتا، وهي مطلعة على حبنا، وتعرف كل شيء عني وعنك... حبيبي.. أنتظرك الليلة».

وذهب رينانو إلى القصر الذي يشي منظره بخلوه من أهله.. وقضى أمتع الساعات مع حبيبته ماريا.. وفجأة اقتحم عليها الغرفة الأب وفي يده بندقية، وطلب إلى رينانو أن يكتب النص التالي: أتعهد أنا رينانو بينافانتي فور بلوغي السن القانونية في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٥٧٠ أن أتزوج الآنسة ماريا كوربيلا مع اعترافي سلفاً بطفلي منها..

● في مدريد، علمت العائلة بما حدث لابنها في ملقة، فعلّقت الأم:

«شخصياً لن أمانع في إتمام هذا الزواج، لا سيّما أن فضيحة المسكينة على الأبواب».

لكن والد رينانو غضب وثار، قائلاً:

«لن أسمح بأن يتزوج ولدي سليل أسرة بينافانتي العريقة، من فتاة مبتذلة رخيصة، لا نعرف لها حسباً ولا نسباً».

وبما أن المادة (٦١) من قانون العقوبات الإسباني تنص على:

«الإعدام لكل من يغتصب فتاة قاصراً، ويرفض الزواج منها»، فلا بد من إيجاد حل يقي رينانو عقوبة الموت.. فاقترح عليهم أحد فقهاء القانون الإسباني إدخال الولد سلك الكهنوت الكاثوليكي، فيحرّم عليه الزواج نهائياً، وتسقط بذلك الدعوى الجنائية ضده.

لم تكن أسرة ماريا على علم بما حدث، حتى جاء شهر تشرين الأول أكتوبر، الموعد المقرر لزواج ماريا من حبيبها ووالد طفلها، لكن رينانو لم يحضر!

بلغهم خبر دخول مَن خدع ابنتهم في سلك الكهنوت الكاثوليكي، فأدركوا أنها خدعة خبيثة، وسرعان ما رفعوا الأمر إلى القضاء..

كانت حجة المحامي في رفع القضية: صحيح أن رينانو بات ممنوعاً من الزواج بحكم القانون الكنسي، لكنه لا يزال مغتصباً للفتاة في حكم القانون الجنائي.. وسيحاكم أمام أعلى محكمة في البلاد..

وبالفعل، صدر الحكم بالإعدام، وُزجّ بالفتى رينانو في السجن، في انتظار تنفيذ العقوبة، وفشلت كل المحاولات والوسائل لإنقاذه من حبل المشنقة. لم يبق من أمل لخلاصه إلاّ بإصدار البابا ألكسندر قراراً بإعفاء رينانو من السلك الكهنوتي، كي يتمكن من الزواج بماريا، فيسقط حكم الإعدام. إلا أن البابا أجاب:

«هذه سابقة في منتهى الخطورة.. ومن الخير أن يموت الفتى على أن يتخذ السلك الكهنوتي ألعوبة في أيدي الناس».

لكن العاشقة الصغيرة ماريا لم تسكت.. حملت وليدها الصغير بين ذراعيها، وقصدت الملك فيليب الأول لمقابلته:

ـ إذا أُعدم رينانو يا صاحب الجلالة، فإني وهذا الطفل البريء سنموت قبله!

يقولون يا مولاي إنه أغواني . . لماذا لا يقولون إنني كنت سبباً في هذه الغواية؟

يرقّ قلب الملك فيليب. . بل لعله رقّ للفتاة الجميلة التي لم تدع شيئاً إلاّ فعلته لإنقاذ حبيبها. وعدها بإصدار قرار يقضي بإعفاء رينانو من السلك الكهنوتي، ليتزوجها ويسقط عنه حكم الإعدام. .

حين علم البابا ألكسندر الثاني بقرب صدور ذلك القرار، انفجر في اجتماع الكرادلة قائلاً:

«هذا اعتداء على حقوق البابوات! لا أحد يملك إعفاء رجل الدين الكاثوليكي من عمله إلا البابا. . وإنْ أصدر فيليب هذا القرار فعلاً، لأمرت الجيشين الفرنسي والإيطالي باحتلال بلاده!».

باستفحال الأمر، وتراكم الخلافات والاجتهادات في وجهات النظر، انتصر الحب. . ولكن. .

عام ١٥٨٠ اجتاح مرض الطاعون ملقة، فقضى على ثلاثة أرباع سكانها ومن بينهم أسرة رينانو الصغيرة. . وحين أعيد تخطيط المدينة، بعدما أمر الملك بإخلائها، وحرق بيوتها للتخلص من الوباء، وُضعت على أول الشارع الذي كان رينانو وزوجته ماريا و أطفالهما يقطنون فيه، لافتة كُتب عليها: **«شارع الحسناء والتلميذ»**.

□ □ □

القسم الخامس

صعاليك ومجرمون

يبيع الموت..
ويعشق الحياة!!

• قتل في حياته وبعد موته أيضاً ملايين البشر كان تاجر سلاح!...

أقذر تاجر سلاح عرفته البشرية... كان يبيع السلاح المدمر لكل الأطراف المتنازعة، لا يعنيه شيء من الدماء المراقة والأطراف الممزقة، والأشلاء البشرية المتناثرة والأرامل واليتامى.. ما يعنيه الأموال التي يجنيها من هذه المجازر البشرية.

أجمع من عرفوه عن قرب أو عن بعد، وكل من اتصلوا به لسبب من أسباب الحياة، أو الموت، على أنه أقسى رجل مرّ في حياتهم! جمع بين قسوة إبليس وجبروت فرعون!

كتب عنه سكرتيره:

«عبثاً تحاول أن تلمح في عيني بازيل زهاروف الضيقتين الماكرتين الحاقدتين رحمة أو حنان! أعتقد أن ثمة في مكان قلبه قطعة من أحجار جهنم».

مع هذا، اهتز هذا القلب المتحجر لنغمات الحب. نعم، فحتى هذا القلب الجهنمي عرف الحب، وضحّى أيضاً من أجله!

□ □ □

● رآها أول مرة في كازينو مونت كارلو، الذي كان يمتلك نصفه، والغريب أنه كان يقامر فيه ويربح أرباحاً طائلة..

كتب سكرتيره:

«كان إذا اقترب من موائد القمار، تغامز عماله، وتآمروا، لمصلحته، على سائر المقامرين، وإنْ كانوا من أمراء أوروبا وملوكها. اقتربت هي لتلعب الروليت.. جميلة.. أنيقة.. ذات كبرياء.. لم يهتم بها، إذ اعتاد أن تتهافت عليه الجميلات، باعتباره واحداً من العشرة الأغنياء في أوروبا..

اقتربت منه، وسألته دون النظر إلى وجهه:

ـ سيدي، ما هي الوصفة السحرية التي تجعلك حسن الحظ في القمار؟

ـ ليس هناك غير وصفة واحدة يا سيدتي، وهي ألا تلعبي القمار أبداً!

● لعلها كانت كلمة الصدق الوحيدة التي قالها طيلة حياته.. ثم نسيها.. ولم يكن يدري أنها هي من كتبتها له الأقدار!

● ثم التقاها مرة أخرى، بعد خمسة أعوام، في غرفة الطعام على متن القطار السريع الآتي من زيوريخ إلى باريس.

كانت على مائدة الطعام، وأمامها وصيفتها.. لم تكن تأكل.. تأملها طويلاً.. وربما تحرّك قلبه لها قليلاً.. لم يتذكرها.. تحاشت نظراته.. فتوجّه نحو باب الخروج، وسأل رئيس الخدم بعدما دسّ في يده ورقة مالية:

ـ من هذه السيدة التي تجلس قرب مائدتي ومعها خادمتها.. ولا تكاد تمس طعامها؟

ـ ألا تعرفها يا سيد بازيل؟ إنها الدوقة ماريا ديل بيلار أنطونيا أنجيلا..

ـ لا داعي لهذه الأسماء الكثيرة، أهي متزوجة؟

ـ أجل يا سيدي، إنها زوجة الدوق موكيدو دي مارشينا الإسباني، وهي ابنة عم صاحب الجلالة ملك إسبانيا.

ـ هل زوجها معها في القطار؟

ـ أجل يا سيدي، ولكن الدوق يلزم مقصورته..

ـ ولماذا لم يخرج؟

ـ لأنه مريض.

ـ بماذا؟

ـ بعقله!

ـ أمجنون هو؟

ـ يوشك أن يجن!

ـ ولم لا يدخلونه المصحة؟

ـ إنهم ذاهبون به إلى باريس لهذا الغرض يا سيدي..

□ □ □

● انتهى وقت العشاء في القطار، وعاد المسافرون، وكلهم من علية القوم، إلى مقصورات النوم.. ساد الهدوء إلا من الحوار الصاخب الدائم بين عجلات القطار والقضبان الحديدية..

فجأة، سمع تاجر السلاح بازيل زهاروف، أصوات شجار بين رجل وامرأة، أعقبه صوت صفعات وصرخات.. تبعه صوت باب المقصورة يُفتح بعنف، وأقدام تجري.. ففتح الباب، وإذا بها لاهثة باكية، فبادرها بالقول:

ـ ماذا هناك يا سيدتي؟

ـ أتوسل إليك يا سيدي أن تحميني في مقصورتك، فزوجي يريد أن يقتلني!

ـ أدخلي.. أدخلي..

وما هي إلا لحظات، إذا بباب المقصورة يُطرق بعنف.. فاصطنع زهاروف هيئة من استيقظ من منامه، وفتح الباب متثائباً، وسأل:

ـ ماذا تريد يا سيدي بحق السماء في هذا الوقت من الليل؟ ومن أنت؟

ـ أنا الدوق موكيدو دي مارشينا. أريد زوجتي التي دخلت إلى مقصورتك..

ـ لم يدخل أحد إلى مقصورتي، فدعني أواصل نومي لو سمحت!

ـ هل أنت واثق بأنك لم تر زوجتي؟

ـ يا سيدي، إبحث عن زوجتك في مقصورة أخرى.. وأتمنى لك ليلة طيبة.. ثم أقفل الباب..

تسلّلت الدوقة من تحت الفراش ترتعد، والدموع تغطي وجهها الجميل..

ــ لا تخافي يا دوقة. . تمالكي نفسك. . لن يمسّك بأي أذى. .

ــ كيف عرفت لقبي؟

ــ يا سيدة ماريا ديل بيلار، أنا أعرف عنك أكثر مما تتصورين. .

ــ أعتقد أنني رأيتك قبل اليوم يا سيدي! هل تأذن لي بالذهاب؟

ــ إلى أين؟

ــ سأقضي الليلة في غرفة الطعام. .

ــ بل أنا من سأفعل هذا. . امكثي أنت في المقصورة حتى لا تتعرضي لأذى زوجك المجنون. .

ــ يا إلهي. . حتى هذا عرفته؟

ــ قبل أن أذهب إلى غرفة الطعام، أحب أن أقول لك أمراً يا ماريا ديل بيلار. .

ــ ما هو؟

ــ أحبك. .

□ □ □

● منذ تلك الليلة، والدوقة ماريا ديل بيلار تحتل المقام الأول من اهتمامات بازيل زهاروف، أخطر وأثرى تجار السلاح في أوروبا. .

● حين عادت ماريا إلى إسبانيا، لحق بها، وكان سكرتيره يدون بعض ملاحظاته في تلك الرحلة:

«لقد استخدم كل إمكاناته في تدبير الحيل من أجل حبيبة القلب، لكي يجلس إليها ولو دقائق معدودة. . مع أن أصول المراسيم الإسبانية صارمة وقاسية، استطاع زهاروف النفاذ عبر جدرانها الصلدة، بعد أن قدم لملك إسبانيا أرخص

صفقة سلاح في التاريخ. . وحين سألته عن ذلك، أجاب:

ـ هل تظن يا كاميه أنني خسرت شيئاً في صفقة المدافع التي عقدتها مع الحكومة الإسبانية؟ أبداً يا عزيزي. . لو كنت بعت تلك الصفقة لإنكلترا مثلاً، لربحت ستين بالمائة. . لكنني اكتفيت بنصف هذا الربح من أجل ماريا».

● كاميه هذا هو سكرتير زهاروف، الذي كان يقوم بدور رسول الغرام بين العاشقين. .

من عجائب القلوب أن تولد علاقة حب حقيقية صادقة بين رجل جامد العاطفة، بعدما تجرّد من نعمة الإحساس بآلام الآخرين، وهذه السيدة الرقيقة الطيبة، ابنة الخامسة والثلاثين. .

□ □ □

كان في الخامسة والخمسين حين أحبته. . لكنها لم تنس له قط أنه، بأمواله الطائلة، استطاع التأثير على قرارات أطباء ملك إسبانيا لإدخال زوجها الدوق المجنون إلى مصحة الأمراض العقلية في جنيف.

كانت مقابلاتهما تتم في غفلة من الجميع: في جنيف، في باريس، في فينيسيا، في سان سباستيان، حيث اشترى في كل عاصمة من بلدان أوروبا قصراً أو فيللا، ليلتقي فيها حبيبة القلب، ولو فترات محدودة. .

ذات يوم، بينما كانا يعبّان رحيق العواطف الجياشة، قال لها:

ـ من حقك يا ماريا أن تطلبي الطلاق! الدوق مجنون، ولن تتردد أي محكمة في تحريرك من قيود الزواج!

ـ قرار كهذا لا يصبح نافذ المفعول إلا إذا صدّق عليه جلالة الملك!

ـ كلّميه في الأمر.. أنت ابنة عمه!

ـ يعلم الملك أن طلاقي من الدوق مارشينا معناه الزواج منك!

ـ وأي ضير في هذا؟

ـ بالنسبة إليّ، تلك أمنية حياتي.. لكني سمعت جلالة الملك يعبّر عن استعداده لإطلاق الرصاص على أي فتاة أو سيدة من أسرته تتزوج من دون موافقته..

ـ سأذهب إليه بنفسي وأكذّب كل ما يشيعه عني أعدائي..

ـ بازيل يا حبيبي، يقولون عنك أشياء بشعة..

ـ وإذا أطلعتك على الحقيقة.. هل تهجرينني؟

ـ وعدتك بالالتزام بعهدي لك حتى الموت!

ـ ماريا، لقد عشت أسوأ حياة يعيشها صبي متشرد في شوارع اسطنبول! سرقت.. امتهنت أحقر المهن.. لا أنكر هذا.. إنما أعتقد أن حبك طهرني من أدران الماضي القديم..

ـ أرجوك يا بازيل لا تذكر لي شيئاً!

ـ من حقك يا حبيبتي أن تعرفي كل شيء.

ـ أريد أن أعرف شيئاً واحداً: إتهموك يوماً بأنك قتلت عمك بعدما سلبته أمواله.. ما هي الحقيقة؟

ـ سرقته.. أجل.. لكن لم أقتله.. وعدني مرة بأن أكون شريكه، وحرّر معي عقداً.. ثم أنكر الأمر كله ساعة توزيع الأرباح.. فكسرت الخزنة، وفررت من

اسطنبول إلى لندن. . عثروا عليه بعدها ميتاً، فاتُّهمت بقتله، لكن القضاء برّأني.

□ □ □

● يقول سكرتيره الفرنسي كاميه بلان عن هذه القضية أمراً مختلفاً، حيث كتب:

«ثبتت عليه تهمة القتل، وأعيد إلى اسطنبول، لإعادة محاكمته بموجب القانون التركي. لكن تلك كانت أيام القلاقل والصراع الدولي بين تركيا واليونان. . إستطاع أصحاب النفوذ من الجالية اليونانية في تركيا تهريب بازيل زهاروف إلى أثينا، حيث عمل مع ابن عمه في أحقر مهنة ـ عمل قواداً في بيوت الدعارة في حي تاتافالا».

● وسرعان ما خاض بازيل زهاروف ميدان بيع السلاح، حتى غدا واحداً من أثرياء أوروبا الكبار. .

ولما تغلغل الحب إلى حياته، فعل المستحيل، بهدف الزواج من ماريا، مستخدماً نفوذه وعلاقاته السياسية، فوسّط رئيس وزراء دولة عظمى لدى ملك إسبانيا كي يوافق على طلاق الدوقة من زوجها المجنون. . لكن ماريا أبرقت إليه:

ـ لقد رفض يا بازيل، وبإصرار. . .

فأبرق إليها:

ـ سأنتظر!

كان ينتظر وفاة الدوق. .

□ □ □

يثير الدور الذي لعبه سكرتيره كاميه بلان حيرة المهتمين والمتتبعين لحياة بازيل

زهاروف.. لكنهم عجزوا عن إثبات ما إذا كانت له يد في النهاية السرية التي حققت لسيده مبتغاه.. فهذا السكرتير سافر إلى جنيف، ومن هناك أرسل برقيتين تفصل بين الواحدة والأخرى ست وثلاثون ساعة.. جاء في الأولى: **«المرض يشتد جداً على الدوق.. يقول الأطباء إن حالته ميؤوس منها.. وقد تكون نهايته في الأسبوع المقبل»**.

□ □ □

وجاء في البرقية الثانية: «نهنئكم! توفي الدوق منذ لحظات!».

● في الثاني والعشرين من أيلول/سبتمبر عام ١٩٣٦، عقد سير بازيل زهاروف قرانه على ماريا بيلار دوقة مارشينا، بعدما تنازلت عن لقبها الكبير.. جرى الزواج بسرية تامة.. دخل الكنيسة متكئاً على عصاه، وهو في الثالثة والسبعين من عمره.. أمسكت بذراعه العروس العاشقة ابنة الثالثة والخمسين..

□ □ □

لم تدم سعادته طويلاً. مرضت ماريا مرضاً مفاجئاً أودى بحياتها بعد ثلاثة أيام.. ركع بازيل زهاروف عند قدميها باكياً:

ــ يا إلهي، ثمانية عشر شهراً فقط.. ما أقصر السعادة.. ما أقصر السعادة!

وما هي إلا أسابيع .. حتى مات زهاروف، ولم يشيّع جنازة أثرى رجل في أوروبا سوى حفّاري القبور. كتب أحدهم على قبره:

«هنا يرقد من تسبب بقتل ملايين البشر، جرّاء تجارة السلاح... من لم يعرف قلبه الحب، فلتلعنه الملائكة والشياطين».

سوزان وماري..
النسخة الأوروبية من ريّا وسكينة!!

يبدو أن أسلوب ريّا وسكينة الدموي ليس من ابتكارهما، بل ثمة سابقة وقعت أحداثها عام ١٨١٠ في اسكتلندا، تثبت وجود سفّاحتين من الطراز نفسه.

ها هو الدكتور نوكس، أستاذ التشريح بجامعة أدنبره في اسكتلندا، يطرق باب نزلٍ قديم في أحد أقذر أحياء أدنبره الشعبية.. تفتح له امرأة مشعّثة الشعر في الثلاثين من عمرها.. تستخدم لغة مبتذلة:

– ادخل يا نوكس، أقصد يا دكتور نوكس.

– هل السيد جورج هير موجود؟

– تبحث عنه أم عن الجثة؟

– أبحث عنه، لأن تسليم الجثة في مكان آخر.

– تصور يا دكتور نوكس، هذا الحقير هير لا يزال يرفض الزواج مني أو من

أختي ماري. . مع أننا نكسب أكثر مما يكسب من مهنته الدنسة الحقيرة. . لماذا لا تكلّمه في هذا الموضوع يا دكتور؟

ـ سأفعل يا سوزان، سأفعل.

ـ قل له إننا نكسب كثيراً من هذا النزل. صحيح أنه قذر وفقير لجهة الأثاث والطعام الذي نقدمه للنزلاء، لكننا نربح كثيراً. . ثم إنني جميلة. . ألا تراني كذلك؟ وأختي هي الأخرى جميلة. سنمهله أسبوعاً آخر. . إما أن يتزوج إحدانا، أو نبلغ الشرطة عن جرائمه. . ولدينا الدليل.

ـ سوزان، تذكّري أنني أدفع لكم بسخاء. . ولو بلّغتِ الشرطة لمسّني من ذلك شرٌّ كبير.

ـ حسنٌ. . أقنعهُ إذاً بالزواج مني أو من أختي.

ـ من أي واحدة منكما دون تمييز؟

ـ المهم أن أعيش وأختي ماري في حماية رجل. . وإن يكن ذلك الرجل نبّاش قبور!

□ □ □

وظهر جورج هير. . طويلٌ عريض. . قوي البنية كالثور. . لا يقل سوقيةً وابتذالاً عن سوزان وأختها ماري.

ـ الجثة جاهزة يا دكتور نوكس. . امرأة في الخامسة والعشرين دُفنت هذا الصباح للتوّ. . لكني لن أرضى بأقلّ من عشرين جنيهاً!

ـ عشرة فقط ولن أزيد شلناً واحداً!

ـ إسمع يا جورج هير [بشدة وتهديد] لقد أخبرت الدكتور نوكس أني أمهلك

أسبوعين للزواج مني أو من أختي ماري.. وإذا لم تفعل فأبلّغ الشرطة!

ــ عليكِ اللعنة! عليكِ اللعنة أنتِ وأختك.. لماذا لا نبحث في هذا الموضوع بعد رحيل الدكتور؟

ــ الزواج أولاً.. وإلا فالشرطة!

ــ أرجوك يا جورج: ألا تعرِّضنا للشرطة.. سوف أدفع لك خمسة جنيهات أخرى هدية لزواجك من إحداهنّ!

□ □ □

● وتتّضح الصورة: جورج هير يقوم بنبش القبور وسرقة جثث حديثي الوفاة، يبيعها للدكتور نوكس، لإجراء تجاربه في التشريح عليها، إما في بيته أو في معمل الكلية..

□ □ □

● ويتزوج جورج هير من سوزان.. كان الجميع يقيمون في غرفة واحدة، بينما خصصوا الغرف الثلاث الأخرى للنزلاء الذين يتكوّمون على الأرض لقاء أجر زهيد... وذات يوم توفي أحد النزلاء..

ــ جورج، إننا في حاجة ماسة إلى المال.. ماذا لو بعنا الجثة للدكتور نوكس قبل دفنها..

ــ فمن ندفن إذاً أمام الناس؟

ــ ندفن الصندوق وفيه قطع من الحجارة بدلاً من الجثة!

وبالفعل تم إخفاء الجثة تحت الفراش، ووضعت مكانها قطع من الحجارة. ثم

سار الثلاثة مع المشيّعين وراء الصندوق حتى المدافن. . وفي الليلة نفسها، تسلّم الدكتور نوكس جثة جديدة لم يمض على وفاة صاحبها أكثر من بضع ساعات. . بعد تسلّم المبلغ، قضى الثلاثة ليلتهم يحتسون الخمر ويرقصون!

□ □ □

● في حوار بين سوزان فماري تضمّن التالي:

ـ تجارة الجثث هذه تدرّ علينا ربحاً أوفر من النزل. . فلماذا لا نتوسع فيها؟

ـ كيف يمكننا ذلك؟

ـ شجّعي جورج على استدراج الفتيات إلى هنا. . وأنا أخدّرهنّ بالشراب. . والباقي عليكِ!

ـ تقصدين الباقي على جورج أيضاً!

ـ أتعجزين عن خنق امرأة بوضع يدك على فمها وأنفها؟ سيبدو موتاً طبيعياً. . وبعدها ستتمتع بجنيهات الدكتور نوكس.

ـ والنزلاء. . ماذا نفعل بهم؟

ـ ما دامت هذه تجارة رابحة، فما حاجتنا إلى النزلاء؟

□ □ □

● وراح جورج هير يجول في شوارع أدنبره، لا سيّما في حيّ الجاكرز. . وهو حي فقير يكتظّ فيه الحمّالون، وعمال النظافة، وخدم البيوت، وخادمات الحانات الرخيصة، وبائعات الهوى.

كانت أولى الضحايا الخادمة أبيغال سمبسن، التي صدّقت أن جورج أحبها وعزم

على الزواج منها. فسارت معه إلى حتفها، ورقدت من أول كأس جرعته. .

ـ تصوّري يا ماري، لم أجد في كيسها سوى عشرين شلناً. . أكان هذا مهركَ يا جورج؟

ـ ليس هذا مهماً. . المهم ما سيدفعه الدكتور نوكس ثمناً للجثة!

ـ أظنه يجب أن يكون أكثر كرماً. . فهذه جثة فتاة في مقتبل العمر. . بعشرة جنيهات فقط؟ قل لي يا جورج، ألم يشتبه في أمرها؟

ـ كلا، على أي حال، لم أغادر بيته حتى رأيته يشرع بعملية التشريح كي أطمئن إلى أنه لم يشكّ في الأمر!

□ □ □

● وحتى لو ساورت الدكتور نوكس أية شكوك، فلم يكن ـ كما ثبت في القضية لاحقاً ـ يجهل أساليب سوزان وماري وجورج هير. . فهو أمام مصالحه، قد باع القَسَم الأبقراطي بأبخس ثمن. .

● واصلت العصابة الصغيرة تجارتها البشعة. . يستدرج جورج الفتيات إلى غرفة الموت. . فيُنقلن بفضل ماري وسوزان بعد ساعات قليلة جُثثاً هامدة إلى معمل الدكتور نوكس!

أصبح الثلاثة أثرياء. . فلم يكونوا يكتفون بثمن الجثث، بل كانوا يجرِّدون الفتيات الضحايا من الحُليّ ومما في الأكياس من مال جئن به مهراً للثور جورج هير. .

واتّخذت سوزان قراراً بعدم اقتصار الضحايا على النساء. . فهي فتاة جميلة تستطيع إغواء الرجال، تنويعاً في البضاعة التي تُقدَّم إلى الدكتور نوكس ـ رجالاً ونساءً!

● وذات ليلة، عاد جورج برفقة فتاة لطيفة وجميلة اسمها جانيت براون. . يبدو أنه عدل عن تسليمها إلى زوجته وأختها، إذ وقع في غرامها. . لكن ماري تفاجئه في حوار هامس، بينما كانت الضحية في الغرفة.

ـ عليكَ اللعنة . . دكتور نوكس ينتظر منا الجثة الليلة. . لا بد من قتلها!

ـ أمهليني يوماً أو يومين!

ـ بل الليلة أيها القذر وإلا بلّغت الشرطة!

ـ كُفّي عن هذا التهديد وإلا قطعت لسانك. . تغارين منها لأنها أجمل منك ألف مرة!

● كانت جانيت قد استبطأت جورج. . واضحٌ أنها استرقت السمع إلى الهمس الصادر ثم من الغرفة المجاورة. . فأدركت ما بُيّت لها. . حاولت الفرار من النافذة . . لكن يد ماري أطبقت على فمها. . فقاومت وعضّت ماري. . ثم جاءت سوزان لمساعدة أختها. .

ما هي إلا ساعات، حتى استحالت جانيت جثةً هامدة على مائدة التشريح في معمل كلية الطب. . قال الدكتور نوكس:

ـ عزيزي دكتور هارفي ،سأترك لك مهمة تشريح الجثة. . فيلزم أن نوضح للطلبة غداً أسباب فشل الطحال. .

ـ لن أبدأ التشريح، يا دكتور، قبل وصول زميلي باترسون. . هل هي تلك الجثة المغطاة بالقماش الأبيض؟

ـ أجل، إنها لفتاة في العشرين. . هكذا قال لي جورج هير. . لست أدري من أين يأتي هذا اللعين بالجثث؟

ـ من القبور طبعاً!

ـ على كل حال، لولا جورج هير هذا، لما استطعنا التدريس.. غدت الجثث عملةً نادرة.. أودعك يا هارفي.. عسى أن يوافيك باترسون في وقت مناسب لتشرعا في التشريح..

● حضر باترسون، طبيب شاب له جولات في عالم النساء، وبعضهنّ من بائعات الهوى.. بادره هارفي بالقول:

ـ هيا يا باترسون، لنبدأ التشريح.

ـ أين الجثة؟

ـ على الطاولة قرب النافذة المغلقة.

ـ تلك المغطاة بالقماش الأبيض؟

ـ أجل.

وحالما أزاح القماش عن الجثة، أصيب بالدهشة، وأخذ يصيح..

ـ يا إلهي.. هارفي! تعال بسرعة!

ـ ماذا هناك؟

ـ انظر.. هل تعرف صاحبة هذه الجثة؟

ـ يخيّل إليّ أنني رأيتها مرة في شقتك!

ـ بالطبع.. هذه جانيت براون.. لا أحد في أدنبره لا يعرفها.. جميع الفنانين التشكيليين يعرفونها.. فهي تقف عارية أمامهم ليرسموها.. يا إلهي! أيُعقل أن تموت وهي في ريعان الشباب؟

ـ ربما هو حادث!

ـ لا أدري! أنظر إلى الكدمات على وجهها وذراعيها.. وهذه العلامات المثيرة على رقبتها.. هارفي، في الأمر جريمة! ويجب ألا نسكت عن ذلك!

ـ باترسون، إنكِ تعرّض الدكتور نوكس لأخطار لا داعي لها!

ـ يا إلهي.. من قتل جانيت الجميلة المسكينة؟

ـ لا مفرّ من السؤال عن مصدر الجثة؟ إنه من يبيعنا الجثث!

ـ المهم أن نتقي الشرطة قدر الإمكان!

ـ يتوقف هذا على ما سيقوله لنا جورج هير!

□ □ □

ما إن واجه دكتور باترسون جورج هير بشكوكه، حتى صاح الرجل الرعديد الجبان.

ـ إنهما سوزان وماري عليهما اللعنة.. لقد قتلاها رغم اعتراضي!

وانطلق التحقيق. كانت النتيجة ستاً وعشرين جثةً، رجالاً ونساءً قتلوا بعد تخديرهم خنقاً بأيدي جورج هير وسوزان وماري الاسكتلنديين..

لقي الثلاثة عقابهم شنقاً.. وسرعان ما شقّت جُثثهم طريقها الطبيعي على طاولة التشريح في كلية الطب في أدنبره!

كارتــوش..
صعلوك فرنسي إنما بطل شعبي!!

ـ الأيدي في الهواء، مِن فضلكم. . لا تقاوموا، فلا يقتل منكم أحد. . أخرجوا كل ما في جيوبكم. . بواتو. .

ـ أجل يا كابتن. .

ـ فتّش وفرقتك العربات كلها. . بعض هؤلاء السادة يفضّلون إخفاء ما معهم تحت الوسائد. . هيا بسرعة. . السيدات يخلعن ما عليهن من حُليّ ومجوهرات ويضعنها في هذه القبعة. . والرجال يفعلون الشيء نفسه، ويضعون ما بحوزتهم في القبعة الأخرى. .

ـ سيدي، في العربة الأولى يختبئ أحد الرجال. . يبدو أنه كونت أو ماركيز. . يختبئ تحت المقعد رافضاً تسليمي خواتمه والقلادة التي حول عنقه.

ـ الحلّ البسيط، يا بواتو. . إقطع عنقه وأصابعه!

□ □ □

● لعل القارئ يظن أن هذا حادث سطو مسلّح على طريق مهجور. .

المكان فرنسا. . الزمان مطلع القرن الثامن عشر! والكابتن زعيم العصابة هو كارتوش. . لويس دومينيك كارتوش، أعتى صعلوك في أوروبا بأسرها آنذاك.

● يفوق ما كتبه عنه شعراء عصره في فرنسا، ما نظموه عن لويس الرابع عشر، الملك الشمس، أعظم ملوكهم قاطبة. .

أغرقوا **كارتوش** بالمديح، وأثلجوا قلوب الشباب والفتيات على وجه الخصوص إعجاباً به، وبشجاعته الفذة، وبمغامراته التي تلهث الأنفاس مع أحداثها. . ورغم أنه لم يكن إلاّ صعلوكاً قاتلاً فاتكاً، ظريفاً خفيف الدم، فهو قاسٍ كالسيف البارد!

● دخل تاريخ الجريمة من أوسع الأبواب!

حتى اليوم تُؤلف الكتب عن حياته، وتخرج الأفلام عن مغامراته، آخرها فيلم لجان بول بولمندو، يقول مخرجه:

«رغم كل جرائم كارتوش، فهو جاهد في إعادة ميزان العدالة إلى اتزانه. . يعيد إلى الفقراء المسحوقين بعض ما سرقه منهم الأغنياء المترفون الوارثون. عاش كارتوش في عصر الظلم الأسود الذي لم ينته إلا باندلاع الثورة الفرنسية. . مختصرُ فلسفته، «خذ من الغني ولو بالقوة، لتُعطي الفقير». . ألا يبرر هذا بعض آثامه».

وإذ قيل لمُخرج الفيلم: إنك تُروّج لفيلمك، أجاب:

«كلا. . لا شيء يبرّر إراقة الدم واقتحام البيوت على أصحابها بالسلاح ليلاً، وترويع الآمنين في الطرق العامة، وسرقة المال الخاص».

وقد فعل كارتوش هذا كله، وبأبشع الأساليب!

● غير أن مؤرخه الأستاذ هنري روبير، لا يدافع عنه بأسلوب مخرج الفيلم. فللمؤرخين أساليب أخرى، علمية واجتماعية.. حيث يكتب:

«كانت تلك فترة التناقضات الاجتماعية المثيرة.. الثراء المفرط يجاور الفقر المدقع.. باريس الثرية تعيش في رفاهية وقحة.. وباريس الفقيرة تموت جوعاً.. تموت فعلاً لا مجازاً.. كارتوش وسواه من عُتاة المجرمين هم إفرازات باريس الفقيرة».

كارتوش هو ظاهرة تاريخية نفسية.. مصدرها بداياته الأولى في الإجرام بتأثير الفقر المدقع الذي لفّ باريس الفقيرة.. فولدت هذه الأساطير والحكايات عن **كارتوش** التي لا يزال أهل باريس يتناقلونها! عن كرمه، وإنسانيته، ونبله! وهذا الكم العجيب من الأشعار التي كُتبت في تمجيده! لا تزال بعض الأسر الباريسية حتى الآن تدلّل صبيانها الواعدين باسم **«كارتوش»**!

● أما سبب هذا التناقض، فيبرره المؤرخ قائلاً:

«مردّه أن كارتوش كان فعلاً مزيجاً عجيباً من الرقة والقسوة، ومن الخسّة والنبل، من الإنسانية والوحشية.. وما يروى عن مزاياه الطيبة يدفع الكثيرين ــ لا سيما النساء ــ إلى غفران جرائمه الشيطانية، أو بعضها على الأقل».

ولعل أكثر المغامرات الطيبة رواجاً بين الناس حتى اليوم، ما حدث قبل وقوعه في أيدي العدالة بأربعة أعوام.. ذات ليلة كان يسير قرب قنطرة «نوف» على نهر السين.. لمح رجلاً في الأربعين يوشك على الإلقاء بنفسه في الماء فوق سور القنطرة.. أسرع نحوه..

ــ لا تفعل هذا أيها الرجل.. هل أنت مجنون؟

ــ دعني أيها السيد..

ـ [مرحاً] هذا الطريق يؤدي إلى الجحيم. . هل تعرف ذلك؟

ـ أريد أن أموت. . ولماذا أعيش؟ يستوي عندي أن أذهب إلى الجحيم أو إلى الجنة. .

ـ لماذا يا صديقي. . هل قتلت أحداً؟ هل خانتك زوجتك؟ هل هربت ابنتك مع ابن الجيران اللص؟

ـ بل أفظع يا سيدي.

ـ هيا. . عد إلى بيتك، وخذ قسطك من النوم. . فمتى بزغ الصباح، أدركتَ أن لكل مشكلة حلاً. . أما الموت فلا حلّ له. .

ـ يا سيدي. . لا حل مشكلتي إلا الموت. . وإنني أؤثر الموت على فقدان الشرف.

ـ لعلك في هذا على حق! ومع هذا فاحكِ لي حكايتك، لعلني أستطيع أن أعاونك. . فإذا فشلت، فدونك الماء. . لن أمنعك عندها من مقابلة إبليس في الجحيم!

ـ كما قلت لك مشكلتي لا حل لها. . أنا تاجرٌ ذو سمعة طيبة في عالم التجارة، الجميع يثقون في أمانتي. . اقترضت على أمل أن أرد القروض من مكاسبي، وقد كنت أفعل هذا دوماً. . لكنني تعرضت لخسارة فادحة. . تكدّس للدائنين في ذمتي سبعة وعشرون ألفاً من الفرنكات الذهبية. .

ـ يا إلهي. . أنت تاجر كبير إذن. . وتريد أن تنتحر؟ ستعوّض خسارتك دون ريب.

ـ لا أمل في هذا!

ـ ولم لا؟

ـ لأن المحكمة حددت لي أسبوعاً لإيفاء ما عليّ من ديون، وإلا قضت بإفلاسي.. لهذا، أفضل أن أموت على أن أعيش مجللاً بالعار.

ـ في هذا صدقت.. ولكن من يدري.. لعل بمقدورك تحاشي الإفلاس والموت معاً.

ـ واأسفاه يا سيدي.. هذا مستحيل.. لا بد من أن ألقي بنفسي في ماء السين.. والآن هل تسمح وتدع ذراعي كي أعتلي السور؟

ـ ما دمتُ قد تصدّيت لإنقاذك من الموت، فلا مهرب لي من إنقاذك من إشهار الإفلاس أيضاً.

ـ هذا مستحيل.. من أين لك مثل هذا المبلغ الكبير؟ ثم لماذا تفعل هذا إلا إذا كنت تريد أن تزيد من عاري سخريةً مني!

ـ أطعني أيها السيد.. عد إلى بيتك وسأدفع ديونك في الغد.

ـ سبعة وعشرون ألف فرنك؟

ـ ذهباً!

ـ أنت مجنون!

ـ ربما.. إذهب واحظ بنوم هادىء.. مساء الغد، استدعِ كل دائنيك إلى البيت ومعهم وثائق الدين.. سأوافيك هناك ومعي المبلغ.

ـ ولماذا في المساء يا سيدي؟!

ـ أعتقد أن أسئلتك الكثيرة هي سبب إفلاسك.

ـ على الأقل أذكر لي اسمك.

ـ سانتا كلوز.

ـ لا تسخر مني أرجوك.. لا أصدق أن ثمة في باريس من يفعل ما تدّعي..

ـ إسمع إذا كنتُ أسخر منك فلن تخسر شيئاً.. تعال إلى هنا مساء الغد وألقِ بنفسك في النهر.. ستكسب على الأقل يوماً آخر من حياتك..

ـ سيدي، لو أنك صادق في عزمك فلست أدري كيف أشكرك.. لقد أنقذت حياتي من الموت غرقاً على الأقل.. والباقي غداً مساء.. إلى اللقاء.. ولكنك لا تعرف بيتي أيها السيد!

ـ [ضاحكاً] إطمئن.. سأعرفه بكل تأكيد.. لا شيء تستعصي معرفته على كارتوش.

□ □ □

مساءَ اليوم التالي تقاطر الدائنون على بيت التاجر المدين..

ـ إلى متى ننتظر هذا الرجل الذي سيدفع ديونك.. لقد حكيت لنا قصتك معه بالأمس، أكثر من عشر مرات.. طال انتظارنا..

ـ لا أصدق هذه الحكاية.. أي مغفل هذا الذي يدفع ديونك الباهظة من دون مقابل؟

ـ هل ستزوجه ابنتك؟

ـ لا بنت لي.

ـ ربما ستطلّق زوجتك ليتزوجها بعدك!

ـ زوجتي ماتت منذ عامين!

ـ هيا أيها السادة. . هذه قصة خرافية. . لقد طال مكوثنا، ولم يحضر أحد. .

ـ [داخلاً] مساء الخير أيها السادة. . يؤسفني أنني تأخرت عن الموعد. .

ـ يا إلهي. .جئت أخيراً يا منقذي. . هل معك المبلغ؟

ـ أجل في هذا الكيس. . أُفرغه أمامكم على المنضدة. . سبعةٌ وعشرون ألف فرنك ذهباً!. . والآن. . خذ من كلٍ من دائنيك إيصال الدين وادفع له حقّه. .

● طالت عملية تسوية الحسابات وكارتوش جالس يحتسي الشراب. . وانتهت الجلسة الحسابية، وتقاضى كل دائن حقه، وحصل التاجر على إيصالات الدين.

ـ بالمناسبة أيها السيد. . لماذا تبرعت بدفع دين صاحبنا هذا؟ المبلغ كبير جداً. . لا شك في أنك تنوي مشاركته تجارته!

ـ كلا أيها السادة. . كل ما في الأمر أنني لا أحب رؤية رجل يموت أمامي. .

ـ ما اسمك أيها السيد الكريم؟

ـ سيدي لو عرفت اسمي، لترددت كثيراً في مشاركتي الشراب. .

ـ من ثيابك الأنيقة هذه أستدلّ أنك مساعد وزير المالية مثلاً!

ـ أنا أساعد وزير المالية كما تقول، إنما بطريقتي الخاصة!

□ □ □

● وانتهت السهرة قرابة الفجر.. وانصرف الدائنون سعداء.. ساروا جماعة في الشارع يضحكون ويثرثرون.. وفجأة..

ـ آه.. السيد الكريم مرة أخرى.. هل كنت تتبعنا أيها السيد؟ لقد تركناك مع صاحبنا المحظوظ الذي سددت له دينه..ومن هؤلاء الذين معك؟

ـ هؤلاء أعواني أيها السادة.. سيقومون باستعادة ما أخذتم من أموالي.. كانت سبعة وعشرين ألف فرنك ذهباً..

ـ يستعيدونها؟ ما معنى هذا أيها السيد؟

ـ لا شيء سوى أنني عدلت عن فكرتي السخيفة في بعثرة مالي على أمثالكم.. بواتو.. خذ ما معهم من مال.. ولا تنس الخواتم الذهبية والقلائد.. إذا قاومك أحد، فاذبحه على أرض الشارع.. أسرعوا أيها الرجال، فقد أوشك الفجر على البزوغ، وأنا أريد العودة إلى داري لأنام!

□ □ □

● القصائد التي لا يزال أهل باريس ينشدونها في مدح كارتوش حافلة بأخبار شهامته مع النساء، وإعجابهن به.. لكن مؤرخه يقول:

«الكثير منها زائف.. بعضها فقط حقيقي.. ولا ريب في صحة ما وقع بينه وبين الماركيزة دي بوفييه من غرام على أية حال.. هي ماركيزة من أشهر نبيلات فرنسا، وهو وسيم رقيق الكلمة.. وشاعر أيضاً».

أما كيف تعرف إليها، فكان ذلك في الفترة التي ضيّقت أثناءها الشرطة الخناق عليه وعلى عصابته، وطاردته في كل أنحاء فرنسا.. هرب من الشرطة إلى مدينة سوانسون، فاضطر ليلاً إلى دخول قصر الماركيز دي بوفييه، بحيث تسلّق الشرفات ودخل مخدع الماركيزة الجميلة وهي تستعد للنوم.

ـ [في دهشة] ما معنى هذا أيها السيد؟ كيف تتسلل إلى مخدعي هكذا وأنا لا أعرفك. .

ـ معذرة يا سيدتي الماركيزة. . أنت تعرفينني دون ريب، أو على الأقل تعرفين اسمي. . أنا لويس دومينيك كارتوش. .

ـ وماذا تريد يا سيد كارتوش؟

ـ لا شيء. . الشرطة تطاردني. . إنما يصعب أن يخطر ببالهم تسلّلي إلى قصرك. . لا مفر من قضائي الليل هنا إلى الفجر.

ـ أين شهامتك؟ تقضي الليل في مخدعي؟

ـ اطمئني يا سيدتي. . رغم أن جمالك يفتن العابد. . أقسم أن أبقى تحت قدمك كالكلب الأمين. . لكني جائع. . وأشتهي النوم العميق. . أرجوك ألا تحاولي الصراخ أو استدعاء الخدم. . فرجالي في المزرعة القريبة، ولن يتورعوا عن الدخول في معركة انتحارية مع رجال الشرطة إذا لزم الأمر.

ـ ماذا تريد إذن؟

ـ أريد أن آكل وأنام في أي مكان. . على أرض هذه الغرفة. .

ـ سأستدعي خادمتي كوستين لتدع لك غرفتها!

ـ كلا أرجوك. . إستدعيها، إنما ليس لتخلي لي غرفتها. . سأختفي وراء الستار ولتطلبي منها أن تعد لي عشاء مناسباً.

ـ إنك جريء!

ـ أنا كارتوش يا سيدتي الماركيزة. . لم تسألي عن الأصناف التي أحبها في عشائي؟

ـ اطلب ما تريد. .وبحق السماء دع المسدس في جيبك فلن أصرخ. .

ـ مجرد ضمانة. . حتى لا تحدّثي خادمتك بأمري وأنا وراء الستار.

ـ حسناً. . ماذا تريد أن تأكل؟

ـ لحوماً. . وتشكيلة من الجبن. . وشيئاً من النبيذ!

● وأكل. . وشرب. . ونام. . بل أطال المقام إلى ليالٍ أخرى!

□ □ □

● أحبته الماركيزة حباً جمّاً. . وبسبب هذا الحب، رفض لويس الرابع عشر أن يدعوها وزوجها إلى حفلات القصر. . كانت الماركيزة هي الوحيدة التي حاولت إنقاذ كارتوش من الإعدام في مغامرة لا تقل إثارة عن مغامرات كارتوش نفسه!

لكنه أعدم عام ١٧٢١ ليجعلوا منه أسطورة فرنسية لا تقل فروسيةً عن تلك الأساطير التي يتناقلها العرب حول صعاليك عصر الجاهلية! وهي ليست بعيدة عن حكاية روبن هود الشهيرة في الثقافة الإنكليزية!

الفصل الثالث والأربعون

كم هي جميلة..
وكم هي عريقة في الإجرام

ظاهرة الجرائم المروعة موغلةٌ في القدم، وهي ذات وجوه متعددة. ومن أغرب ما صادفني في رحلة البحث عن أبشع الجرائم في التاريخ، ما ارتكبته الماركيزة دي برانفلييه، ما جعلها تغدو إحدى أفظع المجرمات ـ حسب تصنيف علماء الاجتماع ـ لأن ضحاياها كانوا من أقرب الناس إليها، كوالدها، وأشقّائها الثلاثة، والعشرات من أصدقائها وصديقاتها.

• تُوفي شيفالييه دي سانت كروا في أحد أيام كانون الثاني/يناير عام ١٦٧٢ في منزله في باريس. لم تكن الكونتيسة تتوقع موته بهذه السرعة، فهو عشيقها الوحيد الذي دامت علاقته بها على ما يرام، إلى أن دسّت له السمّ. توقّعت أن يموت بعد شهر على الأقل! فعشيقها الجديد بريانكور، الذي استقدمته مربّياً لأطفالها، قتلهم جميعاً بناء على تعليماتها، كيما تخلو لها الحياة معه دون إزعاج.

فور موت شيفالييه دي سانت كروا، دخل عليها عشيقها الجديد بريانكور يرتجف هلعاً ورعباً، ويردد:

ـ مات شيفالييه . .

ـ مات دي سانت كروا ؟ . . ماذا عن الصندوق؟

ـ نقله مدير الشرطة، بعدما فحص الطبيب الشرعي الجثة، وتأكد أن هناك اشتباهاً جنائياً في وفاته!

ـ [صارخة بهلع] أضعتنا! . . أيها الغبي لماذا لم تحاول إخفاء الصندوق ؟ لماذا لم تسرقه؟ أريد منك الآن شيئاً واحداً، ويجب أن تفعله!

ـ ألم أنفّذ كل تعليماتك؟ ألم أقتل أباك وأخويك، وابنك وابنتك بالسم الذي أعددتِه لقتلهم؟ ثم تأتين الآن وتطلبين مني شيئاً واحداً؟ وما هي أهمية هذا الصندوق الذي جعلك تتناسين حبي الكبير لك؟

ـ أريدك أن تسرق لي الصندوق من مدير الشرطة!

ـ لا أستطيع الاقتراب من هذا الرجل!

□ □ □

وإذ يئست الماركيزة من إقناع عشيقها بمغامرة سرقة الصندوق، رسمت خطة لإغراء مدير الشرطة بيكار حتى يقع في حبائلها، فتتمكن من الحصول على الصندوق.

لكن محاولتها باءت بالفشل. فمن ناحية، مدير الشرطة كان مخلصاً لعمله، ومن ناحية أخرى، لم يكن ممن يتذوقون الجمال، فأبى أن ينساق وراء غوايتها. ولكنه لاحظ شدة اهتمامها بأمر الصندوق، فسألها عمّا بداخله. تظاهرت بالسذاجة، قائلة :

ـ كيف يتسنى لي أن أعرف ما بداخله، وأنا قد قطعت علاقتي؟..

ـ إن محتوياته تقول غير ذلك يا ماركيزة! ففي الصندوق ثلاثة صكوك تحمل توقيعك، إلى جانب بعض الزجاجات الصغيرة التي تحتوي على سوائل مختلفة الألوان!

فتضحك الماركيزة بخلاعة، وتقول لبيكار، بلهجة مغرية:

ـ إذا تكرمت وحضرت إلى منزلي الليلة، ويكون الصندوق بحوزتك، سأشرح لك كل شيء ونحن بمفردنا!

لكن مدير الشرطة يجيبها بحزم:

ـ سأكون بانتظارك غداً في مكتب وكيل النيابة.. إلى اللقاء يا ماركيزة.

□ □ □

● بعدما أيقنت الماركيزة دي برانفلييه أن مدير الشرطة فوق الإغراءات التي حاولت استدراجه بها، رسمت خطة للفرار من باريس إلى لندن. إنما قلقت وخشيت من وشاية بريانكور بخطة فرارها، فطردت تلك المخاوف من ذهنها لأن بريانكور نفسه غارق في الجرائم، مثلها، حتى النخاع، ولذا لن يجرؤ على الكلام!

.. ولما تأكد فرارها لمدير الشرطة، قرر التوصّل إلى كشف الدوافع. فتوفرت لديه جملة من الحقائق كانت شكوكاً في السابق، فثبّتتها عملية الهروب.. تقدم إلى النيابة بمذكرة احتوت على النقاط التالية:

١ ـ الماركيزة دي برانفلييه هي من وشت بأبيها، فزُجّ في السجن، لأنه كان يعارضها في علاقتها المريبة بشيفالييه دي سانت كروا (المتوفى).

٢ ـ والدها هو الآخر مات في ظروف غامضة. ورغم أن تقرير التشريح الجنائي لم يُشر إلى أي أثر للسم، فخبراء المعمل الجنائي أعطوا بعض الحيوانات والطيور جرعات مما في الزجاجات التي عُثر عليها في ذلك الصندوق. نفقت الحيوانات والطيور .. وعندما تم تشريح أجسامها، لم يُكتشف أي أثر للسم!

٣ ـ إذاً، ما هي الصلة بين وجود الزجاجات في الصندوق، والصكوك الثلاثة التي تحمل توقيع الماركيزة، علماً بأن الصكوك تتضمّن اعترافاً منها باستدانة مبالغ كبيرة من شيفالييه دي سانت كروا؟

٤ ـ لماذا كانت تستدين من شيفالييه، وهي الثرية المرفهة؟

٥ ـ توصلنا إلى معرفة السر الأول الذي يربط بين الصكوك الثلاثة وما تحتويه الزجاجات من سوائل، نظراً إلى وجود علاقة مباشرة بوفاة شيفالييه.

٦ ـ من الممكن، حالما نصدر أمراً بإلقاء القبض عليها في لندن، ليتم التحقيق معها هنا في باريس، أن نتوصل إلى تلك الظروف المريبة التي أدت إلى موت أبيها وأخويها، وابنها، وابنتها، والعشرات من عشّاقها وأصدقائها وصديقاتها.

□ □ □

وبينما كانت الإجراءات تُتخذ لإلقاء القبض عليها في لندن، وترحيلها منها إلى باريس، عُثر على جثة بريانكور متعفنة في بيته. وكما هو معروف، كان آخر عشّاقها ممّن سحرتهم بأنوثتها وجمالها الأخّاذ، فانساق كالأعمى وراءها، ونفّذ كلّ ما كانت تطلب منه أن يفعل.

غداة تشريح جثته، لم يكتشفوا أثراً للسم سبباً لوفاته، ولكنهم وجدوا رسالة في

جيبه عنوانها «إعترافات رجل ضائع»، موجّهة إلى مدير الشرطة السيد بيكار، هذا نصّها:

«سيدي مدير الشرطة: ما إن تصل إلى نهاية هذه الاعترافات، حتى تعرف أن الماركيزة دي برانفلييه لن تدعني على قيد الحياة! لأنني الشاهد الوحيد على كل جرائمها. . أسرع يا سيدي بإلقاء القبض عليها، وكن على ثقة بأنها قتلتني بالسمّ نفسه الذي لا يعرف سره سواها وعشيقها السابق شيفالييه دي سانت كروا. . بالمناسبة، هو العشيق الوحيد الذي أحبته بصدق، ومع ذلك قتلته».

وكانت اعترافات بريانكور مفصلة وشاملة. .

□ □ □

● أُلقي القبض على الماركيزة في لندن، وسيقت إلى المحكمة. . وعندما ناداها القاضي:

ـ أيتها المتهمة.

قاطعته بسخرية. .

ـ إنني الماركيزة دي برانفلييه، ويجب أن تعاملني بما أنا جديرة به من التقدير والاحترام!

ـ حسناً يا ماركيزة دي برانفلييه. . سمعتِ اعترافات صديقك بريانكور. .

ـ لم يكن بريانكور صديقي. . كان يتمنى ذلك، ولما عجز عن تحقيق أمنيته، انتحر بالسم، بعدما كتب هذه الاعترافات الكاذبة انتقاماً مني. . !

ـ لقد اعترف بأنه قتل أباك بالسم الذي زوّدته به بتعليمات منك. .

فقاطعته بحدّة، وصاحت:

ـ أثبتوا ذلك بغير تلك الاعترافات الكاذبة التي بين أيديكم!

ـ ألم تطلبي إليه أن يقتل ابنك وابنتك، لمعارضتهما خيانتك لزوجك مع بريانكور أمام الخدم؟

ـ جيئوني بخادم واحد يشهد على ذلك..

ـ ماتوا جميعاً في ظروف غامضة، ومتشابهة!

فأجابته بسخرية واستهتار:

ـ إن استطعتم إعادتهم إلى الحياة ليشهدوا ضدي، فافعلوا!

عند هذا الحدّ، نفذ صبرُ القاضي، فصاح بها:

ـ يا ماركيزة دي برانفلييه، كنتُ من أشد القضاة رغبةً في إلغاء مادة التعذيب، وأحمد الله على أنها لم تُلغ قبل محاكمتك. أجد نفسي الآن مضطراً لتسليمك إلى لجنة التعذيب، وهذا هو السبيل الوحيد لبلوغ الحقيقة كاملة عن الجرائم التي ارتكبتها..

ـ كلا.. لن أسمح لأحد بتشويه جمالي، وأرفض الخضوع للتعذيب!

ـ ثم أخذت تبكي وقالت: سأعترف بكل شيء!

□ □ □

باحت الماركيزة للمحكمة بكل جرائمها، معترفةً بعدم وجود شركاء غير شيفالييه،

وعشيقها الأخير بريانكور. كما شرحت تفاصيل أثارت اشمئزاز الفرنسيين ممن كانوا يتابعون تلك القضية!

أما السمّ الذي كانت تستخدمه في قتل ضحاياها من دون أن يترك أثراً في الجسم، فكان مزيجاً من ماء النار والزرنيخ، وسائل آخر كانت تستخرجه من نوع معين من الضفادع! لاقت الماركيزة دي برانفلييه مصيرها المحتوم، بعدما ولجت تاريخ الجريمة من أوسع الأبواب!

القسم السادس

أمكنة وأشياء

القلادة التي كانت
هدية شارلمان لهارون الرشيد

عام ٧٩٢م، أرسل الملك الأوروبي شارل الأكبر، الشهير بشارلمان، وفداً إلى هارون الرشيد، الخليفة العباسي الأشهر، ليلقي أمامه الخطاب التالي:

«أيها الملك العظيم، أرسلَنا مليكنا شارلمان الكبير، ملك الجرمان والإفرنج واللاتين، بهذه الهدايا تعبيراً عمّا يكنّه لعاهل الشرق العظيم، من صداقة ومودة مع شكره الفيّاض لما تكرّمتم به من هدايا سابقة، ويخصّ بالذكر الساعة الدقّاقة المعجزة، وأدوات لعبة الشطرنج المثيرة للعجب».

□ □ □

● ويُكرم الخليفة العربي وفادة البعثة الأوروبية.. فإذا اختلى بزوجته قال:

ــ هذه يا زبيدة أجمل ما في هدايا الملك الأوروبي إليّ.. وقد وهبتها لأجمل سيدة في بلاد العرب! أنظري إليها.. أليست جميلة رائعة؟ دعيني أراها تحلّي جيدك..

ـ كلا يا أمير المؤمنين. . ثمة في هذه القلادة ما يقبض القلب. . ألم تشعر بهذا؟

ـ أوهام يا زبيدة. . أوهام. . دعيني أراها تحلي جيدك.

ـ لا يا أمير المؤمنين. . لن أرتديها لما داخلني منها من توجُّس وخوف. . من يدري. . لعل ذلك الملك أمر بعض رجاله بأن يضرب عليها السحر لينال منك. .

ـ الرجل صديقي يا زبيدة. . وقد تبادلنا الهدايا، وبيني وبينه معاهدة صداقة وودّ. . وما جاء ذلك الوفد إلا لنتفق على موعد نتقابل فيه ونُحكم عُرى الصداقة بين أوروبا وبلادنا! ألا تُسعدين قلب بقبولك منه هذه القلادة التي لم أر شبيهاً لماساتها وأحجارها الكريمة من قبل؟

ـ أعذرني يا أمير المؤمنين. . سأضمّها إلى سائر ما أمتلك من حليّ وجواهر، ولكنني لا ألفّها حول عنقي ما عشت، لما داخلني منها، ولما فيها من نقوش تتنافى وعقيدتنا الإسلامية!

● تأمل هارون الرشيد القلادة الجميلة المتقنة، ورأى بين ماساتها والإطارات الذهبيةَ حولها، نقوشاً ورسوماً تتنافى والعقيدة الإسلامية. . فطرحها مهملةً.

خشيت السيدة زبيدة أن تمتد إليها يد الخدم بالسرقة، فوضعتها في مكان آمن، بمعزل عن باقي حُليها ومُقتنياتها الثمينة من الماسات والأحجار الكريمة. .

● ومن بغداد بدأت رحلة القلادة الساحرة المسحورة، تجلب في كل خطوة من خطواتها سوء الطالع على كل من لفّها حول عنقه. .

من عام ٧٩٢م حتى عام ١٩٤٥، وهي تؤدي دورها الأسود باللعنة المصحوبة بلمعة ماساتها وبريق أحجارها الكريمة. .

إنما أين هي الآن؟ وما حقيقة لعنتها؟ ومن هم ضحاياها من كبار الرجال وشهيرات النساء؟ يحدّثنا عن الأمر هيرمان فون شولز، مدير متحف برلين حين ضاعت القلادة المسحورة.. فيكتب:

«**سُرقت.. نعم. ولم تظهر حتى يومنا هذا مذ سرقت!..** كنا نحفظها في صندوق زجاجي فُرضت عليه حراسة مشددة في قاعة المجوهرات الأثرية في متحف برلين.. ثم اختفت من صندوقها قبل سقوط برلين في أيدي الروس عام ١٩٤٥.. لا أدري كيف سُرقت.. جلّ ما أذكره أننا دخلنا ذات يوم من شهر آذار/مارس، فلم نجد القلادة في الصندوق! وبصراحة، أنا أتهم الماريشال غورنغ بسرقة القلادة.. كان يأتي إلى المتحف ويتجه رأساً إلى غرفة القلادة، يقف أمامها معجباً باسماً.. ولطالما لمحتُ في عينيه رغبة ملحّة في الاستيلاء عليها.. لعلّه كان يفكّر في فرط ماساتها وأحجارها الكريمة التي لا تقدّر بثمن.. وأغلب الظن أنه طلبها من هتلر، فرفض أن يجيبه في طلبه، فاضطر إلى سرقتها، بعد أن صبّ عن المفتاح الوحيد للصندوق نسخة استخدمها في فتح الغطاء الزجاجي والاستيلاء على القلادة.. كان ذلك من سوء حظه! لأنها قلادة ملعونة.. ما لفّها أحد حول عنقه إلا مات ميتةً عنيفة.. إنها رحلة سوداء رهيبة تلك التي قطعتها القلادة فوق أشلاء ضحاياها.. وآخرهم غورنغ الذي انتحر في سجن نورمبرغ قبل شنقه كمجرم حرب».

● أما كيف انتقلت تلك القلادة الملعونة، من عام ٧٩٢ إلى عام ١٩٤٥، من حوزة السيدة زبيدة زوجة أمير المؤمنين الخليفة العباسي هارون الرشيد، إلى هيرمان غورنغ نائب الزعيم النازي هتلر، فتلك قصة طويلة ومثيرة.. وقبل أن نلمّ ببعض أطرافها، أصف لكم تلك القلادة..

ثمة في المتحف أكثر من صورة لها، بالإضافة إلى السجلّ الخاص بها، الذي

يحوي أوصافها وأوزان أحجارها، وبعض الغرائب عن رحلتها القاتلة. .

نعتقد أن القائد المغولي هولاكو هو من أمر بصنع سلسلة لها ليهديها إلى زوجة قائده كتبغا، إذ كان على علاقة آثمة بها.

● أما القلادة فعلى شكل نصف كرة، لا يزيد قطرها على تسعة سنتيمترات. وتعتبر الماسة الزرقاء الرئيسية في صدر القلادة والتي تشبه اللوزة الكبيرة، أكبر ماسة من نوعها في العالم، وتتفوق في الحجم والوزن وصفاء اللون وفي الثمن أيضاً، على ماسة «فرجينيا» التي يملكها الملياردير الأمريكي بول غيتي.

وبالنسبة إلى الماسات الأخرى المحيطة بها داخل الإطار الذهبي المنقوش، فهي لا تقل روعةً عن الماسة الكبيرة الرئيسية. . بالإضافة إلى جمال وأناقة الأحجار الثمينة الأخرى التي رُصّعت في الإطار بصياغة بالغة الإتقان. . تتناسق ألوانها كمالاً من الزمرّد الأخضر والبنفسجي النادر، إلى العقيق القرمزي. .

كان أبرع فناني صناعة قطع الألماس، وأشهر صاغة إيطاليا يقفون ساعات أمام الصندوق في المتحف، يتأملون القلادة، مبهورين بجمال الصقل وروعة الصياغة.

يضيف السيد فون شولز، موجِزاً رحلة هذه القلادة في طريق الموت الأسود. . فنعرف أنه بعد موت هارون الرشيد وزوجته السيدة زبيدة، وقعت القلادة في نصيب الأمين. . ساومه أخوه المأمون طويلاً ليحصل عليها لزوجته، فأبى الأمين. . وكان ذلك من سوء حظّه! فلفرط إعجابه بها لا ينام إلا وهي في عنقه. . عنقه الذي قطعه أنصار أخيه! والتاريخ لا ينسى كتاب قاتله طاهر بن الحسين الذي أرسله إلى المأمون:

«كتابي إلى أمير المؤمنين، ورأس محمد الأمين بين يدي، وخاتمه في إصبعي، وقلادته في رقبتي، وجنده تحت إمرتي. . والسلام!».

ولـم يمرّ على ذلك الحادث أكثر من عام إلا وتفعل القلادة فعلها. . إذ يقطع المأمون رأس قاتل أخيه!

● كانت زوجة المأمون الأثيرة قد ماتت. . وهي التي تشهّت القلادة طويلاً، فأهمل المأمون القلادة من فرط حزنه على زوجته. . فضلاً عن مقته التحلّي بالذهب والأحجار الكريمة. . قبعت القلادة في خزانته. . يتوارثها خلفاء بني العبّاس، فما يهديها أحدهم إلى زوجته، حتى ينتهي أمره وأمرها إلى الموت العنيف. . إلى أن حاصر المغول بغداد عام ٦١٧ هجرية (١٢٢٠م). ولـم ير الخليفة الضعيف، المستعصم، إلا أن يخرج، وأمامه نساؤه وبناته، ليستعطف السفّاح المغولي المتربّص بجيوشه المتوحشة أمام أسوار العاصمة العباسية. . فيقول لأتباعه:

«سأرتدي أجمل ثيابي وأتحلى بأثمن ما لدي من حُليّ، ليعرف الملك المغولي قدر ثراء البلاد وعظمة ما سوف يناله مني فداء أهلها، إذا انصرف عن المدينة!».

● فقتله هولاكو، بعدما ذبح بناته ونساءه أمام ناظريه. . واستولى على ماساته وجواهره وحليّه، وما كان في خزائنه من كنوز. . ومن بينها القلادة الملعونة. . أهداها إلى فاستا زوجة قائده كتبغا ليسترضي قلبها. . وإذ علم الأخير بالعلاقة الآثمة بينها وبين الملك، قتلها!

● وانتقلت القلادة إلى مصر.

تقول السجلات إن السلطان قطز وجد القلادة حول عنق القائد المغولي كتبغا حين قتله وشتّت شمل جيوشه الغازية في معركة «عين جالوت». . فما سعد بها حول عنقه أكثر من ستة شهور، فقد تآمر عليه المماليك بقيادة الظاهر بيبرس وقتلوه!

ويوم شاع نبأ مقتل قطز، قال الظاهر بيبرس:

«أنا من قتلته، أيها الأمراء!».

فردّدوا:

«إذاً فأنت يا أمير بيبرس سلطاننا من هذه اللحظة.. إجلس في مرتبة السلطان وتحلّ بخاتمه وقلادته!».

هكذا طوّقت القلادة اللعينة عنق بيبرس.. ولم تزل به حتى أسلمته لأعدائه.. فقطّعوه واستولوا على القلادة.. ما تحلّى بها أحدهم إلا ولقي الموت العنيف: خنقاً، وقتلاً، وغرقاً!

ثم آن أوان الملكة شجرة الدر.. عاشقة قلادة شارلمان.. فماتت ميتةً عنيفة، بـ«القباقيب» وهي في حمّامها!

● ولا أحد يدري كيف وصلت القلادة إلى حوزة لويس التاسع وأسرته من بعده.. أغلب الظن أن الأمير الشركسي توران شاه أهداها إلى مارغريت، زوجة لويس التاسع، حين كان يتردد بين فرنسا ومصر لجمع الفدية لزوجها الأسير في دار ابن لقمان في المنصورة..

لا احد يشكّك في ما حدث للويس التاسع أثناء حملته الصليبية على تونس – كيف أصابه الطاعون، وانفجر بطنه من فرط الورم والانتفاخ!

وتراقصت شياطين السحر بين ماسات القلادة متلمّظة إلى ضحية جديدة! فكانت ماري أنطوانيت.. التي قُطعت رقبتها على المقصلة.. كان الموت بقطع العنق هو نهاية أغلب ضحايا القلادة المشؤومة! ربما لأنها تلتف حول هذه المنطقة الرئيسية من الجسم.. وربما كان ذلك مجرد مصادفات! المهم أنه ما ارتداها رجل أو امرأة، إلا ولقي ميتة عنيفة مدوّية!

وحين تسلّمها نابليون بونابرت، أهداها إلى زوجته جوزفين التي صاحت مرعوبة:

«كلا.. إلا هذه القلادة اللعينة.. لقد علمتُ أن الملكة السابقة ماري أنطوانيت تمتمت وهي تصعد سلّم المقصلة: ليتني استمعت إلى نصيحة ابن الساحر كاليوسترو الذي ألحّ عليّ بفكّ ماسات قلادة شارلمان، وبيعها خارج فرنسا!».

● يتابع مدير متحف برلين، فون شولز، كيف وصلت القلادة إلى برلين:

«بعد هزيمة فرنسا في سيدان عام ١٨٧١، احتلّت القوات الألمانية العاصمة باريس، واستولى قائد الألمان الأشهر فون مولتكه على القلادة.. وكان أبعد نظراً من الجميع.. فأهداها إلى متحف برلين.. وظلّت فيه إلى أن سُرقت في بداية شهر آذار/مارس عام ١٩٤٥»...

□ □ □

● ما مصير قلادة هارون الرشيد التي تلقاها هدية من شارلمان؟

● هل تعمّد شارلمان أن يضرب عليها هذا السحر الأسود لإيذاء أعظم ملوك عصره هارون الرشيد؟

● من هم ضحاياها بعد الماريشال غورنغ؟

● أحقٌّ ما يقال إنها كانت في حوزة الرئيس الأميركي جون كينيدي يوم قُتل برصاصة أصابت عُنقه عام ١٩٦٣؟

حكاية جائزة نوبل

● كثيرة في العالم هي الجوائز التي تُمنح للمبدعين في الحقول الإنسانية.. إنما تبقى جائزة نوبل الأكثر شهرة.. حيث يترقبها الناس على امتداد القارات سنوياً..

تُرى كيف نشأت فكرة هذه الجائزة؟ وما هي الظروف الموضوعية التي جعلتها في هذه المكانة؟

□ □ □

● أكان حظه العاثر في عدم التقائه المرأة التي تبادله مشاعر الحب، سبباً وراء اختراعه المدمر؟ أم كان هو السبب الذي دفعه إلى تخصيص ثروته لمَن ينشر العلم والحب والسلام بين الناس؟

تقول مذكراته الخاصة شيئاً من هذا القبيل، وإن أنكر أهله ذلك بعد موته.

● يقول ألفرد نوبل في مذكراته:

«لا أدري لماذا تحجم الفتيات عني. ليس في مظهري ما يدعوهنّ إلى ذلك الإحجام.. فأنا حسن الهندام.. وقد ورثت وسامةً عن أمي.. لماذا إذاً تنفر مني

الفتيات؟ كنت اليوم مع جارتنا أنيتا في حديقة الملاهي في استوكهولم. . فجأة تركتني دون كلمة اعتذار. . رغم تأكيدها على الزواج مني إذا حصلت على وظيفة مناسبة ». .

سأل ألفرد أخته يوماً:

ـ هل ترين أن أغادر استوكهولم يا سونيا؟

ـ تغادر استوكهولم؟ ولماذا بالله يا ألفرد؟ مكانك هنا مع والدك لتدير معه المصنع. .

ـ والدي ليس بحاجة إلى معاونة أحد. . تأكدت من هذا أمي، حين طلبت منه إطلاعي على أسرار اختباراته لمادة النتروغليسرين، فقال لي:

ـ ليس هذا عملك. إذهب واشغل نفسك بالقصص السخيفة التي تكتبها!

ـ تعرف يا ألفرد أنه لا يعني ما يقول. . كل ما في الأمر أن والدنا مضطرب عصبياً. .

ـ أخشى أن يحدث ما لا يصح وقوعه بين الابن وأبيه. . أعترف بأنه متوتر الأعصاب، ولكني لم أعد أحتمل إهاناته حتى ولو كانت غير مقصودة. .

ـ وماذا ستفعل إذا غادرت استوكهولم؟

ـ سأجد عملاً في إحدى مدارس باريس.

ـ باريس؟ أتريد مغادرتنا إلى باريس يا ألفرد؟

ـ ولم لا؟ أجيد الفرنسية وفي استطاعتي أن أجد عملاً. . وإذا فشلت في التدريس، سأقوم بالترجمة من اللغة السويدية وإليها.

● وهاجر نوبل إلى باريس.. ويشير في مذكراته إلى السبب الحقيقي لهذه الهجرة، وهو ليس خلافه مع أبيه:

«لم يعد بمقدوري رؤية أنيتا ذاهبة إلى الكنيسة وعائدة منها، متعلقةً بذراع الفتى هانز الذي تزوجته.. سأترك لها استوكهولم كلها.. بل السويد أيضاً.. من يدري لعلني أجد في باريس من تحبني وتفضلني على غيري من الرجال! المعروف أن الفرنسيات عاطفيات جداً.. فإذا صدق ذلك، سألتقي في باريس من تقابل عاطفتي بمثلها»..

● وفي فرنسا، حاول ألفرد اجتذاب الناس إليه، يوم كتب رواية، وقصد ناشراً سويدياً قال له بأدب فائق:

ـ يا نوبل، تغير الذوق الأدبي.. لا أحد يقرأ هذه الأيام المآسي العنيفة.. الناس بحاجة إلى قراءة الأدب الخفيف.

● ولم يوفق نوبل في كتابة الرواية أو الشعر، مكث في باريس يبحث عن وسيلة ليقترّب من قلوب الفتيات..

غداة موت والده أضحى ألفرد الوارث الوحيد جرّاء موت أخته.. فعاد إلى استوكهولم وفي ذهنه هدف واحد: تلك الغرفة السرية في الطابق الأرضي حيث كان والده يجري تجاربه على مادة النتروغليسرين.. عكف ألفرد نوبل على دراسة تجارب والده، حتى توصل إلى ما كان يحلم به أبوه: الديناميت!..

□ □ □

● وبينما كان ألفرد متجهاً بتقريره النهائي إلى وزارة الحرب الفرنسية لبيع حقوق الاستعمال (ملكية براءة الاختراع)، التقته الحبيبة أنيتا التي تخلّت عنه وتزوجت هانز..

ـ ألفرد، إنني أعمل صحافية في باريس. بعد ما مات هانز من المناسب أن نكون أصدقاءَ.

ـ أصدقاء فقط؟

ـ فقط، لأنني لا أحسّ مشاعر الحب تجاهك..

ـ إذن، هل سأراك في مسكنك؟

ـ سيسعدني يا ألفرد أن أستقبلك في مكتبي في الصحيفة متى شئتَ.

ـ هل تعلّق قلبك بشخص آخر بعد موت هانز؟

ـ أجل، إنه زميلي في العمل.

ـ فرنسي؟

ـ نعم..

ـ إنني سويدي مثلك يا أنيتا!

ـ الحب لا يعرف الفوارق يا ألفرد!

ـ صدقتِ.. من جهتي، فررتُ من استوكهولم أملاً في لقاء فرنسية تحبني..

ـ أرجو أن تعثر على ضالتك!

ـ دعينا من حديث القلب يا أنيتا.. لنذهب إلى مكتبك. أريدك أن تكوني أول المطّلعين على أحد أسراري الخطيرة!

□ □ □

● في مكتب أنيتا، أخرج ألفرد من حقيبته قارورة صغيرة.

ـ **ما هذا السائل الذي لا يكاد يملأ القارورة يا ألفرد؟**

ـ إنني اخترتك لكي تنفردي بنشر هذا الخبر الخطير.

ـ المهم أن يهزّ القارىء.

ـ سيهزّ الدنيا بأسرها!

ـ ما هو هذا السائل؟

ـ هذا السائل سيزلزل العالم. إسمه النتروغليسرين.. إذا اقتربتِ منه بعود ثقاب، استحال هذا المكان كله حطاماً في لحظة واحدة..

ـ لكني أعرف أن علماء كثيرين يحاولون معالجة النتروغليسرين ليصبح مادة ناسفة.. لا أراك جئت بشيء جديد..

ـ الجديد هو أنني عالجته بطريقة جديدة! جعلته صالحاً للانفجار بمفجّر من اختراعي.. لم يعد مجرد نتروغليسرين الآن.. أعطيته اسماً جديداً: الديناميت.. احفظي الاسم جيداً.. الديناميت!

□ □ □

● وباع ألفرد نوبل حقوق استخدام الديناميت للحكومة الفرنسية بربع مليون فرنك، فأمسى ثرياً.. وغدا وهو في الثالثة والأربعين من أشهر شخصيات أوروبا.. انغمس في العمل، الأمر الذي حال بينه وبين البحث عن الفتاة التي تتوق لها عاطفته.. إلى أن التقى الكونتيسة بيرتا كينسكي.. سويدية رائعة الجمال.. أخذت على عاتقها الاهتمام بشؤونه التجارية والإعلامية..

كانت تخدمه بإخلاص وتفانٍ. . لم يفاتحها بحاجته إلى العاطفة المشبوبة، لعلمه أنها اتفقت مع ابن عمها على الزواج. .

كتب ألفرد في مذكراته ليلة زواج بيرتا كينسكي:

«أشعر أن توتر الأعصاب الذي سبّب وفاة أبي قد انتقل إليّ. . أصبحت لا أحسن التفكير. . كثيراً ما راودتني فكرة الانتحار. . خاصة بعد زواج بيرتا من ابن عمها. . وفوق هذا وذاك، بدأت حوادث الديناميت المخيفة تثير ذعر العالم. . هاجمتني الصحف عقب انفجار صناديق الديناميت في بانما، ما أدى إلى مصرع ٦٠ شخصاً. . وكذلك انفجار ثلاثين صندوقاً من الديناميت في ميناء سان فرانسيسكو. . كما استُخدم الديناميت في كارثة حرب ١٤ أيار/مايو سنة ١٨٦٤. . وإذا بي أصاب بعذاب الضمير، بسبب تطور هذا الاختراع الذي أدى إلى الديناميت الفتّاك».

□ □ □

● اعترى ألفرد نوبل خوف شديد، فهام على وجهه من بلد إلى آخر. . وقد استولى عليه الذهول القاتل. . حتى أطلقت عليه الصحف لقب **«أغنى متشرد في العالم»** لكنه كان عن الصحف في شغل شاغل، لا يفتأ يردد:

ـ ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟! . . لقد أجرمت بحق البشرية! رحمتك يا إلهي! رحمتك! . .

□ □ □

● وتهبُّ الكونتيسة بيرتا السكرتيرة الحسناء، إلى نجدته . .

ـ ألفرد، إنك تقتل نفسك بهذه الطريقة. . لا ذنب لك في ما حدث! إنك لم تصنع الحروب!

ـ أنا صانع الدمار! تاجر الموت! إسمعي يا بيرتا، سأكتب وصيتي محاولاً التكفير عن جرمي. . وسأجعلك المسؤولة عن تنفيذها! أموالي التي تقدّر بملايين الدولارات، سوف أهبها لمن يكرّس حياته في خدمة العلم والسلام والحب في هذا العالم! إني أترك لك يا بيرتا تحديد الشروط والظروف. . وليغفر لي الله ما اقترفته يداي!

□ □ □

● التزمت بيرتا بتنفيذ الوصية، فجعلت من إيراد ثروته السنوي جائزة تحمل اسمه، نوبل، لكل من وهب حياته من أجل العلم والسلام والحب على هذا الكوكب. .

□ □ □

● ونال الجائزة مبدعون من كل القارات. . حيث حصل عليها الشاعر طاغور (من آسيا عام ١٩١٣). وأصبحت هذه الجائزة الحدث الأهم في تاريخنا المعاصر. . إلا أن البعض رفضها لأسباب خاصة، كجورج برنارد شو. . الذي قال مبرراً أسباب رفضه:

«يلقون إليّ بقارب النجاة بعد أن وصلت إلى شواطىء الأمان».

كذلك رفضها جان ــ بول سارتر، وبوريس بسترناك، وغيرهما. .

قصر الكرملين
منذ ألف عام.. مليء بالخرافات والأساطير

● تلك قصة البداية الأولى لقصر الكرملين . . على مدى قرون، والأجراس العملاقة لساعات الكرملين تدوي بأنغامها ليل نهار، معلنة انقضاء الساعة تلو الأخرى . .

هذه القلعة الغامضة . . الثقيلة بأسرارها، هي مفترق طريق التاريخ العالمي . . فوق مبانيها الضخمة تحوم أشباح القياصرة السابقين، وأيضاً أشباح الثوار، ممّن جعلوا من بلادهم إحدى أعتى القوى العالمية . .

● فالكرملين، كان ولا يزال، عقل روسيا المفكر . . فكل شيء خرج من «كُمّه» . . . السلطة . . . العقيدة . . والقرارات المصيرية لكثير من شعوب الأرض.

● يمتزج التاريخ الروسي منذ قرون غابرة حتى يومنا هذا بماضي هذه القلعة الغامض: تطورها، تاريخها الحافل بالاغتيالات المشبوهة . . والتنازلات المريبة عن العرش . . وأحداث اغتصاب السلطة المفاجئة . . وراء أسوار الكرملين أطلق

العرق السلافي العنان لعبقريته . . في الخير وفي الشر، على السواء.

□ □ □

● فلْنغصْ قليلاً في التاريخ للتعرف إلى قصة الكرملين من بدايتها :

الأمير يوري دولغوركي، حاكم منطقة سوزدال الروسية، يتجول في أملاكه الواسعة مع بعض أتباعه برفقة ولده أندريه. . يبلغون منطقة معشبة يشقها نهر تتسكع مياهه بكسل، معابثة زهور الشاطئ الندية. .

يلتفت يوري إلى ولده متسائلاً :

ـ ما اسم هذا النهر الصغير يا أندريه ؟

ـ لست أدري يا أبتِ. . لم أمر بهذه المنطقة من قبل.

ـ لا أحد يهرع لاستقبالنا رغم أنني أرى بيوت بعض الفلاحين، على الضفة الثانية من النهر . . كما أرى قصراً هناك!

ـ أعتقد أنه قصر مالك هذه المزارع التي تقف فيها يا أبتِ!

ـ لا أذكر أن أحداً طلب مني الاستقرار في هذه المنطقة من أملاكي . . من هذا الذي جَسر على إقامة قصر وبيوت لفلاحيه، من دون الحصول على وثيقة تملّك منّي ؟ إذهب وانظر من هذا المغتصب الحقير يا أندريه. .

ـ أمرك يا والدي . .

ـ وجئني به زاحفاً على يديه وركبتيه ليُعفّر وجهه في تراب حذائي، كي أقضي به وبأهله وبفلاحيه.

□ □ □

● ويعود الفتى ومعه رجل في الخمسين، في ثياب أنيقة نظيفة، تنم عن ثرائه ونُبله. لم يأتِ الرجل مع أندريه زاحفاً على يديه وركبتيه كما أمر يوري دولغوركي، بل مثُل رافع الرأس، لا تفارق البسمة الرضية وجهه.. بعدما انحنى انحناءة الاحترام والتوقير للأمير، قال:

ـ أهلاً بك يا صاحب السمو.. لو كنتُ أعلم أنك ستشرفني بهذه الزيارة لكنتُ في استقبالك على مشارف مزارعي!

ـ مزارعك؟ ماذا يقول هذا الرجل يا أندريه؟

ـ لقد أطلعني يا أبتِ على وثيقة تملّك لهذه الأرض ممهورة وموقعة بتوقيع جدي دولغوركي الكبير..

ـ لعلها مزوّرة!

ـ كلا يا أبتِ.. لقد رأيت عليها أختام جدنا الكبير.. وفيها مواصفات المزرعة وحدودها..

ـ حسناً.. ما اسمك أيها الفلاح؟

ـ سيرغي كوتشكو، أخلص رعاياك لك يا صاحب السمو..

ـ حسناً يا كوتشكو.. هل سنظل هكذا نتبادل الكلمات السخيفة، من دون أن تدعونا إلى النزول في قصرك؟

ـ يا صاحب السمو، لا يسعدني شيء قدر تشريفك لبيتي المتواضع، بعدما شاءت إرادتك تشريفنا بهذه الزيارة..

ـ يا كوتشكو، أريدك أن تعلم أن ملكيتك لهذه المزرعة مرهونة بإرادتي، رغم

الوثيقة التي زعمتَ أنك حصلت عليها من جدي الأمير دولغوركي..

□ □ □

● ونزل الأمير يوري دولغوركي حاكم منطقة سوزدال، في ضيافة المزارع كوتشكو الذي أحسن الضيافة .. فأمر زوجته وابنته الجميلة سونيا بالإشراف على الجناح الذي أقام فيه الأمير وولده، كذلك حرص على إكرام ضيوفه ممن كانوا بمعيّة الأمير.

وتحركت أطماع دولغوركي وهو يبصر آيات الثراء والنعمة التي يرفل فيها هذا المزارع وأهله. فقال لابنه:

ـ من أين لهذا الرجل بكل هذا الثراء؟ إننا نأكل في أطباق مذهّبة.. وننام في مخادع كُسيت جدرانها بالحرير .. من أين له كل هذا؟.. أظن أن الرجل يتعاون مع أعدائنا التتار!

ـ أبتِ، الرجل وأهله أبدوا لنا إخلاصاً عظيماً .. وقد سألت ابنته سونيا عن ثرائهم، فعلمتُ منها أن المزارع تدرّ عليهم إيراداً كبيراً بسبب خصوبة الأرض، وعذوبة النهر الذي يشقها .. إنه نهر موسكوفا، أي نهر النعيم..

ـ كيفما كان الأمر .. فهذا الرجل لا يعدو أن يكون واحداً من رعاياي .. وكل ما يملك من أرض ومواشٍ هي من حقي أنا، قبل أن تكون من حقه!

ـ أبتِ، والوثيقة؟

ـ إرادتي هي وثيقة التمليك .. ما رأيك في ابنته سونيا؟

ـ جميلة جداً، وبالغة الرقة والأدب ..

ـ [بصيغة الأمر] **سونيا ستكون لكَ! أما زوجته، فسأتكفل بها وبه .. وإياك أن تسأل كيف يكون ذلك!**

ـ أبتِ، نحن ضيوف الرجل!

ـ نحن أصحاب البلاد، ولا حق لأحد في شيء نريده . .

● وما هي إلا برهة حتى غدر الضيف بالمُضيف . .

أطلق رجاله فقتلوا المالك وسائر من تصدى لحمايته، وسبى زوجته، وأمر بتزويج ولده أندريه بالابنة الحزينة والباكية! . . ثم قال :

ـ لقد عادت الأرض إلى أصحابها الحقيقيين . . أنا الأمير يوري دولغوركي.

ـ أبتِ، وما الفائدة ؟ إذا غادرناها عائدين إلى عاصمة ملكك فلاديمير، تعرضت لغارات التتار، وقد يستولي عليها في غيبتنا أحد المزارعين المغامرين . .

ـ أتحب أن تكون أميراً عليها يا أندريه، وتستقرّ هنا ؟

ـ أجل يا أبتِ . . لعل في هذا ما يخفف عن سونيا ويُطيّب قلبها بعدما حدث لأسرتها ما حدث . .

ـ هي لك . . لكن المزرعة، والقصر، كما هي عليه لن تصمد طويلاً أمام غارات التتار . . سآمر رجالنا فيشيّدوا أسواراً عالية حول القصر، ويملأوا مخازنه بالطعام تحسباً لأي غارات محتملة من جانب التتار . . كما سآمرهم بأن يجعلوا لك من القصر قلعة حقيقية (كرملين) . . كما يُسمون القلاع في «سيبيريا» . . أجل، سيكون لك يا ولدي كرملين خاص بك وبأولادك من سونيا كوتشكو.

□ □ □

● هكذا، شهد التاريخ لأول مرة كرملين روسيا، يوم تم إنشاء تلك القلعة البدائية عند نهر موسكوفا . . ويرجع بعض المؤرخين تلك الحادثة إلى عام ٨٨٢م. إلا أن المؤرخ فيكتور ألكساندروف يعلّق :

ـ بناء القلعة البدائية التي اشتهرت لاحقاً باسم الكرملين، يرجعه البعض إلى عام ٨٨٢. في الأمر تعسف ليس له ما يبرره . . فأسرة روريك التي يزعمون أن أحد قادتها هو من شيَّد القلعة، كانت تقيم جنوب الفولغا، ولم تقترب قط في غزواتها من منطقة **نهر موسكوفا**. . كما أن الأمير يوري دولغوركي الذي اغتصب المزرعة والقصر من صاحبهما سيرغي كوتشكو، مات بعد مولد أول أحفاده من الأميرة سونيا عام ١١٤٩، ما يدفعنا إلى القول بثقة، إن بناء **الكرملين الأول** كان في نهاية عام ١١٤٧، وليس في عام ٨٨٢. ورغم أن أبناء الأمير أندريه **دولغوركي**، هم من استردوا لجدهم القتيل مزارعه وقصره، ظل الكرملين القلعة الحامية لهذه المزارع وذلك القصر في المنطقة التي عُرفت فيما بعد باسم موسكو، نسبةً إلى النهر الذي كان يشقها. . **نهر موسكوفا**. .

لا نعرف الكثير عن منطقة موسكو هذه منذ تأسيسها عام ١١٤٧، حتى بداية القرن الرابع عشر، حين حكم منطقة سوزدال أول من حمل لقب القيصر: القيصر **إيـــان الأول** المشهور بـ«ددكاليتا» أي كيس الفضة . . أما لماذا سُمي بكيس الفضة، فلأنه كان في حاجة إلى استقطاب حب أهالي المنطقة لمصلحته ضد أعدائه التتار. كان يضع في حزام وسطه كيساً مليئاً بالقطع الفضية، يوزعها على الفلاحين في كل قرية ينزل فيها أثناء تجواله في المنطقة . .

كانت عاصمة مملكته آنذاك على بعد مئة وعشرين ميلاً جنوب موسكو الحالية، تدعى فلاديمير. . وكانت قريبة، إن لم نقل ملاصقة، من مستعمرات خان التتار، الذي لم يتوانَ عن الاغارة على المدن الروسية، وسبي النساء، واستعباد الشبان، وهدم الكنائس . . لهذا استجار القساوسة بالقيصر كاليتا وقصدوه بشكواهم . .

ـ يا مولانا، بلغ إلى علمنا أن خان التتار ينوي الإغارة على الأراضي الروسية، ليهدم كنائس فلاديمير، وأن لديه نوايا أخرى . .

ـ مثل ماذا؟

ـ مولانا، لا أجسر على ذكر ما بلغنا . .

ـ تكلم أيها الأسقف . . ماذا بلغكم أنه ينوي ؟

ـ سمعه البعض يقول : عندما نهاجم فلاديمير، سأستمتع بمنظر كاليتا وهو مشنوق على باب قصره . . سنبيع زوجته وبناته في أسواق هضبة المغول الكبرى.

ـ وما الذي تنوون فعله ؟ . . فإن الخان ينفذ كلمته دائماً ؟

ـ مولانا، أصدر أوامرك بنقل كل كنائس العاصمة فلاديمير، ونقل قصرك أيضاً إلى مكان آمن بعيد عن غارات الخان.

ـ الى أين ننقل هذا كله ؟

ـ رأينا أن أفضل مكان لعاصمتنا الجديدة، منطقة موسكوفا.

ـ تقصدون قرب كرملين دولغوركي ؟

ـ أجل يا مولانا . . فقلعة الكرملين تستطيع مقاومة الغزاة، كما أنها بعيدة عن غارات رجال الخان.

ـ إنما ماذا لو نُمي إلى الخان أننا نقلنا عاصمتنا دون إذن منه ؟

ـ لو استأذناه يا مولاي فلن يوافق . .

ـ فماذا لو انتقم منا ؟

ـ دعنا ننقل الكنائس، وأثاث قصرك إلى موسكوفا بسريّة محكمة، حتى إذا علم الخان بفعلتنا، نكون قد أتممنا عملية النقل، وتحصّنّا في أسوار قلعة الكرملين، ونقلنا إليها ما نحتاج من مؤن وسلاح، لتقاوم الحصار الطويل إذا اضطررنا إليه.

ـ أيها الأسقف، لا أحد يستطيع أن يقاوم حصار التتار . . لكني لا أرى غير ما

نصحت به . . أنقلوا كل شيء إذاً إلى موسكوفا بسرية تامة، ولندع النتائج إلى ما سيفعله بنا الخان اللعين.

● يواصل المؤرخ فيكتور ألكساندروف الذي يعدّ كتابه عن تاريخ مدينة موسكو أحد أهم المصادر التي أرَّخت للكرملين، فيقول :

ـ هكذا نقلوا عاصمتهم فلاديمير إلى منطقة موسكوفا. . وظهرت إلى الوجود لأول مرة العاصمة الجديدة موسكو بكنائسها المنقولة من العاصمة القديمة . . أما القيصر كاليتا فأقام داخل القلعة القديمة البدائية الكرملين، وشرع من فوره بتعزيز أسوارها تحسباً للهجوم المرتقب لعدوه الرهيب خان التتار.

□ □ □

● في تلك الحقبة، كان التتار يتوغلون في غاراتهم على أوروبا، ليس فقط حتى العاصمة الروسية القديمة فلاديمير، بل احتلوا زمناً الأراضي الألمانية والفرنسية . . في الواقع، شكّل التتار مصدر رعب لروسيا. . وما كان قيصر روسيا وسواه من ملوك وأمراء شرق أوروبا سوى أشباه وكلاء على أقاليمهم من قِبل الخان، يدورون في فلكه، وينزلون عند أوامره ونواهيه . . كان قيصر روسيا يخرج بنفسه سيراً على قدميه الحافيتين في ثياب بالية، ليكون في شرف استقبال الخان أو مندوبه إذا اقترب من مشارف المملكة . . ولا أحد ينسى كيف أذل الخان أرغون القيصر كاليتا، إذ شاعت الأنباء بأن الخان أرغون يقترب بقواته من مقاطعة كازان. .

فاضطرب القيصر واكتأب، فسألته زوجته :

ـ ما بالك مضطرب ؟

ـ ماذا أفعل يا زوجتي العزيزة ؟ . . يقولون إنه غاضب جداً بسبب ما بلغه عن تحصين موسكو، ورفع أسوار الكرملين . . ماذا أفعل؟

ـ أخرجْ إليه لتسترضيه قبل أن يصل بقواته إلى موسكو . . حاول أن تكسب أطول فترة ممكنة من السلام مع هذا الطاغية، حتى تتم تحصينات العاصمة.

ـ الرجل جبار لا يرحم . . ولا أخشى إلا أن يطالب بتسليمه بناتي رهائن في يديه ضماناً لعدم تحصين المدن الروسية!

ـ كلهن عازمات على الانتحار إذا طلب إليك ذلك . . وسأسبقهن إلى العالم الآخر إذا فشلت في استرضائه بالمال وبغلال البلاد.

● وخرج القيصر كاليتا في أرثّ ثيابه دليل ذله وخضوعه للخان **أرغون** الطاغية . . ما إن مثُل أمامه، حتى تقدم نحوه وفي يديه إناء اللبن، رمز المصالحة والخضوع . .

كان التتري على صهوة جواده ينظر إلى القيصر نظرات نارية حافلة بالوعيد. . وخشي القيصر **كاليتا** أن تهتز يداه فينسكب بعض اللبن، قبل أن يتعطف الخان ويقبل هديته . .

ـ [في قسوة ووحشية] **هل تدرك أيها الرجل ما يتبع قبولي هديتك هذه؟**

ـ [في خضوع] أجل أيها الخان العظيم . . أدرك أنك ستعفو عن خادمك وتصفح عنه، وتُشرفه بشرب هذا اللبن الذي حلبته بيدي من أجلك. .

ـ لقد تعلمت تقاليد أسيادك التتار يا كاليتا، وأتقنت حفظ الدرس . . حسناً . . دعنا نختبر إذا كنت قد أتقنت حفظ كل الدروس ووعيت سائر التقاليد! ماذا يحدث إذا انسكب بعض اللبن على سرج جوادي أثناء الشرب؟

ـ عندها أيها الخان العظيم، يتعين عليَّ أن أُنظف السرج بلساني!

ـ حقاً . . لقد وعيتَ الدرس . . ليطمئن قلبك أيها الرجل، فلن أسكب اللبن

على سرج جوادي . . ليس صوناً لقدرك، بل لأني لا أريد أن تنتقل قذارة لسانك إلى السرج.

ـ إني أشكر الخان العظيم على تفضله بمداعبتي بهذه الكلمات الرقيقة . .

ـ لا أُداعب أعدائي يا كاليتا.

ـ أيها الخان العظيم . . أنا من أخلص أصدقائك . .

ـ أن أُصادق أحاقر الناس أيها الرجل. أنا أقتل أو أعفو. أسمعت؟

ـ أجل أيها الخان العظيم.

ـ وهذه المرة أعفو جزاء خضوعك وذُلّك أمامي، شرط أن تقف على قدم واحدة وأنت تقدم الطعام لجوادي . . بعدها انصرف.

ـ سأفعل أيها الخان العظيم. سأفعل!

□ □ □

● إلى هذا الحد كان السلطان خان التتار يقسو على ملوك وأمراء أوروبا . . ثم تغير الحال بمرور الزمن. فمع انحسار المدّ التتري، وظهور دولة آل عثمان، وتهديد الأتراك المستمر للقسطنطينية، وعلوّ شأن سلاطين آل عثمان، أحسّ ملوك أوروبا المتقاتلون في ما بينهم، بقرب سقوط المدينة التي ترفع علم المسيحية في الشرق، على أيدي الفاتحين الجدد. . وسرعان ما انطلقت أعجب حركة للهجرة عرفها تاريخ أوروبا. فبعد سقوط القسطنطينية، بل قبل سقوطها، وهذا سر غرابتها، تنافس ملوك أوروبا على استضافة الحرفيين ذوي المهارة والبراعة في مختلف ألوان الصناعة، وفي فن العمارة وتشييد القلاع وتحصين الأسوار. . كان نصيب روسيا من هذه الهجرة بفضل القيصرة صوفي زوجة إيفان الثالث، التي

دفعت أجوراً مغرية جداً لهؤلاء الحرفيين، فغادروا بيزنطة أفواجاً إلى موسكو . . وقد أشار المؤرخ **ألكساندروف** إلى طموح القيصرة صوفي التي كانت تردّد دائماً :

ـ أريد أن أجعل من الكرملين قلعة موسكو الحامية، التي لا تجسر أعتى الجيوش على الاقتراب منها . . أحيطوها بسور أشد حصانة من سور الصين العظيم . . واجعلوا من موسكو مفخرة العرق السلافي بأجمعه!

● وضعت القيصرة صوفي تخطيطاً بارعاً لعمليات التحصين، وأحاطت الكرملين بعدد من الأبراج الشاهقة تحمي أسوارها الجديدة المتميّزة عن أسوار الحصون الأخرى المعهودة آنذاك. . يقول المؤرخ ألكساندروف :

ـ لا شك أن تلك الأسوار قد عفا عليها الزمن الآن، وَشُيدت أسوار أخرى غيرها. . لكننا سنراها مجسّمة في متحف الكرملين نفسه. . يدخل روّاد المتحف قاعة كبيرة لمشاهدة نموذج ضخم للكرملين بأبراجه وأسواره وتحصيناته، في عهد **القيصر إيفان الثالث** وزوجته **صوفي**. .

لعلّ مردّ اعتزاز الروس بحفظ تراث الكرملين الذي يصور حِقبه المختلفة، وجود قصة لكل حقبة في الكرملين. . فصوفي مثلاً ـ كما ذكر المؤرخ ألكساندروف ـ قد استعانت بأكثر من مئة ألف عامل على مدى أربعة عشرة عاماً. . من عام ١٤٨٥ إلى ١٤٩٩ . . أما الأبراج فلم يعمل فيها إلا من اشترك سابقاً في تشييد الأبراج حول مدينة القسطنطينية على بحر مرمرة، في مواجهة الدولة العثمانية . . أشهرها برج **السيد المسيح**، المطل على الميدان الكبير الذي ضمَّ تمثالاً عظيماً من البرونز للسيد المسيح . . يضيف المؤرخ :

ـ وبحكم إطلالة البرج على الميدان، اكتسب هذا الأخير شهرة كبيرة في روسيا بأسرها . . اقتضت أوامر القياصرة بعدم مرور النساء في الميدان. . كما توجّب ركوع المارّة في الميدان أمام التمثال . . أما من لا يركع سهواً أو عمداً، فيُجلد

في المكان نفسه مئة جلدة . . وقد ظل هذا التقليد سارياً زمناً طويلاً . . ويذكر أهالي موسكو ما حدث عام ١٨٢١ لرجل انكليزي رفض الامتثال للركوع . . وإذ أمروه أجاب :

ـ أنا لا أركع إلا للصلاة في الكنيسة.

ـ إذا لم تركع جلدناك مئة جلدة!

ـ لن يجسر أحد على الاقتراب مني. سأطلق النار على الفور . . أريد مقابلة سفير بلادي، وهذا من حقي.

ـ قابله إذا شئت بعد أن نطبق عليك القانون . . مئة جلدة . .

● لم يقترب منه أحد وقد استخرج أوراقه. إنه ضابط في جيش صاحب الجلالة ملك بريطانيا وإمبراطور الهند كان **أنطوني هربرت آشفورد** مُصراً على مقابلة السفير البريطاني. فاستُدعي السفير، الذي حاول إقناع مواطنه العنيد بالركوع اتقاء لأزمة سياسية، فأبى الرجل حانقاً على سفير بلاده:

ـ أيُّ إنكليزي أنت أيها السفير ؟ . . كيفما كان إحساسك بكرامة بلادك، فإني إنكليزي حرّ لا أطيع سوى ضميري، الذي لا يسمح لي بالركوع إلا داخل كنيسة!

● نشأت أزمة سياسية أوشكت على إفساد العلاقات الطيبة بين روسيا وإنكلترا . . ولولا حصافة السفير البريطاني الذي ركع نيابة عن مواطنه العنيد، لما تراجع حُرّاس برج السيد المسيح عن جلد الميجور آشفورد مئة جلدة . . فمنذ تشييد ذلك البرج في عهد القيصرة صوفي، لم يرفض أحد الركوع في الميدان . . بل كان المحكوم عليهم بالاعدام يلحّون على سَوْقهم إلى ذلك الميدان للركوع، وتلاوة أدعية التوبة، وطلب الغفران قبل أن يُقادوا إلى منصة الاعدام!

أما أجراس الكرملين التي فاقت ساعة «بيغ بن» وكنيسة «نوتردام» شهرةً، والموزعة على أطراف الميدان، فقد بلغت عشرين جرساً، بينما كان في الميدان نفسه أيام القيصرة صوفي جرس واحد فقط . . تزايدت أعدادها مع توالي القياصرة على حكم روسيا. في عهد بطرس الأكبر اكتسبت الأجراس ألحانها التي يطرب لها أهل موسكو . . تغيرت الألحان أكثر من مرة . . كان بطرس الأكبر ــ كما هو معروف ــ شديد الإعجاب بالثقافة الجرمانية، فكانت الأجراس في عهده تعزف لحناً ألمانياً . . صارت لاحقاً تعزف اللحن الروسي القديم المعروف **«كول سلان»**. وبالطبع تبدّل اللحن في عهد الثورة البلشفية عدة مرات، إلى أن استقر الآن على اللحن الوطني الروسي.

يشعر زائر الكرملين من الداخل، بعد أن يتفقد أبراجه وأسواره من الخارج، أنه أمام مدينة رائعة مثيرة حافلة بالذكريات من كل نوع . .

○ ذكريات سعيدة مرحة راقصة . .

○ وذكريات سوداء دموية حزينة . .

○ ذكريات القيصرة صوفي التي قتلت زوجها بالخنجر المسموم وهي تداعبه مداعبة الزوجة المحبة.

○ ذكريات القيصر فاسيلي الذي قتل خمساً من زوجاته إرضاء لكل عشيقة جديدة يختارها لترأَس حفلات الرقص في الكرملين.

● يقول المؤرخ ألكساندروف عن القيصر فاسيلي، إنه كان مولعاً باختيار المحظية الجديدة في حفل حاشد في الكرملين . . يُدعى إليه أشراف البلاد مع زوجاتهم . . تُعرض أمامهم أكثر من خمسمائة فتاة قدّمهنَّ ذووهنّ طائعين لتختار منهنَّ لجنة التحكيم محظية جديدة للقيصر . . عدد أعضاء لجنة التحكيم ثلاثة من أشراف

البلاد وزوجاتهم، مدركين أن مصيرهم القتل إذا شعر القيصر صباح ليلة الزفاف أنهم أساؤوا اختيار محظيته.

● أما ذكريات **إيفان الرهيب**، ذلك القيصر الذي ارتكب من المذابح ما فاق فظاعةً جلّ ما ارتكبه سفاحو التاريخ مجتمعين.

فعلى امتداد خمسين عاماً، حكم إيفان الرهيب روسيا من الكرملين، مجدّداً تقليد جده الأكبر فاسيلي باختيار أشراف البلاد وزوجاتهم لمحظياته، مع تعديل في الأسلوب، أكثر دموية ووحشية . . فكما يشير المؤرخ ألكساندروف :

ـ كان إيفان الرهيب يأمر بقتل كل من حضر حفل الاختيار، ما لم ترق له المحظية: جميعهم، رجالاً ونساء، من اشترك في لجنة الاختيار ومن لم يشترك. الأبشع من ذلك أنه كان يأمر بقتل كل المرشحات للاختيار أيضاً!

في عهد ذلك السفاح حدث أفظع حريق في تاريخ موسكو . . إحتمى القيصر بأسوار الكرملين، بينما الناس يموتون في البيوت والشوارع محترقين وصرخاتهم المدوية المحزنة تعلو لهب ألسنة الحريق الرهيبة . . ولم ينجُ الكرملين من التلف جرّاء الحريق . . لعلّ أخطره ما حدث لكنيسة القيامة المبنيّة داخل الكرملين . . وحين أراد إيفان تجديد بنائها، استدعى المهندس المعماري الإيطالي الأشهر ماركو روو، فسأله إيفان :

ـ روو، هل سبق لك أن زرت وشاهدت كنيسة القيامة عن قرب، قبل أن تلتهمها ألسنة الحريق ؟

ـ أجل يا صاحب الجلالة . .

ـ فهل تستطيع إعادتها إلى منظرها القديم ؟ أريد القباب نفسها والأبراج نفسها، والأبواب نفسها . .هل تستطيع ذلك يا روو ؟

ـ أجل يا صاحب الجلالة.

ـ حسناً. .أطلب أي قدر من المال شئت، وأي عدد من العمال أردت، وإني أمهلك عامين لأداء المهمة.

أتم الفنان مهمته بعد العامين . . حضر إيفان، وأطال تأمل الكنيسة من الداخل والخارج . . صعد حتى قبابها، وتفقد أقبيتها . . ثم قال للفنان الإيطالي :

ـ [بغضب] لقد شيّدت لي أيها الحقير كنيسة إيطالية، لا كنيسة روسية . . زعمت أنك شاهدت الكنيسة قبل الحريق . . ووعدت بإعادتها إلى سابق عهدها. . لكن يبدو أنك لم تشاهد شيئاً وكذبت عليَّ . .لهذا فعقابك سيكون بحجم خطيئتك . .

● أما عن عقاب ذلك الفنان الإيطالي، فيكتب ألكساندروف :

ـ فعل به ما هو أبشع من القتل . . سمل عينيه وقطع لسانه . . وقال :

ـ إن الموت سيريحك . . ولكنني لا أريد لك الموت بعد أن كذبت عليَّ.

● اختصرنا الكثير من الكلام عن الكرملين، فقد طال الوقت ولم نكد نقرأ غير صفحات قليلة من سجل تاريخ هذا الكرملين الطويل. . وتجاوزنا عن عمد ما جرى من أحداث داخل جدرانه في حقبة سنوات ما قبل سقوط الإمبراطورية الروسية ـ أي حقبة راسبوتين، الذي سبق أن روينا ليلة مصرعه.

الفصل السابع والأربعون

دهاليز المؤامرات في بيوت بابوات روما!!

. . . امرأة رائعة الجمال كحلم الفنان . . بارعة الذكاء كسائر اللامعين في عصرها! هي صورة حية لعصر النهضة الإيطالية بكل ما فيه من عاطفة ملتهبة ومباذل وجرائم أذهلت الشياطين . . وبكل ما فيه أيضاً من علم وفكر وفن . . هو عصر شكّل الحجر الأساس في ما بلغته الحضارة الغربية الآن . . **إنها لوكريزيا بورجيا . .**

● تحدّرت من أسرة جميع فتيانها وشيوخها من بين المرشحين لأخطر منصب ديني: عرش البابوية في **روما** . . جدها، أبوها . . ثلاثة من إخوتها انتُخبوا بابوات!

والعجيب أنها هي المرأة الجميلة البارعة الذكاء، الباحثة عن اللذة في الحلال والحرام أينما وجدت . . هي المحرّك الحقيقي لهؤلاء جميعاً من وراء الستار . .

□ □ □

إذا رجعنا في الزمن إلى يوم شباط/ فبراير ١٤٩٧، ودخلنا القاعة الكبرى في قصر الفاتيكان ــ مقر البابوية ــ لرأينا لوكريزيا ذات الخامسة عشرة من العمر في ثوب

شفاف يكاد يظهر تقاطيع جسمها، ترقص مرحة فرحة كفراشة مخمورة، وعيون الحاضرين والحاضرات تتابع بإعجاب وثْباتها البارعة المثيرة!

الرجال يتطلعون إلى لحظات انفراد مع هذه الساحرة المسحورة. . والنساء تلهب قلوبهن الغيرة من هذه الجنية الصغيرة التي أدار جمالها وسحرها رؤوس الأزواج والأبناء. .

وأبوها، البابا ألكسندر السادس على عرشه، وحوله ولداه سيزار وغانديا، يرقبون تأثير هذا السحر على الحضور . . يقترب سيزار من والده مبدياً استياءه ممّا تؤديه أخته من رقص مثير . . فيجيبه أبوه :

ـ يا ولدي، آن الأوان كي تظهر لوكريزيا في المجتمع الإيطالي . . أردت أن يكون ظهورها على صورة لا ينساها الناس أبداً . .

ـ لكن يا أبي، إني لأخشى أن يؤثر هذا على شخصيتها، ما قد يدفعها إلى الغرور والطيش. .

ـ [ضاحكاً] **غرور، طيش! إنها اذكى امرأة في الدنيا. . لا تخف على أختك. . إن الشياطين ليتتلمذون على يديها!**

ـ الأجدر أن يكون الخوف على سمعتك كرئيس روحي لهؤلاء الناس جميعاً. .

ـ إسمع يا سيزار، آل بورجيا لا يخافون أحداً. لقد عزمت على ألا يبقى منصب البابوية مجرد رمز ديني . . يجب أن يكون للبابا السلطان المطلق في الأمور الدينية والدنيوية معاً، يجب أن أكون بابا وإمبراطوراً معاً . . ولقد نجحت في هذا إلى حدّ بعيد. .

ـ يا أبي، أنا أحدثك عن لوكريزيا!

ـ سنزوجها إلى رجل من أسرة نستطيع أن نسخّرها لأهدافنا . .

ـ إذن، فلوكريزيا وسيلة لغاية . .

ـ لنقلْ إنها غاية ووسيلة معاً . .

● وكان ما كان. **زوّجوها إلى الكونت جيوفاني سفورزا** . . رجل في الخمسين، اشتهر بعزوفه عن الناس . . زوّجوا النار الملتهبة إلى الثلج الذي لا يذوب . .

نقلها الزوج الوقور الشديد التزمت إلى مدينته بسارو، حيث عاشت في قصره الأشبه بالمعبد مدة عامين . . ولكن متى كان في طبيعة النار أن تحبس في قمقم؟ خرجت في الظلام إلى مباذلها، والزوج لاهٍ عن عبث زوجته، بصلاته، وعبادته، ورعايته طفلته الجديدة من لوكريزيا . .

وتسألها إحدى صديقاتها :

ـ هل الطفلة ابنة زوجك حقاً ؟

ـ لا تكوني سخيفة . . يكفي أنها طفلتي، ويكفي في النهاية أنها تحمل اسم سفورزا.

ـ ألا تحبين العودة إلى روما؟

ـ لا، لست أريد العودة . .

ـ عجباً، والحرية التي تتطلعين إليها هناك ؟

ـ حريتي هنا مكفولة، زوجي لا يردّ لي طلباً . .

ـ وعشاقك هناك؟ . .

ـ لقد ضقت بهم ذرعاً لسببين: شقيقي غانديا، رغم رقته، لوّث حياتي بتصرفاته الصبيانية .. وأثار حولي كثيراً من الشائعات ..

ـ وسيزار؟

ـ يريد سيزار أن يجعلني عبدة لرغباته ولأطماعه السياسية .. لا .. أنا هنا بمأمن من متاعب هذين الأخوين ..

□ □ □

● بيْد أن غانديا لم يحتمل عذاب البعد عن شقيقته، بعدما ذاعت في روما قصص مذهلة عن مباذل الأخت الجميلة .. كان لا بد من أن يذهب إليها .. إنما قبيل سفره بليلة واحدة، ترصدته الخناجر المسمومة، فمزقت جثته التي عثر عليها بعد أيام في مياه نهر التيبر.. يقول الأب لابنه سيزار:

ـ لقد أشارت إليك الأصابع في كل أنحاء روما حول حادث مقتل أخيك!

ـ الغاية تبرّر الوسيلة .. كما علمتنا يا أبي..

□ □ □

● وحلّت مناسبة ذكرى تتويج البابا ألكسندر السادس، حيث حضر الأمراء والأشراف وكبار الأعيان إلى روما .. وكان سفورزا ـ زوج لوكريزيا ـ من بين الحضور، لكنه أبقى زوجته في مدينته.. واختلى سيزار بالزوج معاتباً إياه ..

ـ طلبت إليك عشرات المرات أن تعود بزوجتك إلى روما، فإلى متى تعصى رغبة قداسة البابا..

ـ إنها رغبتك أنت يا سيزار..

ـ هل تعرف أنك تتمرد على الأوامر المقدسة؟

ـ بل أتمرد على ما أشمّ منه رائحة تمسّ بشرفي!

ـ هذا أمر خطير. . ألا تخشى أن نجردك من بركات الكنيسة ؟

ـ عندها سأعود إلى مدينتي، وأطوف أرجاء إيطاليا ومعي زوجتي، نعلن على الملأ عن أهدافك التي تتنافى مع الدين والأخلاق.

ـ عزيزي الكونت سفورزا، أنت صهري، فلم العداء؟

ـ كان غانديا أخاك يا كونت سيزار!

ـ اطمئن تماماً يا كونت، فليس ثمة من يفرض عليك ما لا تريد!

□ □ □

● في اليوم الثالث من الاحتفالات، وجدوا الكونت سفورزا ميتاً في غرفته . . لكن الطبيب المشهور أنطونيو جرماني قال كلمته الفاصلة، بعدما حاز دوقية نابولي :

«الموت طبيعي بهبوط في القلب . . لقد نصحته بعدم الخروج في رحلة الصيد أمس، لكنه لم يستمع إلى نصحي . . إن رحلات الصيد لا تتناسب مع سنّه».

□ □ □

● من عجائب النفس البشرية أنها تتغير من الحال إلى النقيض، في لحظات. . انقلبت لوكريزيا من زوجة خائنة مبتذلة، إلى أرملة تنادي بالقصاص من قتلة زوجها! كيف حدث هذا؟ توضح في مذكراتها قائلة :

«لا أدري . . لم أكن أحب سفورزا، وإعجابي وحبي لأخي سيزار مضرب الأمثال في إيطاليا كلها. لكن الضربة التي مُنيَ بها سفورزا أصابت كرامتي في الصميم . . ولا بد من أن أنتقم لزوجي، حتى لو قتلت أخي بيدي».

وعادت لوكورزيا إلى روما، ولم يمضِ على عودتها أكثر من عشرة أعوام، حتى غدت صاحبة السلطة الوحيدة في روما . . تحرّك أباها البابا، وأخاها سيزار من بعده، حين تربّع على عرش البابوية. ولم تسترح حتى انغرس الخنجر المسموم في صدر شقيقها . . والفاعل مجهول!

هل الموناليزا حقيقة ؟

هل هي حقيقة، أم يشوبها جانب من الأسطورة والخيال؟

لا تزال لوحة الموناليزا، رغم مرور ما يناهز ستمائة عام على رسمها، لغزاً محيّراً فهذه اللوحة أثارت الكثير من الجدل منذ العقود الأولى على رسمها.

□ □ □

● يقول المؤرخ الفني الأميركي روي ماكملن:

«لا تحمل الموناليزا توقيعاً، ولا تاريخاً، وليس ثمة دليل على تكليف فنان ما برسمها، كما لا تتوافر وثائق تحدد المبلغ الذي تقاضاه عنها».

● ويعتقد البعض أن الفنان العظيم ليوناردو دافنشي بدأ برسم لوحة الموناليزا عام ١٥٠٣ بقياس (٥٣×٧٧ سنتم)، وأنه أمضى عدة سنوات لإنجازها، نظراً إلى أن صاحبتها قد استحوذت على لبّه، فأخذ يطيل في رسمها كي يتمكن من الالتقاء بها، والاختلاء إليها أطول مدة ممكنة!

● وهناك من كتب سيرة المرأة التي تمثلها لوحة **الموناليزا** متسائلاً، علّه يجد إجابة على ذلك السرّ الغامض الذي يكتنفها.

عام ١٥٥٠، كتبت جورجيا فاساري محاولة من خلال سيرة ليوناردو دافنشي الكشف عن شخصية **الموناليزا**:

«إن ليوناردو دافنشي تعهّد لفرانشيسكو دل جيوكوندو برسم زوجته موناليزا».

في تلك الأيام، اعتُمدت لفظة «مونا» تصغيراً للفظة «مادونا» التي تعني «سيدتي».

كما تفسّر الكاتبة لماذا أطلق الفرنسيون على اللوحة اسم **لا جيوكوندو**، والإيطاليون اسم **لا جيوكندا**.

وتضيف كاتبة السيرة: **«استمر عمل ليوناردو دافنشي في رسم تلك اللوحة أربع سنوات، ثم تركها دون أن يتمّها، وهي موجودة الآن في مدينة فونتينبلو في قصر صاحب الجلالة الملك فرانسيس، ملك فرنسا».**

● كتبت جورجيا فاساري هذا الكلام في التاريخ المشار إليه عام ١٥٥٠، حينما تناولت سيرة تلك اللوحة ورسّامها، واختتمت موضوعها بالقول:

«ومن فونتينبلو شقّت اللوحة طريقها، لتعلّق في متحف اللوفر في باريس».

□ □ □

● غير أن هذه المعلومة لا تتوافق وسياق المعلومات الأخرى عن لوحة **الموناليزا!**

فعندما باشر ليوناردو دافنشي رسم ليزا دل جيوكوندو، كانت في الرابعة والعشرين من عمرها. بينما يرى نقّاد الفن في المرأة التي رسمها دافنشي كأنها في أواخر الثلاثينيات أو مطالع الأربعينيات من العمر..

من ناحية أخرى، اللوحة المعلّقة في اللوفر مكتملة التفاصيل، في حين أن رواية جورجيا فاساري تتحدث عن لوحة غير كاملة!

وهكذا نلاحظ الكثير من علامات الاستفهام حول لوحة الموناليزا، بسبب الروايات المتعددة التي أثيرت حولها. .

● من هذه الروايات أن ليوناردو دافنشي رسم أكثر من لوحتين للسيدة ليزا، بل ثمة من يؤكد أن دافنشي ربما أنجز لوحتين لامرأتين متشابهتين.

● والبعض يقول إن الموناليزا ليست رسماً لامرأة واحدة، بل هي مجموعة من نساء نبيلات كنّ مثار إعجاب ليوناردو دافنشي، فرسمهنّ جميعاً في امرأة واحدة.

● وثمة رواية أخرى تزعم أن السيدة في الصورة امرأة حبلى مشهورة في بلاط نابولي، وقد رسمها ليوناردو دافنشي.

□ □ □

● ورد في **الموسوعة البريطانية** بحثٌ كتبه جوزيف فيتشي، يقول فيه:

● «هناك اثنتا عشرة لوحة على الأقل تمثل مهارة أعمال ليوناردو دافنشي صاحب الموناليزا. . والكثير من هذه الأعمال قام بإنجازها تلامذة ليوناردو، ادّعى بعضهم من وقت إلى آخر أنه هو الرسام الأصلي للوحة موناليزا».

□ □ □

● عام ١٩٥٥ نُظّمت في فرنسا ندوة حول الرسومات المنحولة دولياً، عُرضت فيها اثنتا عشرة نُسخة مشابهة تماماً للوحة **الموناليزا**. إنما المؤكد أن لوحة ليزا دل جيوكوندو قد وُجدت ضمن المجموعة الفنية للملك فرانسيس الأول الذي ارتحل من قصر إلى آخر.

● وما يبعث على الحيرة، أن العديد من المتاحف والمصارف في العالم تضمّ مجموعات فنّية لأشخاص أوروبيين وأمريكيين، بعضهم يدّعي سراً أنه يحتفظ باللوحة الأصلية **للموناليزا**.

□ □ □

لعل ما تقدم عن الموناليزا يكمن في وادٍ، وما جاءت به عنها رواية **إشارة دافنشي** أو **DaVinciCode**، في وادٍ آخر...

وإن المرء ليتساءل: ما هي حقيقة **الموناليزا**؟

الفصل التاسع والأربعون

هل نصدّق ما يشاع عن الأحجار الكريمة؟

منذ العهود السحيقة، تحتل الأحجار الكريمة من ماس، وزمرّد، وياقوت وغيرها، مكانها المرموق في خواتم وعقود وتيجان الأباطرة والملوك والأمراء والأثرياء. .

فراعنة مصر وأباطرة الرومان والصين ومهراجات الهند، والملوك والملكات وكبار أثرياء الأمم والشعوب، جميعهم مولعون بتلك الأحجار الكريمة من مختلف الأشكال والأحجام. . بعضهم يتخذها للأبهة والفخر. . وبعضهم الآخر يتقي بسحرها المزعوم غوائل الزمان والسموم التي تدسّ في الظلام.

في بردية «قوص»، كتب أحد رجال رمسيس الثاني:

«قد أمرني الملك الإله بإجراء المراسيم المعتادة في معبد الكرنك على الياقوتة الكبيرة التي تحلّي تاج الوجهين، فقد نُمي إلى علم الملك أن الحثّيين أرسلوا جواسيسهم بهدف اغتياله أثناء التدريبات العسكرية المعتادة، أو بدس السمّ له في الشراب. نفذت أوامر الملك، وبعدها بأيام ألقى الحرس القبض على عدد من

جواسيس العدو، تسلّلوا ليلاً إلى القصر، واعترفوا بما كانوا يعتزمونه: قتل الملك».

● يزخر التاريخ بأمثال الياقوتة الفرعونية التي ضرب عليها كهنة آمون في معبد الكرنك سحراً يقي الملك شرور أعدائه.

وإذا كان بعض هذه الأحجار الكريمة ذا مفعول خيّر، فما أكثر روايات التاريخ عن أحداثٍ سواها ذات المفعول الشرير، حتى تسببت بحوادث مأساوية بالغة العنف.

● ترى ما حقيقة تلك الأحجار الكريمة؟ هل حقاً يستطيع السحرة بسحرهم الأسود تسخيرها لأغراضهم، شريرة كانت أو خيّرة؟

لنبحث عن الإجابة، حيث يقول عالم الطبيعيات الأميركي كينيث إيمرسون:

«أمثال هذه الأحجار ــ الشريرة منها والخيّرة ــ تصدر بطبيعتها إشعاعات إيجابية أو سلبية حسب شخصية حاملها.. فهناك أحجار كريمة ذات تكوين ذرّي خاص، تتميز عن سواها بــ «ذاكرة» حقيقية تحفظ فيها مختلف المواقف العنيفة التي تلتقطها على مدى تاريخها. هذه الذاكرة الذرية سبق أن لاحظها القدماء في الماس والزمرد والياقوت على وجه الخصوص.. ومن مزايا تلك الذاكرة أنها تطلق إشعاعاتها محملة بما فيها من قوى مجهولة الكنه، في وقت محدد، وفق عمليات معقدة».

وعندما سُئل إيمرسون: **هل لشخصية حامل تلك الأحجار، سواء في خاتم أو قلادة، أو تاج، دخل في تحديد الوقت الذي تصدر فيه تلك الذاكرة الذرية؟**

كانت إجابته:

«نعم، إلى حد ما.. لكنني لا أجزم بذلك، فما توصلتُ إليه أبحاثي أن التكوينات

الذرية لهذه الأحجار تتميز بصفات غامضة ومجهولة، كما أن أسباب انطلاق أشعتها الشريرة أو الخيترة في وقت محدد، غير معروفة لأحد».

● الشر الكامن في بعض تلك الأحجار الكريمة، لا ينكره أصحابها أو المحيطون بأصحابها، من أصدقاء وحاشية..

فهناك الماسة الزرقاء البديعة الصقل واللون، واسمها ماسة الأمل (Hope)، على اسم آخر من امتلكها، وإن لم يكن آخر ضحاياها..

وثمة الماسة الكبيرة الرائعة التي تعتبر أروع ماسات التاج البريطاني، واسمها Koh-I-Noor كوهينور، كانت من ممتلكات أحد مهراجات الهند. استولى عليها المغامر البريطاني كليف وأهداها إلى الملكة فيكتوريا.. وحالما أمسكت بها الملكة في يدها، ارتعدت رعدة شديدة وألقتها على الأرض.. ثم صاحت مذعورة، «**يا إلهي، لقد تلوّت في يدي كما تتلوّى الأفعى.. كأنما ضرب صاحبها عليها السحر ليؤذيني.. أبعدوها عني.. لا أريد أن أراها**».

ولم يمس الماسة الكبيرة الرائعة، كوهينور، أحد من أمناء المتاحف البريطانية، إلا أصيب بأزمة في صحته، أو ماله، أو منصبه!

حُفظت الماسة في المتحف البريطاني، حتى صرّح الملك جورج الخامس:

«أنا لا أصدق هذه الخرافات.. هذه الماسة أروع وأثمن من أن تبقى في صندوق زجاجي في المتحف. آمركم بترصيعها في التاج البريطاني».

بعد شهرين، مات جورج الخامس.

● وحين اقترب موعد تتويج إدوارد السادس، حذّره البعض:

«يا صاحب الجلالة. هذه الماسة مشؤومة. إنزعها من التاج يوم التتويج ولا تدعها تعلو هامتك أبداً».

رفض إدوارد السادس الإصغاء إلى التحذير لكنه سرعان ما فقد عرشه قبل التتويج، إذ تنازل كيما يتزوج من السيدة سيمبسون.

● وحان دور ملكة بريطانيا الحالية إليزابيث الثانية.. لدى اقتراب موعد تتويجها عام ١٩٥٢، استمعت إلى نصيحة مستشاريها:

«يا صاحبة الجلالة، بإمكاننا أن نضع مكان الماسة كوهينور قطعة من البلّور المصقول في مثل شكلها وحجمها ولونها تماماً.. فلا تضعي على رأسك التاج الذي يحمل هذه الماسة الملعونة».

استحسنت الملكة عرض المستشارين، وبعد مراسم التتويج، أعيدت الماسة الحقيقية كوهينور إلى مكانها من التاج البريطاني..

□ □ □

● أما في متحف اللوفر في فرنسا، فثمة ماسة شريرة، تفوق كوهينور أذية في المفعول.. إسمها سانسي، التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر. حازتها أسرة فرنسية عريقة من جنوب فرنسا (اللانغدوك)، توارثها الأبناء عن الأجداد حتى آلت إلى الآنسة فيوليت سانسي عام ١٤٦٢..

كانت فيوليت ثرية بقدر ما كانت جميلة، فتقرّب إليها أحد أمراء فرنسا المشهورين بالجرأة والجسارة والطموح.. اسمه شارل الجسور.. الذي أوشك يوماً على تولّي عرش فرنسا، فأراد الاستعانة بأموال الآنسة فيوليت من دون أن يتقيد بالزواج، فأخذ يكثر زياراته إلى قصرها، حتى وقعت الفتاة في غرامه.. هيمن عليها، وأخذ يعبث بها، بل سلبها أكثر أموالها.. ثم صدّ عنها..

قررت الانتقام منه، فدعته إلى وليمة فاخرة في قصرها.. ثم اختلت به لتقول له:

«لا شيء يا عزيزي شارل يعزّيني في هجرانك لي إلا الجنين الذي أحمله في أحشائي. . لهذا عزمت على أن أهبك أعظم وأثمن ممتلكات أسرة سانسي. . إنها هذه الماسة الوردية النادرة. . ضعها يا حبيبي في قلادتك، لعلها تذكرك بحبيبتك فيوليت التي يأبى طموحك السياسي أن تتزوجها! إنها ماسة ستحميك من أعدائك، وربما تعيدك إلى وطنك ملكاً».

● ما إن غادر شارل القصر، حتى فوجىء بهجوم شنّته قوات رينيه الثاني ملك جنوب فرنسا. فاختفى أياماً. وفي ١٤ آذار/ مارس عام ١٤٧٧، عثر عليه في مستنقع قرب حقل مهجور، وقد نهشت الذئاب نصف جسده. . ظلّت الماسة الملعونة تلمع في القلادة على صدره.

● وتنقّلت تلك الماسة من أمير إلى آخر، ومن ملك إلى آخر، فلا تدع أحداً منهم دون أن تمسّه بشيء من شرّها!

كان آخر مالكيها السمسار الفرنسي الأفّاق المزوّر ستافيسكي، الذي قتل نفسه بعدما افتضح أمره في العديد من قضايا التزوير. لكنهم اكتشفوا أن الماسة سانسي كانت تزيّن خاتماً ذهبياً في إصبعه ساعة انتحاره. .

● والسؤال: كيف وصلت ماسة سانسي إلى متحف اللوفر؟

يجيب أحد القيّمين على المتحف:

«رأيت أن أحبسها في صندوق زجاجي في إحدى غرف اللوفر. . وليس عجباً أن يعزف الزوار عن دخول هذه الغرفة والنظر إلى الماسة الشريرة. . فالناس باتوا يخشون شرّها، بعدما نشرت إحدى الصحف تاريخها المأساوي».

ثم روى المسؤول كيف كان تعامله مع تلك الماسة الملعونة منذ عام ١٩٤٠ ـ أثناء الحرب العالمية الثانية ـ عندما كان آخر مالكيها آنذاك أحد السياسيين

المناهضين لحكومة فيشي. أراد أن يهرب بالماسة إلى إنكلترا، قبل أن يلقى القبض عليه، فعهد بها إلى سكرتيره، وقال له:

«إن تهريب هذه الماسة الثمينة، ليس بالأمر الهيّن، فإذا رأيت أنك عاجز عن إيصالها إلى إنكلترا، فدعها ولا تعرّض نفسك للأخطار».

أجابه السكرتير:

«سيدي، أعرف ما يُشاع عن تلك الماسة، ولا أصدق ما يقال.. وثِق أنني سأصل بها إلى إنكلترا.. وسأضعها في مكان آمن لا يمكن للجندي النازي الذي سيفتشني أن يكتشفه. فسوف أبتلعها».

● أُلقي القبض على السكرتير المغامر. ولا أحد يدري كيف عرف الغوستابو بما في حوزة الرجل حين قبضوا عليه وفتشوه، من دون أن يعثروا على الماسة، التي كانوا واثقين من وجودها معه.. ثم لاحظ أحد الضباط أن الرجل كان يتلوى إثر تلبّك معوي.. فأصدر أمراً فورياً بإطلاق الرصاص عليه، وبفتح بطنه، واستخراج الماسة من جوفه..

● سُلّمت الماسة إلى ستوبلناغل، الحاكم الألماني على باريس. بعد سنتين أمر هتلر بشنقه في شهر تموز/يوليو عام ١٩٤٤ بتهمة الضلوع في مؤامرة لاغتيال هتلر، فأعدم أمام دار الحكومة في شارع رافيولي.

في أعقاب ذلك، تسلّم الغوستابو مقتنيات ستوبلناغل من أموال ومجوهرات، ومن بينها ماسة سانسي الملعونة، التي عُرضت على غورنغ المشهور بشغفه بجمع التحف والجواهر التاريخية. فاحتفظ بالماسة لنفسه.. وسرعان ما انتحر في زنزانته عام ١٩٤٦.

● لاحقاً، عادت الماسة سانسي أدراجها إلى متحف اللوفر، حيث استردتها

الحكومة الفرنسية عندما تمت إعادة المسروقات أثناء الحرب. هذه المرة بيعت الماسة في مزاد علني، فاشترتها سيدة تدعى مدام باجيه.. عرضتها بدورها للبيع بسعر زهيد، إذ مات ولدها الوحيد بعدما أهدتها إليه يوم زفافه..

تقدّم لشرائها منها السيد جان فاندوم، أحد كبار المشتغلين بتجارة الأحجار الكريمة. فقال للسيدة باجيه:

ـ سيدتي، هذه الماسة لا يقل ثمنها عن أربعة ملايين فرنك، لماذا تعرضينها للبيع بمائة ألف فرنك فقط؟

ـ اعتقاداً مني، يا سيد فاندوم، أن هذه الماسة مشؤومة. لقد مات ولدي الوحيد فجأة ليلة زفافه، بعدما أهديتها إليه..

ـ إنها مجرد مصادفة يا سيدتي..

ـ لا يا سيد فاندوم، ليس الأمر مصادفة.. عندما أقدمت على شرائها، كان هدفي أن أهديها إلى زوجي.. في اليوم التالي، كُسرت ساقه.. وبعدها بأسابيع خسر وظيفته.. ولم يمض عام حتى فارق الحياة في حادث سيارة.. إني على أتم استعداد لبيع هذه الماسة بهذا السعر، وهذه أوراقها الرسمية حتى لا تظن أنني سرقتها..

● وعند الاطّلاع على مذكرات السيد فاندوم، نقرأ ما يلي:

«بادئ الأمر لم أصدق ما زعمته مدام باجيه عن تلك الماسة المشؤومة سانسي، إنما لم تمر أيام على وجودها في متجري، حتى تعرّض المتجر لحريق مروّع.. خسرت فيه معظم ثروتي.. فأودعت الماسة في أحد المصارف، بعد فترة وجيزة، نشرت الصحف أن ذلك المصرف تعرّض لعملية سرقة كبيرة.. ولما استعدتها، وعرضتها في متجري ثانيةً، علّني أبيعها وأسترد ما دفعته من ثمن عليها، إذا

بالمتجر يتعرّض لحريق آخر، أفقدني هذه المرّة كل ثروتي.. ما دفع بي وأنا في سورة من الغضب أن ألقي بها في صندوق للقمامة في شارع بعيد تماماً عن بيتي.. لكنني ذهلت حين وجدتها تعرض في المزاد في أحد أيام ربيع عام ١٩٥٧.. لا أعرف كيف شقّت طريقها إلى محل أحد أصدقائي من تجار المجوهرات. فحدّثته عمّا حلّ بي من دمار جرّاء اقتنائي إياها، واتفقنا على أن نقدمها إلى الحكومة لتحبسها في صندوق زجاجي في إحدى غرف متحف اللوفر ـ الغرفة التي بات الناس ينفرون منها ويعزفون عن زيارتها.. حتى يقال إن ما من زائر دخل الغرفة، وتأمل الماسة اللعينة إلا أصابه شيء من شرّها وأذاها..

أما أنا ـ والكلام لا يزال للسيد فاندوم ـ فأسير في الطريق حاملاً آثارها: على ساق خشبية، بعدما كسرت ساقي في اليوم نفسه عندما اشتريتها. فسامحك الله يا سيدة باجيه».

□ □ □

د. نجم عبد الكريم

أتم دراسته العليا في أميركا في الإعلام، ومنذ ما يزيد على الأربعة عقود كرَّس جلَّ اهتمامه للعمل الإعلامي إلى جانب تدريسه الجامعي لحرفيات الإعلام.

كتب للإذاعة والتلفزيون، ثم تفرع للكتابة الصحافية والتأليف.

صدر له:

ـ شخصيات عرفتها وحاورتها (جزآن)، شركة رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠١٢.

ـ أدباء من العالم، شركة رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠١٣.

فهرس الإعلام

أ

ب

ت

ج

ز

س

ش

ص

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرس الأماكن

ع

ف

ق

ك

ل

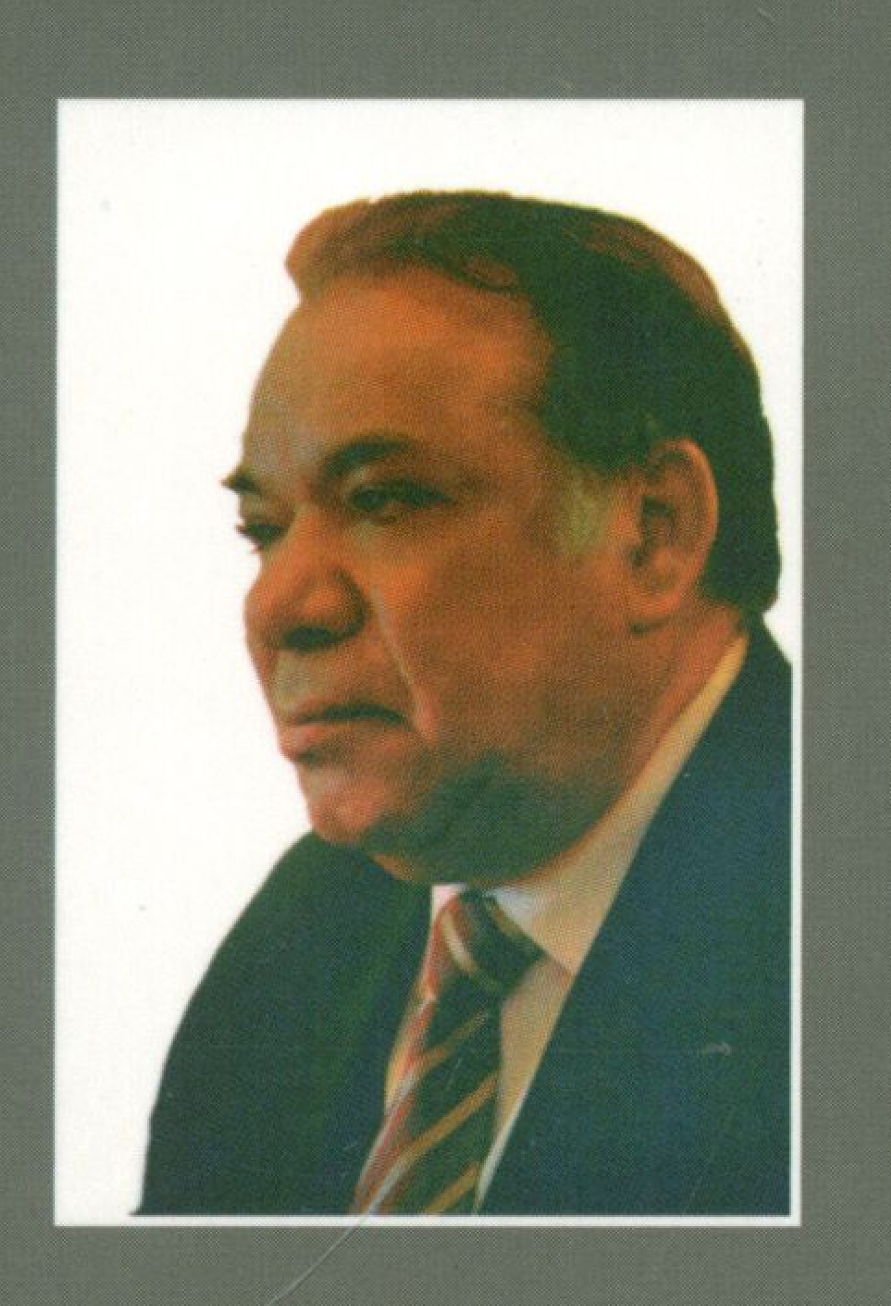
م

ن

هـ

و

ي



نجم عبد الكريم

عندما يتكلم التاريخ

ما أن يجتاز القارئ الصفحات الأولى لحكايات (ألف ليلة وليلة) ، حتى يجد نفسه قد انسجم بتفاعل شديد مع عوالمها المشبعة بأقاصيص صاغها المخيال الشعبي عبر سلسلة الحضارات المتعددة ، وعلى امتداد قرون موغلة في القدم ، ثم توارثتها الأجيال تلو الأجيال لتغدو «ألف ليلة» أيقونة الآداب ، القائمة على ذلك المخيال الخرافي الساحر .

وبغض النظر عن الظروف الموضوعية التي تؤدي الى شيوع هذا اللون من الحكايات والأقاصيص المرتكزة على خصوبة المخيال الشعبي الذي لا تحده حدود ، سواء في (ألف ليلة) أو سواها، فإن تاريخ البشرية يحفل هو الآخر بوقائع حقيقية وأحداث فيها ما يفوق الخيال الذي يستهوي القارئ لاحتوائها على ما لا يُصدق !!.

من هنا جاءت فكرة هذا الكتاب .. فمنذ أكثر من عقدين ، عقدت العزم على جمع (ألف حكاية وحكاية) على غرار (ألف ليلة وليلة)، وهذه الحكايات تستند الى حقائق وقعت على طول امتداد مساحات التاريخ البشري.



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS



ISBN 978-9953-21-582-2